

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

قاتل حمزة

Hamza's Killer

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا

إصدار متميز

Special Edition Special Edition



حارة اليهود



مملكة البلعوطي



Design by Abdul Rahman Magdy







نجيب الكيلانى

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

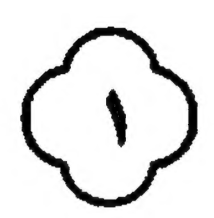
رقم الإيداع: ٢٠١٢/٩٨٠٣

الترقيم الدولى

977-255-349-X



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب- السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com



امتد الليل البهيم حتى شمل العالم من حوله، وغطى «مكة» وبطاحها بسواده، ولم تستطع النجوم المتناثرة فى كبد السماء أن تبدد إلا النزر اليسير، فبدت مكة بيوتها كتلة غامضة لا تكاد تبين معالمها، والصمت يضرب أطنابه على الربوع، إنه صمت زائف يخفى تحت طياته انفعالات ثائرة، وأحقاداً مبيتة، وآمالا خطيرة يلوثها الشذوذ والعناد. . فغداً يوم الثأر. . غداً تخرج قريش بقضها وقضيضها. . لتثأر من محمد رسول الله. . . فهى لم تنسَ يوم «بدر». . تلك المعركة الخالدة التى قتل المسلمون فيها عدداً كبيراً من رجالات مكة وأبطالها. . وأسروا عدداً آخر. .

وفى خضم ذلك الظلام خارج مكة كان هناك رجل تجلس إلى جواره فتاة وحيدين فى خلوتهما البعيدة، وبدا الرجل شارداً بعض الوقت. تمتمت الفتاة وقد آلمها شروده:

- «ما بك يا وحشى؟؟».

- «عواصف هائلة تضطرم فى نفسى. . ».

«لِمَ لا تأخذ الحياة ببساطة ويسر؟! إننا نقضى لحظات حلوة لكنكَ تحاول دائمًا أن تنغص علينا متعتنا. . ».

أدار إليها وجهه الأسود، وبريق عينيه يومض فى الظلمة، وقال:

- «نحن العبيد أتعس ما فى الوجود. . حياتنا سقيمة. . معقدة. . قوامها الذل والكدر والأحزان. . السعادة شىء نسمع عنه ولا نلمسه أو نمارسه. . فلا تتحدثى عن البساطة والمتعة. . ».

أمسكت بذراعه القوية المفتولة، وتمتمت فى براءة:

- «ويحك يا وحشى!! إننى أعيش فى بيت سيدى. . أعمل وأنام، وآكل وأشرب، وأختلس بعض الساعات لأجلس إلى جوارك. . وأستشعر فى ذلك كله متعة كبرى. . إننى خُلقت لهذا، ولماذا تطمع الأمة التى مثلى فى شىء أكثر من ذلك؟؟».

قهقه فى سخرية حاقدة وقال:

- «الحرية. . ».

قالت فى خوف:

- «الحرية؟؟ عجيب أمرك. . ستكون الحرية عبئًا لا تحتمله

كواهلنا الضعيفة . . سنبذل جهوداً مضاعفة لننال اللقمة وسنصبح عرضة للعدوان والازدراء، إن سادتنا يبسطون علينا حمايتهم ويجودون علينا بالطعام والشراب . . إنهم يؤمِّنون لنا المستقبل أيها الأبله . . ».

تنهد «وحشى» فى حسرة، وأخذ يجوب الآفاق السوداء بنظراته القلقة، ويتطلع إلى النجوم البعيدة يائسًا، وقال وهو يهز رأسه شاردًا:

- «وماذا لو علم سيدك أنك تسللت تحت جنح الظلام فى هذا الوقت المتأخر من الليل لتقابلى عبداً حقيراً مثلى . . يشده إليك حب كبير؟؟»

أطربتها كلمة الحب، ولمست أوتار قلبها لمسًا حنونًا شجيًا وقالت:

- «سيلهب ظهرى بالسياط . . وسأكون فى منتهى السعادة وأنا أستشعر الألم الشديد يحز فى جسدى من أجلك . . من أجلك أنت يا وحشى». ثم وضعت أناملها على عنقه وزنده العارى، تتحسسهما فى شغف، فدفعها فى غيظ، وهدر:

- «إننى أكره هذه الحياة . . أكره كل شىء . . الناس . . والدواب . . السادة والعبيد . . مكة والمدينة . . إننى لم أتلقَّ منهم غير الذل والاحتقار، ولن أعطيهم غير الحقد والغيظ المدمر . . ».

تمتمت وقد آلمها تصرفه وآذى شعورها :

- «أليس حرامًا أن تشعر بمثل هذا الشعور نحو الذين أحسنوا إليك».

أمسك بذراعها النحيلة فى عنف، وهزها دون رحمة وهو يقول :

- «ليس فى الحياة حلال وحرام . . الحياة هى القوة والمال . . العبيد الفقراء ليسوا أحياء . . الضعفاء ليسوا أحياء . . نحن موتى أيتها البلهاء . . الشاة والناقة والحمار كلها تجد العناية من صاحبها . . أما نحن . . واكرباه! ! لم نصل إلى مرتبة الإنسان، ولم نحظ بمرتبة الحيوان . . » .

ودارت رأس الفتاة، إن كلمات فتاها أصبحت غريبة وخطيرة فى الآونة الأخيرة، لقد تخلى عن أحاديث الحب والبطولة، وأصبح يتحدث عن أشياء لا تروق لها، وإن هذه الأحاديث لتوشك أن تبدد أحلامها وذكرياتها الحلوة جواره، ماذا جرى له؟؟ وماذا جرى للدنيا؟؟ آه . . منذ أن جاء محمد برسالته والناس فى هرج ومرج، والأفكار تتصارع والسيوف تسل، هل هذا هو السبب؟؟ أوه . . إنها توشك هى الأخرى أن تنصرف إلى ما شغل به الناس أنفسهم من أمور غريبة فى هذه الأيام . . إنها لم تحضر لمثل هذه الأمور . . لقد جاءت تحلم

بالكلمات الحلوة، واللمسات الحنون والأحلام الوردية..
فانتزعت نفسها انتزاعًا من شرودها وقالت لوحشى:

- «حدثنى عن الحب».

عاد يقهقه فى سخرية:

- «وماذا بعد الحب؟».

- «لا شىء يا وحشى.. إنه الغاية..».

مد ساقيه، وحك شعره المجعد، ولحيته القصيرة، ثم قال:

- «لو علم سيدنا بما يجرى بيننا، لسحق أحلامنا، وفرق بيننا إلى الأبد ألا تفكرين فى ذلك؟؟..».

- «إنه لم يحدث بعد فَلِمَ أفكر فيه؟؟».

- «النمل يخزن طعامه للشتاء..».

- «ونحن لا نرهب الشتاء، فالطعام فى بيت سيدى وفير».

صاح فى حدة:

- «سيدك ألعن من الشتاء..».

وشردت لحظات، وأخذت تتمتم: «لقد فكرت ذات يوم أن يبعث الله إلينا برسول من عنده يشترينا، ثم يعتقنا ويهبنا الحرية.. ألم يفعل محمد وأصحابه ذلك؟؟ اشتروا بلالا

وأعتقوه . . حقًا إن بلالا تعذب كثيراً . . لكنه الآن ينعم بالحرية ولا يرهب المستقبل . » .

انتفض وحشى واقفًا وصاح :

- «لا تطرقى هذا الحديث . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «إننى أكرهه . . ها أنت ذى تعودين وتتحدثين عن المستقبل وعن الحرية . . والأدهى من ذلك تتحدثين عن محمد . . » .

هتفت فى ذعر :

- «معذرة . . أنت محق، منذ أن قتل عم «سيدنا» فى غزوة بدر، ونحن لا نطرق الحديث عنه إلا خفية . . لكن هل صحيح أن بلالاً كان يقتل سادة قريش فى بدر؟؟ أليس هذا غريبًا؟؟» .

لم يجب وحشى عليها بشىء، لقد أخذ يتذكر ذلك الحديث الغريب الذى دار بينه وبين مولاه «جبير بن مطعم» . وهل يستطيع أن ينسى ذلك الحديث؟

لقد قال له سيده : «أى وحشى . . إننى أعرف براعتك فى استعمال الحربة، إن رميتك يا وحشى لا تخيب . . أهل مكة يعرفون بطولتك وبأسك منذ زمن بعيد . . ولقد أدركت فيك هذه المواهب، وكنت أراك جديراً بكل تقدير وحب . . وأراك

أيضًا جديرًا بأن تنعم بالحرية . . أن تكون سيد نفسك يا وحشى . . عند ذاك تستطيع أن تعود إلى الحبشة بلادك . . أو تبقى فى مكة حرًا، يربطك بى حلف مقدس . . حتى لكأنك واحد من أهلى . . لكن لكل شىء ثمن يا «وحشى» وعندما تدفع الثمن غاليًا، فسيصبح ما تحصل عليه أغلى وأقيم . . تلك طبيعة الحياة . . أنت تعلم أن رجال محمد قد قتلوا عمى «طعيمة بن عدى» فى معركة بدر . . قتله حمزة عم محمد . . والله يا وحشى لئن قتلت حمزة لأهبنك الحرية، وأغدقن عليك ما يؤمِّن مستقبلك . . وبعد أيام نخرج للقاء محمد لنرى ما أنت فاعل . . إنها فرصة العمر يا وحشى . . فماذا أنت قائل؟؟

تذكر وحشى كل ذلك، وهل يستطيع أن ينسى اللحظات الحاسمة فى تاريخ حياته الذليل المليء بالتعاسة؟؟ لسوف يذكر دائمًا ذلك اليوم الذى ساقوه فيه إلى النخاس فأخذ يقلبه، ويتفحصه يمينًا ويسارًا، ثم اشتراه بثمن بخس، ولسوف يذكر دائمًا تلك النسمة الرطبة التى بعثت فى حياته غير قليل من الانتعاش والثقة، ألا وهى فتاته التى تجلس إلى جواره، ولسوف يذكر أيضًا حديث سيده جبير بن مطعم وهو يلوح له بنعمة الحرية وبعد هذا الحديث فاضت نفس وحشى بعشرات المشاعر المتضاربة، لم يكن عبدًا ككل العبيد، كان يحلم دائمًا بالحرية . . ولقد خفق قلبه خفقات حلوة قبل ذلك . . أجل . .

يوم أتى محمد برسالته . . لقد فكر بادئ ذى بدء فى أن ينطلق إليه ، ويؤمن برسالته . . لكن سيده «جبير» لم يكن ليتركه حيًا كما فعل سيد «بلال» . . إنه يعرف شدة سيده وضيقه بمحمد ورسالته وخاف وحشى أن يفقد حياته وحريته معًا . . فآثر الانتظار . . وها هو سيده يطلب منه الثمن . . عند ذاك هتف «وحشى» فى فرح وجنون :

- «سيدى . . إن الأخذ بثأر عمك أمانة فى أعناقنا جميعًا . . ولو لم تعدنى بالحرية ، لما قصرت فى تنفيذ أوامرك . . لقد كان- وما زال- العار يلحقنا جميعًا منذ ذلك اليوم المشئوم . . وسأرشق حمزة بحربتى هذه رشقة لا يبرأ منها . . ». ولم يمر الحديث بالبساطة التى أبرزها الحوار الذى دار بينهما ، لقد كان وحشى يفكر ، إن الطريق إلى الحرية وعر شاق ، ووحشى على استعداد لأن يفعل أى شيء حتى يولد من جديد ، وينعم بالحرية . . من سنين طويلة ونفسه تطفح بالمرارة ، ونظراته تسكب الحقد الدفين ، وأحلامه السوداء يمتزج فيها الدم بالسياط والصيحات المرعبة . . ليذهب العالم كله إلى الجحيم . اللعنة على جبير وعمه وعلى كل من فى الأرض . . إنه يبحث عن حريته المفقودة ، لأنه لم يجد سببًا معقولاً لأن يفقدها وقد ولدته أمه حرًا . . ولم يعد فى فكر وحشى معنى محدد للحلال والحرام ، والحق والباطل ، والخير والشر ، إن الحرام والباطل

والشر كلها تركزت لديه فى معنى ذاتى واحد. . هو أنه عبد. . فلتصطرع المبادئ والأفكار، ولتحتدم المناقشات حارة وباردة، ولتشتعل الحروب، ويتساقط الصرعى. . وليكثر الحديث عن الله والشيطان، والجنة والنار. . والكفر والإيمان، إن كل هذه الأمور -حسبما يتصور وحشى- لا تهمه من قريب أو بعيد وهو لا يفكر فيها إلا عابرًا، ولا يحاول أن يغوص فى أعماقها أو يجوب أبعادها الأخرى، فكونه عبدًا حصره فى عالم ضيق أسود كئيب ذى أسوار شائكة عالية، لا سبيل إلى تخطيها. . فإذا جاء سجانه العنيد، وعرض عليه أن يفتح له الأبواب كى ينطلق إلى الحياة والنور. . أيرفض مهما كان الثمن المطلوب منه؟؟ وأفاق وحشى من أحلامه وذكرياته على صوت فتاته وهى تدفعه فى غيظ وتقول:

- «ماذا؟؟ هل غلبك النعاس؟؟».

- «لا. . ولكنى سأنال حريتى. .».

قالت فى دهشة:

- «ماذا؟؟ إنك تهذى بما لا يُفهم».

- «وسأرحل مع قريش بعد أيام لحرب محمد. .».

- «إننى لا أكاد أفهمك. .».

- «وسأعود من المعركة خلقًا آخر. .».

- «وحشى!!!».

- «سأصبح بشراً سويًا، آكل ما أشاء، وأفعل ما أشاء، وأنام وأصحو فى الوقت الذى أريد..».

- «أمحموم أنت يا وحشى؟؟».

- «وسيكون لنا أبناء أحرار.. لا يفزعهم صياح السادة، ولا تؤرقهم أسواط العار، ولا تطحن نفوسهم مرارة الذل والاحتقار..».

نظرت إليه فى دهشة وهى تقول:

- «كيف؟؟».

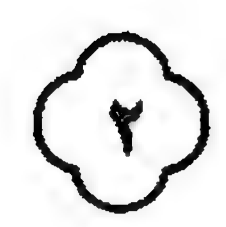
أدار إليها عينين مبللتين بالدموع ووجهًا متقبضًا من الانفعال، وقال وهو يلوح بيده:

- «بحربتى هذه..».

ثم تمتم:

- «الحرية تُؤخذ ولا تُعطى.. الحرية بالدم.. أى دم.. سواء أكان دم الشرفاء أو الأشرار..».

- «إنك تتخبط يا مسكين، وتقول كلمات مدمرة، وتبين عن ذات نفسك بطريقة مخيفة وإن كانت غامضة وامصيبتى!! إننى لا أفهم شيئًا مما تقول..».



العيون ترمقني باحترام والابتسامات تستقبلني أينما اتجهت، وكلمات المديح والإطراء تتسلل إلى أذني كاللحن الجميل، أصبح الجميع يقولون: «وحشي» أتى.. «وحشي» ذهب.. «وحشي» أكل.. «وحشي» نام.. اسمي يتردد في أروقة البيت دائماً، يهتف به سيدي «جبير» في فخر، وتردده سيدتي على شفتيها الرقيقتين في حنان، والأطفال يتحسسون ساعدي القوي، وينظرون إليّ في إعجاب بالغ، لقد أصبح العبد الذليل الحقير مناط التدليل والاحترام.. أيها الأوباش الملعونون إنني أحتقركم، وأبصق على قيمكم الرخيصة، وأسخر من ريائكم وأحقادكم الملوثة بالأوحال.. وفتاتي الساذجة ترمقني في وله وتسدد إليّ نظرات الوجد الزائد والهيام الغريب، وتهمهم: «أنت يا وحشي تنال من المكانة في هذا البيت ما لا يناله إلا صاحب البيت وسيده العظيم.. ماذا جرى؟؟ إنني لا أكاد أفهم شيئًا» وأنا أراقب تلك

التصرفات بتلذذ غريب، أستغرق فيها بكل كيانى، وأبدى إزاءها رضى بالاحتقار المستتر.. ها.. ها.. ها.. إننى فى خدمتك يا سيدى، إن فنى ومهارتى الحربية، وقوة جسدى وأعصابى، كلها طوع يمينك.. أريد أن أثبت للجميع أننى أستطيع أن أتفوق على السادة المالكين فى بعض الأمور.. هناك كثير من الأمور لا يؤديها على الوجه الأكمل سواى.. أنا العبد المحتقر.. إن سيدى ينيبنى عنه فى أمر مقدس.. أن أنال ثأره، وأحفظ للقبيلة شرفها وعزتها.. أثأر ممن؟؟ من حمزة بن عبد المطلب فارس العرب الهمام، وعم رسول الله، وسافك دم الكبار الأعزة من رجالات مكة يوم «بدر» المشهود.. إننى على أتم استعداد لأن أرتكب أية حماقة، أو آتى أى إثم لأثبت وجودى.. لأحقق ذاتى.. لأنفى عن نفسى وصمة العار والعبودية.. رحمك الله يا عنترة بن شداد.. لقد احتقرك بنو عبس.. وأذاقوك الهوان يا عنترة. حاولوا تحطيم كبريائك، وحاولوا سحق مشاعرك وحبك العظيم من «عبلة».. لأنك عبد.. أسود السحنة.. لأنك عبد يا عنترة.. ولأن عبلة بنت سيد السادات.. وذات حسب ونسب.. ونسوا يا عنترة أن عواطفك ليست سوداء كوجهك، وأن دمك لا يختلف عن دمهم، وأنك من حيث «القيمة» قد تكون أعظم وأنفع من ألف سيد وسيد...

رفضوا الاعتراف بحقك فى الحياة والحب لأنك عبد . . أسود البشرة . . وعندما دارت الدائرة عليهم يا عنترة، وأوشك الأعداء أن يدمروا مجد القبيلة، ويسبوا نساءها، ويذلوا أعناق رجالها . . هتف بك الشقى «كرّ يا عنترة» فقلت لهم: «العبد لا يحسن الكر» فتوسل إليك قائلاً: «كر وأنت حر . .» يا لها من كلمة . . وأنت حر . .

وفعلت فيك الكلمة السحرية ما لم تفعله آلاف الكلمات . . بعثت فيك الحرية طاقة مهولة هى أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة . . إننى أعرفك جيداً يا عنترة، يا بطل الأبطال، يا عاشق الحرية الأكبر، أعرفك لأنى احترقت مثلك بنار الذل والهوان، وقاسيت الأمرّين وأنا أجتر الآلام والعذاب النفسى المهول . . عشت أقتات الكراهية وأترنم بلحنها الصاخب المشحون بالحقد . .

وجاءت «هند بنت عتبة» زوجة أبى سفيان بن حرب، جاءت بنفسها . . لتتحدث مع من؟؟ معى أنا وحشى الأسود . . العبد الذليل . . لتسمع روابى مكة وبيتها المقدس . . هند بنت عتبة أتت إلىّ، وجلست باكية حزينة وهى تتمتم: «قتل المسلمون ولدى حنظلة، وأبى وأخى . . لم أضع الزيت على شعرى، أو الماء على جسدى من يومها . . أعلنت الحداد حتى آخذ بثأر الأشراف من بنى قومى . . لئن قتلت

حـمـزة يا وحـشى فلك منى مـا تشـاء من مـال وذهب وإبل وأغنام . . سأكافئك أعظم مكافأة» .

هند تتوسل وظلال الدموع فى عينيها ، يحجبها الكبرياء ويمنعها من أن تتدفق ، وهند بحسبها ونسبها ومقام قومها العالى لم تستطع أن تدفع عن شرفها المثلوم ، وتثأر لدمها المراق ، فأتت إلى العبد المهين ، تنشده العون ، وتضرع إليه بدموعها الصامتة المتحجرة ليحفظ لها شرفها ، ويدفع عنها عارها ، ويأخذ بثأرها . . لشد ما أتمنى أن يمتد الوقت ، وأن تستطرد هند فى حديثها الذى يشجينى . . اضرعى . . اضرعى . . يا بنت الأكرمين . . وابعثى بنظراتك المتوسلة إلىّ . . واسكبى الرجاء تحت قدمىّ الحافيتين . . يا نار اللذة المجوسية التى تلهب كيانى وروحى . . اشتعلى بقسوة وعنف وعناد . . ويا جبير بن مطعم . . حدثنى كثيراً عن الحرية ، وعن ثمنها الغالى . إن هذه اللحظات من أحلى وأروع لحظات عمرى . . لكأنى أملك الحياة والموت . . حياة حمزة وموته على الأقل . . أيها الماكرون التائهون من رجالات مكة . . ليس لكم دين إلا السجود لأحقادكم وترهاتكم . اللعنة على عتبة وشيبة وأبى جهل : لشد ما أنا معجب بحمزة هذا الذى صرع أبطالكم ، ومرغ كبرياءكم فى الرغام ! ! إن حمزة لعظيم . . لكنى سأقتل ذلك العظيم . . سأقتل حمزة لأكون أعظم منه فى

نظركم . . لكن أأصل إلى هذه الرتبة فعلا؟؟ أينسى الناس ماضيى فى العبودية والهوان أم سيقولون لقد قتل «العبد» وحشى حمزة عم رسول الله، فأعتقه سيده جبير، وكافأته هند زوجة أبى سفيان؟؟ واحسرتاه!! ألا يمكن أن تمحى تلك الحقبة السوداء من تاريخى؟؟ إن أهل هذه البلاد مغرمون بحفظ الأنساب، ورواية الأحداث، وليس فى استطاعة أحد أن يفرض عليهم النسيان ولو كان هذا «الأحد» أقوى ملوك الأرض قاطبة . . لكن لماذا أدمن التفكير فى هذه المسألة الشائكة؟؟ ليكن الماضى ما شاء القدر . . فأنا ابن اليوم . . ابن المجد الذى أصنعه بيدى وحربتى .

وعندما أوشك الجيش على الرحيل بقيادة أبى سفيان بن حرب، قدم «وحشى» إلى فتاته، واختلى بها بعيداً عن الأنظار وقال :

- «إننى راحل . . » .

- «لكم أخاف عليك أهوال الحرب يا وحشى . . » .

- «التعساء لا يموتون هكذا ببساطة، إن الأقدار تطيل فى أعمارهم لتسقيهم مزيداً من التعاسة يا فتاة . . » .

قالت فى قلق :

- «للك فى الحياة آراء لا يمكن أن تؤخذ مأخذ القاعدة

الثابتة . . » .

- «إننى أتكلم من واقع مأساتى الخاصة . . ولا أنصاع كثيراً لآراء الآخرين وتجاربهم . . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «لأن الناس يكذبون ، وأكثر الناس كذبًا أدعياء الحكمة . . . » .

التفتت إليه فى أسى وقالت :

- «إنك لا تحترم النصوص المقدسة» .

- «أجل ، لأنها ترهات ، سطرها فئة من السذج والبلغاء» .

- «أسُذّجٌ وبُلغاءُ فى الوقت نفسه؟؟» .

- «يا حمقاء . . . البلاغة كلمات جوفاء . . ومن ثم فهى أدخل فى عالم السذاجة» .

- «لكن البلاغة والحكمة قرينان كما أعرف . . . » .

دار بنظراته الحزينة ذات اليمين وذات اليسار ، وقال شارداً :

- «إن دمعة ملتاع أبلغ من ألف بيت من الشعر ، ولحظات تعاسة لعبد ذليل مقهور لا يستطيع التعبير عنها أعلى الفلاسفة شأنًا . . ما أوسع البون بين الحقيقة والتعبير . . . » .

- «أكاد لا أفهمك . . » .

- «البلاغة لن تتجسد أبدًا في كلمات . . . الكلمات عاجزة سجينة . . بداخلى يا فتاة عالم كبير يضج بملايين الرغبات والعواصف وعندما أتكلم أجدنى عاجزاً عن التبيان . . عالمنا ملىء بالعجزة والمغرورين . . » .

وسادت فترة صمت كئيبة ، وتندت عيناها بالدموع وتمتمت :

- «هل ستعود؟؟» .

- «لا بد أن أعود . . . » .

- «احذر الحرب . . » .

قهقه ساخراً :

- «إننى لن أحارب . . » .

- «كيف؟؟» .

- «أنا لا أشغل نفسى بما بين المسلمين والكفار من حرب ضارية . . ولن أرفع سيفًا ، أو أقذف بنفسى فى معمعة ، إن قضية الطرفين غير مفهومة لدىَّ تمامًا ، لأنى لا أفكر فيها كثيراً ، إن ما أفكر فيه هو مأساتى أنا . . عبوديتى الذليلة . . إننى ذاهب لآتى بحريتى . . . » .

قالت فى دهشة :

- «لتأتى بحريتك؟؟» .

- «أجل . . إن ثمنها فى يدى . . » .

- «ماذا تعنى؟» .

لوح بالحربة التى يقبض عليها فى استماتة ، وقال وقد تقبضت عضلات وجهه ، ولمعت عيناه ببريق شرير :

- «لسوف آوى إلى مكان أمين ، وأترصد خطاه . . فإذا ما بدا لى أطلقت حربتى نحوه . . دون أن يرانى . . ثم ينتهى كل شىء . . أنزع حربتى وأعود إلى مكان بعيد عن الدماء وصراع السيوف ، وأظل أنتظر حتى تنجلى المعركة . . فإن كان النصر لمحمد هرولت بأقصى ما أستطيع من سرعة عائداً إلى مكة لأبدأ حياة جديدة . . وإن حلت الهزيمة بالمسلمين . . عدت فى موكب رائع أحمل الحرية والمال والمجد . . المهم أن أقتله . . هذا ما أفكر فيه . . » .

قالت الفتاة متلهفة :

- «من هذا؟؟» .

- «حمزة بن عبد المطلب . . عم الرسول . . » .

- «أنت تقتله؟؟ تقتل حمزة؟؟» .

- «أجل . . لأنه الثمن . . الثمن الذى يريده مولاى جبير كى يهبنى الحرية، وهند بنت عتبة وزوجها أبو سفيان على ذلك شاهدان . . . » .

وانتزع نفسه انتزاعًا، ومضى خارجًا . .

وظلت الفتاة الحائرة تنظر إليه وهو يمضى فى عصبية، يوسع الخطو، ويحرك ذراعيه مهرولاً، ويرفع هامته السوداء إلى السماء متحديًا، وعلى الرغم من وضوح ما سيفعله فى ذهنه إلا أنه كان يمضى وكأنه يضرب فى تيه لا نهاية له .

وجففت الفتاة دمعة انحدرت على خدها، وشهقت شهقات مكتومة، ثم عضت على أسنانها فى حيرة وحزن وأخذت تتمتم :

- «مسكين يا وحشى ! ! لشد ما تغيرت فى هذه الأيام، إن كلماته لم تعد مفهومة لدىَّ، إنه مضطرب . . ثائر . . لم يعد ينعم بنوم أو يقظة، ويبدو أنه لا يستسيغ طعامًا أو شرابًا . . لقد أصبح يجلس إلى جوارى دون أن يمتلئ قلبه بوجودى، لكأنه فى عالم آخر غير عالمى . . إن حاجزًا ضخمًا يحول بينى وبينه . . إن وحشى قد حبس نفسه فى سجن غامض من صنع يديه . . إنه أسير أهواء قاتمة السواد . . لشد ما يحزننى أمره ! ! » .

وحينما أفاقت إلى نفسها كان شبحه قد اختفى من أمام ناظريها، وبقيت صورة وجهه المتقبض، وعينيه اللتين تقدحان بالشرور عالقة بذهنها، وظلت أصداء كلماته الغريبة تطن فى رأسها المتعب، ومع ذلك وجدت نفسها تفكر فى محمد.. وفى أشياء كثيرة سمعتها عنه.. وسرعان ما نسيت وحشى.. وأخذت تفكر كيف تذهب إلى حيث يلتقى النسوة المؤمنات بمحمد، واللائى يتحدثن عن معان جديدة مثيرة..

●●●



الطريق بين «مكة» وجبل «أحد» المجاور «ليثرب» طريق طويل مملوء بالصعاب والمزالق والمتاهات، والليل يخلف النهار، والنهار يعقب الليل، وجيش الثأر العرمرم وعلى رأسه أبو سفيان يحث الخطى، ترف على موكبه المغبر أمنيات شيطانية حمراء، وسادات قريش يتقدمون الصفوف، وعندما يحطون الرحال للراحة تدور الأحاديث، وتنحر الجزر، وتمتلئ الكئوس وتفرغ، لكن خوفًا مبهمًا يطحن النفوس، ويبعث القلق الغامض.. ويقف «وحشى» بين هاتيك الجموع يرقب ويسمع، يسدد نظراته الحاقدة هنا وهناك، وصورة حمزة تملأ عليه خياله.. ويتحسس الحربة.. ترى متى تبدأ المعركة؟؟ إن وحشى فى عجلة.. يريد أن يرى أسعد يوم فى حياته.. يوم أن يصبح حرًا..

ويستمع وحشى إلى أحاديث السمار:

هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان تقول: «يا صناديد

العرب. . إن هى إلا جولة قصيرة، وينتهى أمر محمد. . فتشتفى النفوس، وتهجع نيران الثأر. . ».

لكن أبا سفيان يهز رأسه قائلا: «نار الثأر لا تنطفىء أبدًا يا هند. . أتظنين أن قتل محمد أو حمزة سيمحو تمامًا كل أثر للألم والأحزان على مصرع الأحباب؟؟ مستحيل أن يحدث ذلك يا هند. . إننا ندافع عن كرامتنا وهيبتنا، ونعاقب المعتدين، هذا كل ما فى الأمر، أما حزنك على ولدك «حنظلة» وأساك على أبيك وأخيك، ولوعة القلب على الأحبة. . كل هذه ستبقى أبد الآبدين يا هند. . قالت هند فى شىء من الضيق:

«إنك تهون فى الأمر. . والله لو سفك دم حمزة، وقتل محمد لما تبقى فى قلبى مثقال ذرة من حزن. . الموت مكتوب، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره. . إن الثأر سيجعل من موت الأحبة موتًا عاديًا. . أتفهمنى يا رجل؟؟».

وقال عكرمة بن أبى جهل: «إن ما نفكر فيه الآن هو الثأر، الثأر وحده. . كلما تصورت ما جرى لأبى فى مأساة بدر تعصف بى الأحقاد المدمرة. . أكاد أذوب خجلاً كلما تصورت أن حقيرًا من الحقراء قد داس بقدمه القذرة على جسد شريف من أعظم أشراف مكة. . يا للعار!!».

وأخذ كل واحد منهم يتحدث عن ثأره، ووحشى يستمع إليهم فى غير قليل من الشماتة والاحتقار. ويحادث نفسه: «أيها الأوباش التعساء، إنكم جميعًا صرعى الغرور والحماقة.. هياكل سادة وقلوب عبيد عميان.. لو وزن الناس بعقولهم ومشاعرهم لكنت سيدكم جميعًا.. وما أبو جهل وعتبة وشيبة وغيرهم إلا أكوام متعفنة من الجمود والعسف والحماقة.. اللعنة عليهم جميعًا.. وعليكم أنتم..»، وشرد وحشى بذهنه إلى بعيد.. إلى فتاته المسكينة فى بيت من بيوت السادة فى مكة: «آه يا حبيبتى.. لسوف أعود إليك وقد نفضت عن كاهلى أحزان العبودية وأدرانها.. إن العبد الذى حرر نفسه بكفاءته ومقدرته دون عون من أحد، لهو السيد حقًا. وحريته تكون أثمن حرية فى الوجود.. عندئذ سأحتقر الناس جميعًا.. سأحتقر السادة الذين أهدروا كبريائى وأهانوا إنسانيتى وشوهوا جسدى بالسياط.. وسأحتقر العبيد البلهاء الذين يصبرون على الذل والهوان، ولا يسلكون سبيل العنف والقهر لينتزعوا حريتهم من أيدى الظالمين.. سأعود إليك يا فتاتى سيدًا يشار إليه بالبنان».

وسمع وحشى من خلفه صوتًا يقول:

- «وحشى.. الحرية.. والمال.. وعز الدهر.. والشهرة التى ستطبق الآفاق.. لا تنسَ ذلك.. إن هندًا لا

تحنث بعهدها ولا تغدر بوعدها . . تذكر ذلك جيداً يا وحشى» .

رماها وحشى بنظرات زائغة تائهة وتمتم :

- «إن الظمأ يكاد يقتلنى يا هند . . . » .

- «الماء كثير . . » .

- «الماء لا يروى ظمئى . . إنما يروى ظمئى شيئان ، الدم والخمر . . واليوم خمر يا هند ، وغداً دم . . » .

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة بشعة وقالت :

- «لشد ما يطربنى حديثك . . » .

ثم تركته ، وعادت بعد دقائق ، ومن خلفها جارية تحمل إناء ممتلئًا بأجود أنواع الخمر ، وقالت وهى تأخذه من الجارية وتدفعه إليه :

- «لو كان كل رجال جيشنا على شاكلتك يا وحشى لتحققت المنى ، واشتفى القلب مما يعتصره من آلام . . إننى أعرف جيداً أقدار الرجال . . » .

استدار إليها وحشى فى لهفة وهو يقول :

- «وما هو قدرى عندك يا هند؟؟» .

- «لو كنت أصنع الأنساب والأحساب ، لجعلتك سيداً من سادات قريش . . » .

- «أو تظنين أننى جدير بهذا الفخر كله؟؟».

- «وأكثر منه يا وحشى . .».

- «منذ متى تظنين هذا الظن؟؟».

- «من زمن بعيد . . كنت أسمع عن عنادك، وتصديك لسيدك، وتقبلك لأقسى ألوان العقاب، وعن بطولتك . . فأقول: هذا رجل خلق ليكون سيدًا من السادة لا عبدًا من العبيد لكنك لم تكن قد وجدت الفرصة المناسبة لإظهار كفاءتك . . .».

وصمتت برهة، ثم استطردت تقول:

- «وقد حانت الفرصة يا وحشى . . إنك إن قتلت حمزة فستنال منزلة لم يرقَ إليها أحد من قبلك . . ستهدم ركنًا ضخمًا من أركان الإسلام . . وحمزة يا وحشى جيش بذاته . . وحمزة يا وحشى قاتل الأحبة، ومبدد شمل الأبطال، وحمزة يا وحشى عم محمد . . والأثير إلى قلبه وروحه . .».

وطرب وحشى لحديث هند، إن إيقاعاته الصارخة، وموسيقاه الصاخبة تطن فى أذنيه، وتنسكب فى قلبه، وتشعل روحه، ووحشى يقف قبالتها -وإناء الخمر فى يده- وهو يميل طربًا . . اللحظات الحلوة فى حياته، هى تلك اللحظات التى يستمع فيها إلى ثناء على بطولته، وإطراء لشخصيته، منذ أمد

بعيد وهو ضائع . . تائه . . محتقر . . واليوم أصبح ذا قيمة كبرى . . إن كلمات هند فى أذنيه أحلى من ترانيم الكهان، ماذا يريد وحشى بعد ذلك؟؟ ألا تأتى فتاته لتسمع ماذا تقول هند؟؟ .

ومضت هند لشأنها، وانتحى وحشى جانبًا، وجلس يعب الخمر عبًا . . يا لأساه! إنه يشرب وحده بل يختفى عن عينى سيده . . لماذا لا يأتى عكرمة وأبو سفيان وجبير بن مطعم ليشاركوه الشراب؟؟ آه . . لم يزل عبدًا . . لا نديم ولا سمير، طوال حياته يشرب الخمر وحده . . ويتخيل رجالاً يتسامرون معه، ويحدثهم ويحدثونه، وقد يدب بينه وبينهم الخلاف، فتثور ثائرته، وتلعب الخمر برأسه ثم يأخذ فى الهياج ويضرب بقبضتيه هنا وهناك، ويصيح ويتهدد ويتوعد، وقد يأتى سيده ليراه يخوض معركة وهمية: «وحشى . . ماذا تفعل أيها المجنون فيقول له: «إننى أؤدب هؤلاء المارقين . . إنهم يسخرون منى . . »، فيرد سيده: «لكنى لا أرى أحدًا يا وحشى . . »، فيقول وحشى إننى أراهم . . إنهم يهربون، يخافون أن أبطش بهم» ولا يفيق وحشى إلا على السوط الحارق يلهب ظهره ووجهه . . يا لها من أيام . . إنه يعود مرة ثانية إلى الشراب . . لم يزل وحده . . لا . . إن حربته معه . . هذه الحربة أهم لديه من كل أشراف مكة . . إنها لا تتذمر ولا

تسخر ولا تهرب منه، أو تبدى له لونًا من ألوان الاحتقار. . هذه الحربة لم تغرر به. . كلما قذف بها أصابت المرمى، وحققت الغاية. . فى كثير من الأحيان يشعر وحشى بألفة وثيقة وغريبة لدى الأشياء. . إنها جماد. . لكنه يشعر نحوها بعطف وثقة كبرى. . هذه الحربة أعز لديه من ألف «جبير بن مطعم». . من ألف «هند». . كلهم يغدرون ويخونون ويسخرون أما حربته فليست كذلك. . هذه القطعة المعدنية المدببة سترد له حريته. . إذن فهى حياته ووجوده. . ويظل وحشى يفكر فى حربته وهو يقذف فى جوفه بالكأس تلو الكأس. . إن وجهه يحتقن، ورأسه يتمايل، وعيناه تقدحان بالشرور، ويهب من جلسته مترنحًا. . ويصرخ فى جنون: «يا صناديد مكة. . لتبرزوا إلىَّ فردًا فردًا. . إننى قادر على سحقكم جميعًا». . ويضج الجميع بالضحك والصخب ويقول جبير:

- «هذا السكران لا يعرف رأسه من رجليه».

- «دعه وشأنه. . نريد أن نتسلى. . ».

- «بل انزعوا الحربة من يده. . إنه لا يعى ما يقول أو يفعل. . أنا أعرفه. . ».

وهب جبير واقفًا، ثم مضى نحو وحشى ثابت الخطى وسدد إليه نظرات حادة، وصرخ فى وجهه:

- «أعطنى حربتك» . .

قال وحشى فى رعب وهو يتشبث بها :

- «مستحيل . . إنها حياتى . . » .

- «أيها المجنون . . أعطنيها وإلا فصلت رأسك عن جسدك . وارتجف وحشى ، ثم قال والدموع تتدفق من عينيه :

- «لا أستطيع . . لا أستطيع . . إنها حربتى . . » .

واقترب سيده منه أكثر ، وهدر بصوت آمر :

- «أعطنى الحربة . . » .

- «لكنى سأقتل بها حمزة . . سأختبئ خلف شجرة وأترصده . . سأتركه يصول ويجول . . سأبعثها إلى أحشائه كالبرق الخاطف . . عندئذٍ ينتهى كل شىء . .

وأشار جبير بطرف عينه ، فأطبق مجموعة من الشبان على «وحشى» من الخلف وغللوا يده ، وانتزعوا الحربة منه ، وهم يقهقهون ويصخبون ، ثم دفعوه فارتمى على الأرض وهو ينشج نشيجًا عاليًا :

- «أنتم تسلبون حياتى . . لا أستطيع فراقها . . هى دائمًا أخلص رفيق ، وأحنى علىّ من أبى وأمى . . بالله ردوها إلىّ . لقد قلت فيها شعرًا لم أترنم به لأحد . . » .

وشقت هند الصفوف، وسط الصخب، والقهقهات العالية، وصاحت:

- «ما هذا الذى تفعلون؟؟ كلكم تعربدون وتشغبون، والسيوف معلقة بأحزمتكم.. دعوا وحشى وشأنه..».

ثم اقتربت من جبير، وتناولت منه حربة وحشى، وعادت إلى العبد الباكى الملقى على الرمال وقالت فى رقة مصطنعة:

- «هذه حربتك يا وحشى.. لا تحزن..».

تناولها فى شوق، وتحسسها فى عشق، ثم طبع عليها قبلة حنونًا وتمتم:

- «أى حبيبتى الغالية.. إنهم يحاولون أن يفرقوا بينى وبينك، والله إن فراقك لأشق على نفسى من فراق أبى وأمى..».

فضج الجميع مرة أخرى بالضحك، وقال أحد الساخرين:

- «دعوا وحشى وشأنه.. لا تفسدوا عليه خلوته.. إنه يعانى أزمة عشق حادة، ولن يفيق منها إلا بعد ساعات..».

ثم انحنى على وحشى قائلاً:

- «أما زالت حربتك عذراء؟».

فرفع إليه وحشى عينين دامعتين وقال جادًا:

- «إنها شريفة، عذراء.. لم تتلوث بإثم..».

فعادوا يضحكون، وقال آخر:

- «إن لى بها علاقة قديمة..».

هتف وحشى فى غضب:

- «كذبت.. إنها لم تعرف فى الوجود سواى..».

ولم يكفوا عن عبثهم ولهوهم إلا بعد وقت طويل..

وأقبل المساء، ووحشى ملقى على الرمال، محتضناً حربته يلفها بذراعيه القويتين، وكأنه يخاف أن تلمسها نسمة الليل، ورأسه مثقل بآلام شديدة، لكنه يفيق رويداً رويداً.. ورائحة الإبل والشاة الذبيحة تتسلل إلى خياشيمه، إنه يشعر بجوع شديد، ففرك عينيه، وأخذ ينظر يمنة ويسرة، محاولا اكتشاف موقعه.. برغم العتمة الضاربة التى تثقل على صدره كصخرة ضخمة عاتية.

●●●



وقف وحشى يتطلع إلى جبل أحد فى ذلك اليوم المشهود.
الجبل الشامخ لا يطأطئ رأسه لأحد، يرمق ما يجرى فى صمت وجمود، والناس يتصارعون فى استماتة بالغة، والغبار ثائر، والسيوف تلمع تحت وهج الشمس الحارقة، وصيحات الرجال تتعالى، والمسلمون يتقدمون فى نظام وثقة، ووحشى يبحث عن فريسته.. أين حمزة؟؟ ماذا أرى؟؟ آه.. هذا عبد من عبيد مكة.. إنه يحارب فى صفوف محمد.. لقد نال حريته.. أتراه سعيداً.. إننى أذكره جيداً.. لقد تحمل عذاباً لا طاقة لبشر كى يتحمله.. رفض أن يكفر بمحمد وبدينه.. كان فى إمكانه أن ينطق بكلمة الكفر لينجو، لكنه أبى.. ما أعجب إيمانه!! وأخيراً اشتراه أحد أتباع محمد فنجاه من العذاب وأعتقه.. أصبح سيداً ينافح عن عقيدته وحريته.. ولكنه سيظل مديناً لمحمد بهدايته. ومديناً لمن أعتقه بحريته.. آه.. إننى أرفض ذلك.. لا أريد أن أكون مديناً لأحد.. ليس

هناك حق وباطل . . هناك القـوة التى تسيـر هذا الوجـود . . وحريتى سأنتزعها بيدى . . ولن يكون لأحد علىّ فضل . . مـاذا أرى؟ إن حامل اللواء يسقط بسيوف المسلمين . . وأبو سفيان مضطرب وقائد الفرسان خالد ابن الوليد لا يستطيع أن يقوم بحركة التفاف خلف محمد ورجاله . . إن رماة النبل من المسلمين يحبطون أية محاولة للالتفاف . . وحامل اللواء الثانى يسقط هو الآخر . . والمسلمون يتقدمون. وسمع وحشى من خلفه صوت امرأة تترنم بأبيات من الشعر :

إن تقـــبلوا نعـــانق

ونفـــرش النمـــارق

أو تـدبـروا نـفـــارق

فـــراق غـيــر وامـق

- «هند يا بنت عتبة . . إن حملة اللواء من مكة يسقطون.

أدارت إليه وجهًا لونه الحنق والغيظ . . وهتفت :

- «ألم تجد حمزة بعد؟؟» .

- «أنا لن أتعجل أمرى . . أبحث عن الفرصة المناسبة . . » .

وتحتدم المعركة، ويوشك أبو سفيان أن يفقد حياته لولا رجل من رجاله نهض لإنقاذه، وهند ترى السيف فوق رأسها

فترتاع وتولول، فيدرك الفارس المسلم أنها امرأة ملثمة، فيبتعد عنهـا وهو يتـمتم: «مـا كنت لألوث سـيف رسـول الله بدم امرأة».

وينظر وحشى إلى الجحيم المشتعل.. حملة لواء مكة ما زالوا يتساقطون، ماذا لو انتصر المسلمون؟؟ أيفرح وحشى إذا اصطاد حمزة، وقضى عليه؟؟ ويحه إن سقط أسيرًا -لن يكون أسيرًا فحسب، بل سيكون الأسير الغادر الذى اغتال حمزة عم الرسول.. يا للكارثة!! إن دبيب الوهن يتسرب إلى قلبه.. ووحشى يرتجف، ويسود وجهه الأسود شحوب ظاهر.. لكن المسلمين قلة وجيش مكة ضخم العدد والعدة، فلماذا تنتصر القلة على الكثرة المدعمة بكل ألوان القوة والحقد والثراء؟؟ لابد أن تكون الغلبة لقريش، تلك سنة الحياة.. أما المبادئ فهى وهم.. لا وزن لها إلا ما يدعمها من قوة.. ليكن محمد على حق، وليكن أبو سفيان غائصًا فى أوحال الباطل حتى أذنيه.. الحرب تحسمها القوة وحدها.. وقهقه وحشى فى سخرية وهو يقول:

- «إن لكل إنسان فى هذه الحياة مبدأ أيًا كان هذا المبدأ.. له أفكار تحركه، ولديه أشياء يدافع عنها.. أجل هنا مبادئ، وهناك مبادئ وإن اختلفت طبيعة الاثنين.. لكن لماذا يستميت

أنصار محمد هذه الاستماتة الغريبة، ويتسابقون إلى الموت هذا التسابق الغريب؟؟ إنهم يطربون لما يسمونه الشهادة وريح الجنة.. مسميات لا أفهمها.. أنا أعرف أن الموت هو الموت.. وما وراء ذلك لا أعرف عنه شيئًا ولا أثق به، إن ما أثق به هو وجودي.. حاضري.. عذابي الذي أكتوي بنيرانه.. ملعونة تلك الحياة.. إنني عاجز عن فهم بعض أسرارها ودوافعها الغريبة.. لم أعد أرى سوى شيء واحد.. ذاتي المضطهدة الضائعة التي تذوب أسى وحنينًا وهي تبحث عن حريتها..

وهبّ وحشي واقفًا، وقد تصلبت يده على حربته، واكفهرت ملامحه، واكتسى وجهه بسحنة شيطان، وجمدت نظراته الشرهة على شيء بعيد:

- «إنه هو.. حمزة بلحمه ودمه.. ها هو كالجمل الأورق.. يفرق الصفوف ويصرع الأبطال، وينطلق كالصاعقة المدمرة.. حمزة بن عبد المطلب عم الرسول، وملتقى ثارات المحزونين من بيوتات مكة العريقة.. السيد المهاب.. والفارس الذي لا يشق له غبار..».

وداخل وحشي رعب من نوع جديد، ماذا جرى له؟؟ تلك هي اللحظة التي طالما حلم بها، وحمزة هو الشخص الوحيد

الذى يستطيع وحشى عن طريقه أن يؤكد ذاته، وينال حريته، وبين وحشى وغايته مسافة قصيرة، لن يجتازها بقدميه، ولن يعرض نفسه فيها لأخطار، ستنوب عنه حربته، هذه الحربة ستقطع تلك المسافة فى ثوان معدودة. . لن يراه أحد وهو مختبئ خلف الشجرة أو مستتر وراء تلك الصخرة، فإن نفذت حربته إلى غايتها فقد نال ما تمنى. . وإن طاشت فلن يراه أحد. . ليس فى إمكان وحشى أن يلقى الفارس المسلم وجهًا لوجه فى معركة صريحة. . إنه أضعف من ذلك بكثير. . لقد ابتعد حمزة، ووحشى مازال نهبًا للتردد والرعب الغامض الذى اجتاحه. . وصرخ:

- «يا نفسى الذليلة، لم هذا الخور والوهن؟؟».

وأخذ يبحث بنظراته المرتجفة عن حمزة. . إنه هناك يصول ويجول. . وجرى وحشى بسرعة نحو شجرة قريبة من حمزة، واتخذ له مكمنًا أمينًا خلفها. . وحمزة يجالد فى استماته. . مركزًا اهتمامه فى الدائرة الصغيرة التى تحيط به، ويضرب بسيفه يمينًا ويسارًا. . ماذا؟؟ إنه يشعر أن آلة حادة قد اخترقت أحشاءه فى قسوة. . لكنه ظل يصارع. . وشعر بسائل لزج ساخن يبلل ملابسه وجسده. . وأن قواه تخور. . حاول أن يتماسك، لكنه شعر برأسه يدور، وجسده يتراخى. . والمرئيات تختلط أمام عينيه، والضجيج يخفت فى مسمعه

رويدًا رويدًا . . ويشعر أخيرًا برأسه يتوسد الحصى، والروح تتسرب من جسده، فيحاول أن ينطق بكلمات كبرى، فتخرج واهنة لا تكاد تسمع «الحمد لله الذى كتب لى الشهادة، وأماتنى على الإسلام»، وارتسمت على ثغره ابتسامة خالدة، لم يستطع الموت أن يطفئ نورها القدسى . . وهكذا لفظ حمزة أنفاسه الأخيرة . . بينما وقف «وحشى» خلف الشجرة مشدوهًا لفترة لا يدرى أطالت أم قصرت، وعيناه على البطل الشهيد والحربة المغروسة فى أحشائه، والدماء التى تسيل منه، وأفاق وحشى إلى نفسه، وفرك يديه فى عصبية، وأخذت عضلات جسده تنتفض بشدة، وتمشت البرودة الشديدة فى أطرافه، برغم حرارة الجو، وتوهج الشمس، وامتلأت عيناه بسائل لا يدرى كنهه، أهى دموع الفرح؟ ثم عادت الحقيقة الضخمة تملأ رأسه وعالمه كله «لقد قتلت حمزة بن عبد المطلب» وصاح بأعلى صوته فى هذيان محموم «قتلته . . قتلته . . أين مولاى جبير بن مطعم؟؟ أين أنت يا هند بنت عتبة؟؟ أين عكرمة بن أبى جهل . . أين الثكالى والذين يحرقهم الشوق إلى الثأر؟؟ العبد الحبشى الحقير «وحشى» قد أخذ بثأركم . . » .

وتلفت حواليه فلم يجد أحدًا ممن ذكر أسماءهم، حتى القريبون منه كانوا فى شغل شاغل عنه بالحرب وبأنفسهم، لقد

ضاعت صيحاته فى خضم الضجيج الهائل فى المعركة الضارية، فارتمى خلف صخرة منهكًا محطمًا . . كان يود أن يركز الجميع أبصارهم عليه وحده . . على حربته وهى تنفذ فى أحشاء حمزة، لكنه أنهى أعظم مهمة أوكلت إليه فى حياته دون أن يراه أحد . . أو يصفق له أحد . . ودون أن تُصب فى أذنيه عبارات المديح والإطراء التى تسكره، وتدغدغ حواسه . .

وتذكر وحشى أن حربته لم تزل فى أحشاء الشهيد، إنه لا يستطيع فراقها . . يكاد يذهب عقله بددًا لو عاد بدونها، فهب واقفًا، وانطلق متسللا، ثم انتزعها . . وعاد . . وجلس خلف الصخرة يمسح عنها ما علق بها من دماء .

- «يا حربتى الغالية . . لقد نهلت اليوم حتى أطفأت ظمأ السنين . . لن تظمئى بعد اليوم أبدًا . . وكيف تظمأ من شربت من دم حمزة؟؟؟» .

ورمى الوجود المضطرم من حوله بنظرات فاحصة، ثم تمتم: «الآن . . أصبحت حرًا . . »، ثم أخذ يصيح ويقهقه: «حرًا . . حرًا . . ها ها ها . . » .

وعاد ينظر إلى الوجود مرة أخرى، ثم صعد أنفاسه فى شىء من الارتياح . .

- «لكن السماء هى السماء. . و«أحد» ينتصب قبالتى شامخًا دون أن يعنيه من أمرى شيئًا. . الوهاد والآكام لم تتغير. . كل شىء على حاله، إننى أصبحت حراً، لكنى لم ألمس بيدى شيئًا بعد. . قلبى يدق فى عنف، وأنا غارق فى طوفان من المشاعر الهادرة. . ».

«أيها الأجير. . ».

سمع هذه العبارة فكأنما لدغته حية سامة فتاكة. . ترى من نطق بهذه العبارة؟؟ وتلفت حواليه فلم يرَ أحداً، انفض الناس من حوله، وتحركت الجموع المتحاربة من مكان لمكان وجثة الشهيد حمزة ترقد فى سكون والابتسامة الخالدة ترتسم على ثغره، لكن عبارة «أيها الأجير» تطن فى رأس وحشى، وتدق جمجمته من الداخل دقًا رهيبًا، وكأنها قدوم ثقيل، مازالت العبارة تطن «أيها الأجير» من قالها؟؟ أهى مجرد خاطر خبيث تسلل إلى فكره، فيخيل إليه أن هناك من يهتف بها فى أذنيه؟ أوه. . ربما يكون حمزة قد صرخ بها. . لكن حمزة ميت. . الموتى لا يتكلمون. . الأحياء وحدهم هم الذين يتفوهون بالحماقات والسخافات. .

وعاد ينظر إلى الوجود من حوله، وقال بصوت جريح:

- «لم يتغير شىء ملموس. . ».

فسمع من خلفه صوتًا :

- «بل حدث تغير كبير يا «وحشى» . لقد حلت بنا الهزيمة . . وجموع مكة تفر هاربة ، انجُ بنفسك . . » .

وانتفض وحشى واقفًا ، وأعاد النظر . . الناس يهربون أمام موجة الزحف الإسلامى المنتصر ، وجيش المسلمين يستولى على الغنائم ، ويطارد الهاربين ، يا للكارثة ! ! أيقع «وحشى» أسيرًا فى يد المسلمين ؟ ؟ ألا ينعم بحريته سوى لحظات قليلة ، ثم يسقط ثانية فى رق الأسر ؟ ؟ وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، إن محمدًا لن تخفى عليه خافية ، قد يدلة أحد علىَّ ويشهد بأنى قتلت حمزة غيلة وغدرًا ، ومن ثم أفقد حريتى وأفقد معها حياتى هى الأخرى ، ولا يبقى من وحشى سوى خبر تافه حقير يتسلى به الساخرون والماكرون . .

- «لماذا تقف هكذا كالأبله يا وحشى ؟ ؟ فلتطلق ساقيك للريح . . » لم يكن هناك وقت للتفكير ، التفكير عندئذ مضيعة للوقت والحياة ، وجرى وحشى ، كان يجرى ويلهث كحيوان خائف يطارده صائد عنيد ، وانكفأ وحشى ، ثم نهض مسرعًا . . العرق الغزير يغرق وجهه ويختلط بالغبار . . دائمًا يشعر بالمطاردة ، طوال حياته يجرى ويلهث ، لم يغتنم الراحة فى حياته ، ولم يذق طعم السعادة حتى فى اللحظة التى ظن أنه نال حريته . .

ثم وقف -وقد بلغ مكانًا آمنًا- ليلتقط أنفاسه . .

وابتسم وحشى فى مرارة . . «فى لحظات الرعب، يتعطل الفكر، ويتحول الإنسان إلى حيوان تحركه غرائزه . . لم أكن أفكر فى شىء سوى النجاة . . ساقاى هما اللتان تفكران . . يا لتعاستى ! ! كيف تغلب القلة هذه الكثرة الهائلة؟؟ سؤال لا أجد له تفسيراً . . لكنى لن أسلم نفسى لمحمد ورجاله . . لسوف أهيم فى البرية، وأساكن الوحوش والذئاب، وأؤاكل الثعالب . . ولن آمن لإنسان على وجه الأرض، لم أعد أثق فى أحد . . لكن لابد أن أعود إلى مكة، ليرى الجميع أننى أصبحت حراً . . وأننى أخذت بثأر السادة العاجزين المنهزمين . . ولترى فتاتى الطيبة الجميلة أننى نلت حريتى بيدى، لم أتلقها هبة من أحد . . سترى أننى سيد نفسى . . عندئذ تركع تحت قدمى الحافيتين، وتبللهما بدموع الحب والوفاء، ولا تنادينى إلا بكلمة سيدى . . أو مولاى . . إننى مثل جبير بن مطعم تمامًا . . أنا لا أفكر فى شىء سوى هذا . . أما «هبل» وغيره من آلهة قريش فلا يعنينى أمرها . . لو كان هناك شىء يُعبد حقيقة لعبدت ذاتى . . أنا كل شىء . . تلك هى الحقيقة . . الذين يدافعون عن «هبل» لا يدافعون عن صنم . . إنهم يدافعون عن ذواتهم . . عن أمجادهم ومراكزهم . . إننى أعرف جيداً ما يفكر فيه هؤلاء الحمقى

الكذابون. . لو خدعوا العالم كله فلن يخدعوا وحشى الذى أنضجته الأحزان والحرمان والذل الطويل. . ».

وسمع خلفه صوت امرأة: «وحشى. . لماذا تقف هكذا؟؟».

- «ألم تدر الدائرة علينا؟؟».

- «أيها الذاهل. . هذه فرصتك لقتل حمزة قبل أن يقتله غيرك، لقد عصى رماة المسلمين أمر نبيهم، وهرولوا متسابقين لجمع الغنائم، فاستطاع خالد بن الوليد أن يقوم بحركة التفاف مباغتة، فعادت قريش إلى المعركة من جديد، وأخذ المسلمين على حين غرة. . وهناك من يزعم أن رجالنا قد قتلوا محمداً نفسه. . .».

أدار إليها وجهه وهو لا يصدق ما يسمع، وهتف:

- «محمد؟؟».

- «أجل يا وحشى. . ».

هز رأسه دون اكتراث وقال:

- «أما أنا فقد انتهت مهمتى. . قتلت وحشى. . ».

ضحكت المرأة فى سخرية وقالت:

- «تعنى أنك قتلت نفسك. . ».

أفاق من شروده وقال:

- «لا . . لا . . أقول قتلت حمزة».

- «أنت؟؟».

- «أجل . . وهذا يكفينى . . لقد دفعت الثمن . . ونلت حريتى . . ».

وسمع مرة أخرى تلك العبارة القاتلة «أيها الأجير»، فثارت ثائرته، وفارت الدماء فى رأسه ولوح بحربته مهدداً:

- «اخسئى يا امرأة . . ماذا تقولين؟؟ أنا لست أجيراً ولا مأجوراً . . لم أعد عبداً ولن أقبل إهانة بعد اليوم . . ».

قالت المرأة فى دهشة:

- «لم أقل شيئًا مثل هذا، هل جننت يا وحشى؟؟».

وشعر وحشى بعرق الخجل يغمر جبينه. فطأطأ رأسه فى أسى، ولم يعلق بكلمة واحدة، بينما قالت المرأة:

«لسوف أسرع إلى هند زوجة أبى سفيان لأبلغها النبأ السعيد . . ».

وجلس وحشى وحده يفكر، لقد انتصرت الكثرة بما يدعمها من قوة العدد والعدة، وعادت الثقة إلى نفس وحشى وإلى مبادئه، لقد أصبح من الضرورى بالنسبة له أن ينهزم

المسلمون، لا رجعة لوحشي بعد أن قتل حمزة، لقد ارتبط مصيره بمكة وبأبي سفيان وجبير وعكرمة وغيرهم. . وسيكون تصديه للمسلمين مسألة حياة بالنسبة له، ومع حدوث النصر الذي سمع به الآن إلا أن شيئًا غير قليل من الخوف قد داخل نفسه. .

وأفاق من هواجسه على ضجة تقترب، إنها هند قد أتت وحولها النسوة يترنمن بالأراجيز، ويتغنين بالنصر المؤزر، وأحطن بوحشي من كل جانب، يسألنه عن حمزة، هل قتله حقيقة. . انتعشت نفس وحشي وعاوده زهو غامر، فأشرقت ملامحه، وأشار إليهن أن يتبعنه، إنه يمضي منتصب القامة، هذا هو يوم المنى والمجد يا وحشي، كلمات الثناء تنصب في أذنيه، ويحث الخطى كبطل أسطوري، نسي الغدر والغيلة، ولم يعد يذكر سوى المجد الذي طالما حلم به طويلاً. .

ووقف عند رأس الشهيد قائلاً:

- «هذا هو حمزة. . وهذا هو مكان الإصابة. .».

ولولت هند من شدة الفرح، ثم زغردت، واستلّت خنجراً وانقضت على بطن حمزة تبقره. .

أشاح وحشي بوجهه وانصرف. . لم يعد لوجوده معنى، إن لهند بنت عتبة طقوسًا رهيبة تريد أن تؤديها، وستنغمس في

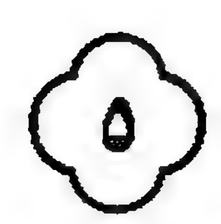
طقوسها الشاذة وتنسى «وحشى»، وهو لا يريد أن يقف ليتفرج . .

وعادت هند بعد لحظات وقد جدعت أنف حمزة، وقطعت أذنيه وجعلت من ذلك وغيره أقراطًا وأساور تحلّت بها، ثم أمسكت بأساورها الذهبية وأقراطها المطعمة بالجواهر، ووهبتها هدية لوحشى . . ونحروا الجزر . . وشربوا الخمر . . وسكروا بالكأس وبحلاوة النصر . . وترنموا بالقصيدة، وتغنوا بالثأر . . ووحشى جالس وحده منكب على كأسه يتجرع منها حتى كاد يفقد وعيه لولا أن انتزعوا الكئوس من يديه، وأبعدوا الخمر عنه . . وأخذ يهذى ولسانه الثقيل لا يكاد يسعفه بما يريد قوله :

- «لكنكم كذبتم علىّ . . إن محمداً لم يمت . . لقد جمع شتات جيشه ولسوف يعود مرة أخرى . . المهم أن حمزة لن يصحو من غفوته الأبدية . . آه يا حبيبتى يا حربتى الغالية . . إنك لم تخذلينى فى ذلك الوقت العصيب . . لا . . لا . . لن يأخذها منى أحد . . ابعدوا عنى . . إن حربتى أخلص لى من أى مخلوق فى هذا الوجود . . إنها لا تكذب . . ولا تغدر . . ولا تخون . . وأنا أعشقها . . لم تزل عذراء . . » .

وتحسس حربته فى رقة، ثم أخذ يقبلها فى شغف . .

●●●



عاد وحشى ومعه المجد . . والمال و . . الحرية . . ملأ رئتيه بالهواء، وحرك ذراعيه، وفردهما ثم ثناهما، وسعل بصوت عال دونما حاجة، وتحسس ذهب هند ومالها، وتذكر ما أفاضوا به عليه من النعم جزاء صنيعه العظيم . . إذ قتل حمزة . . «ولكنى لست مأجوراً . . قتلته فى حرب . . ونلت مكافأة . . غيرى يعودون بالأسلاب والغنائم والسبايا . . وأكاليل النصر وأنا عدت بحريتى . . كل يتقاضى شيئًا ويدفع الثمن . والحياة أخذ وعطاء» .

لكن قصة حمزة تدور فى كل مكان، وتمثيل «هند» بجثة الشهيد يتناقلها الركبان، ومحمد - كما يقولون- وقف على جثة حمزة حزينًا دامعًا، وتمتم : «ما وقفت موقفًا أغيظ من هذا الموقف»، إذن فإن مصرع حمزة قد آلم محمداً أشد الآلام، الخسارة فى حمزة فادحة ومثيرة، وتمتم «وحشى» : «محمد لن يغفرها لى . . إننى سأعيش طول عمرى مهدور الدم . . إنه

عبء ثقيل . . لكن هل هناك حرية بدون أعباء؟؟ ليكن . . فلن أخاف محمداً . . سأمارس حياتى الجديدة كيفما أشاء . . سأقهر كل المنغصات، لا بد أن تكون الحرية قرينة السعادة والأمان . . ومحمد بعيد عن مكة . . إنه هناك فى المدينة يداوى جراحه ويجمع شتات المسلمين، ويستعد لجولات جديدة . . يتطاحن مع اليهود، ويصارع القبائل، ويحسب حساب قريش . . إن لديه آلاف المشاغل، ولن يفكر كثيراً فى رجل مثلى . . آه . . ماذا؟ إننى أشعر بغير قليل من الملل . . لم أزل وحدى . . لم الخداع؟ إننى لا أشعر بتغير كبير . . إن حصولى على الحرية حدث ضخم، وكسب هائل، لكنى كنت أتصور أنه ستنتابنى هزة كبرى . . سيملؤنى شعور جارف غريب من نوع ما أتذوقه طول حياتى . . لم أزل وحشى الوحيد القلق الذى يضنيه التفكير والعذاب . . إن حصولى على الحرية فى حد ذاته أمر يبدو هيناً . . العالم كما هو . . أبو سفيان سيد مطاع، جبير مازال يحظى باحترام الجميع . . ونظرة الجميع إلىّ لم تتغير كثيراً . . فهم مازالوا ينظرون إلىّ من عل . . والكارثة أن العبيد فى مكة يعاملوننى فى ود حتى لكأنى واحد منهم . . هؤلاء الحمقى يباركون مجدى، لكنهم لا يعلون قدرى . إنهم لا يحنون ولا يخفضون رءوسهم احتراماً، ولا يخاطبوننى فى نبرات ذليلة خجولة . . قسماً

لأحطمن جمجمة كل عبد يتجرأ على مقامي الجديد . . وهؤلاء السادة الذين يأبون أن ينسوا ماضيّ، لأجدعن أنوفهم . . لكني وحدي بلا قبيلة، وأجرّ ورائي ماضيًا مثقلا بالعبودية والأحزان . . لم أنل غير كلمات الثناء التي تسكرني . . لا . . إن كلمات الثناء وحدها لا تكفي . . آه . . الناس حمقى لا ينسون . . وأحيانًا يكونون حمقى لأنهم ينسون . . إنني حائر لم أزل أذكر هتافاتهم المدوية بعد النصر على المسلمين وهم يرددون «اعل هبل» . . ليعل هبل . . لينخفض هبل وليرم به في الأوحال . . إن تلك الهتافات تخنقني وتبعث في نفسي التقزز والغثيان . . فأنا لا أقدس شيئًا . . لم أزل ظامئًا إلى أشياء غامضة . . إنني حزين برغم الحرية . . أترى كان شعور «عنترة بن شداد» مثل شعوري الآن؟؟ لا . . لقد كان سعيدًا . . ترنم بأشعار عظيمة تنبئ عن سعادته وهدوء باله . . آه . . لقد تزوج عبلة . . أميرة الأميرات . . آه تذكرت . . الليل يبسط رواقه على الوجود . . وفتاتي لا شك تنتظرني الآن . . هذا أول لقاء بعد العودة . . » .

وانتزع وحشي نفسه من همومه ومجلسه، وارتدى ملابسه وشد قامته، ومضى تحت ستار الليل، يشق الظلمة إلى المكان المعهود، مهبط الذكرى والحب والحنان . . لاشك أنها تنتظره على أحر من الجمر . . إن مجرد التفكير فيها يخفف الكثير من

عناء وحشى وضيقه، ويبدد ما ينتابه من قلق، التفكير فيها يطغى على كل ما عداه . . إنها الابتسامة الوحيدة التى تشع فى ليل حياته الحالك، لشد ما يحب هذه الفتاة . . لقد حركت فى نفسه بعض المشاعر التى وجد لها طعمًا سائغًا حلوًا . . مشاعر أحلى ألف مرة من تلك المشاعر التى خفقت فى قلبه يوم أن نال الحرية . . لاشك أن «عبلة» قد حققت لعنترة مثلما تحقق له فتاته الآن . . وبلغ وحشى مكان اللقاء، فازدادت خفقات قلبه، وجف ريقه . . سيلتقيان لأول مرة . . ودلف إلى الركن المقدس . . لكنها ليست هناك . . هى تعلم أنه ذاهب . . لاشك أنها ستأتى بعد قليل . . فلينتظر . . إنه لا يطيق الانتظار . جسده يحترق من الانفعال، وقلبه يعتصره الخوف، إن تأخرها إهانة لكرامته، وتصغير لشأنه . . لن يغفر لها هذه الهفوة . . إن وحشى اليوم غير وحشى الأمس، وهى تعلم جيدًا كيف تعامل السادة، هو سيد مثل جبير تمامًا، وربما أخطر شأنًا منه، لسوف يعطيها درسًا فى الأدب لا تنساه . . إذا كان جبير قد اشتراها بماله، فهو لا يملك إلا جهدها، أما وحشى فهو سيد عواطفها . . مالك قلبها .

وامتد الوقت ولم تأت فتاته تلك التى يحلو له أن يسميها «عبلة» على الرغم من أن لها اسمًا آخر . . تشبهًا بعنترة بن شداد . . وقد التصق بها هذا الاسم . . وثارت ثائرته . . إنها

لم تكن لتعصى أمره فى الأيام الخوالى، فكيف تتمرد الآن؟؟

«آه يا ليل العشاق الباهر.. عبلة لم تأت.. وعنترة يتلوى من الشك والهموم والعذاب.. وعبلة القديمة سيدة بنت سيد، يقف دونها الأب والأخ والحراس.. وأنت يا مسكينة سائمة فى بيت جبير.. لا يفكر فيك أحد إذا ما دهم النوم أهل البيت، وغابوا عن الوجود.. أين أنت.. يا نبع الحنان الصافى فى عالم التشويه والنفاق والطغيان؟؟».

واعتلى ربوة عالية، وأخذ يدقق البصر فى الطريق الذى يتلوى ولا يكاد يبين، إنه لا يرى شيئًا، ولا يسمع حسًا، كل شىء حوله مقفر ساكن، ونجوم السماء ترشقه بسخريات صغيرة..

- «الجميع يتحدثون عن الله.. وأنا وحدى لا أعير هذا الأمر التفاتًا.. الكهان يرغون ويزبدون.. وأحبار اليهود يكثرون فى الحديث والاستشهاد.. والقساوسة والرهبان يقولون كلمات مؤثرة.. ومحمد يحير الجميع بكلماته البسيطة الخالية من الغموض والطلاسم والرموز.. بساطته برغم قوتها تبعث الشك، وغموض أعدائه برغم تفاهتهم تثير الفكر.. وما امتلأت مكة فى يوم من الأيام بالأحاديث الصاخبة عن الله كما تمتلئ الآن.. والناس غارقون فى متاهات التفكير بالإله.. أنا.. لا دخل لى بهذا كله.. إننى غارق فى متاهات

من نوع آخــر. . يا عــالمى الذاتى الغــريب لقــد ضــعت فى سراديبك المتشعبة».

وعـاد ينظر إلى الطريق، ويحـاول جاهداً أن يتـغلـب على شدة الظلام، لعله يبصر بشبحها قادمًا من بعيد، فترد إليه الروح، وتخفف من هواجس نفسه، وأحزان روحه.

لكن عبلة لم تأت. . وامصيبتاه!! أتسخر منه هذه الجارية الذليلة؟؟ لماذا يتسرَع فى الحكم عليها؟؟ ألا يجوز أن يكون سيدها أو سيدتها قد أوكلت إليها عملاً معينًا؟؟ أو ربما يكون قد باغتها مرض أقعدها عن السير إليه، يجب أن يلتمس لها عذراً، ويصبر حتى تأتى، غير أن الصبر قد بات ثقيلا على قلبه، وهذه الفتاة الحمقاء كان يجب أن تأتى مهما كانت الأسباب. . ولن يبيت وحشى ليلته حتى يعرف الحقيقة مهما كلفه ذلك من ثمن، وأخذ يدق الصخر بقبضة متوترة جامدة، ويلتقط أنفاسه بصعوبة ظاهرة، فهو يحترق ويكاد يختنق مما انتابه من ضيق وقلق. . ثم هب واقفًا واتجه نحو مكة. . وانحدر إلى شوارعها، وقصد تواً بيت جبير سيده القديم، إنه يعرف مسالك البيت ومداخله، وهو يفد إلى هذا البيت بشعور يختلف عن شعوره القديم. . غادره عبداً، وعاد إليه حراً. . لكن البيت جامد صامت، لا تشرق له طلعة ولا يبدو عليه أدنى اكتراث. . ولا يطرب لمقدم الرجل الذى قتل حمزة، وأغاظ محمداً، وأدمى قلوب أصحابه، ودفع

الباب بهدوء فلم ينفتح . . فدار دورة حول البيت ، ثم وثب فوق جدار منخفض يشكل جزءاً من سور صغير . . وشعر بحرج بالغ . . ما هكذا يكون شأن الشرفاء ، ومثل هذا التصرف يسيء إلى فاعله إساءة بالغة ، ويؤذى شعور أهل البيت ، وقد يؤدى إلى فضيحة ، لكن الفتاة لم تأت ، وهو يريد أن يعرف مهما كلفه ذلك من ثمن ، ثم إن العهد ببيت سيده لم يبعد ، ولم يزل له دالة على مولاه . . والأمر سهل ميسور فهو يعرف أين تأوى الفتاة ، وتوسط ساحة البيت وخطا عبر الظلام خطوات . . وانحرف وهو يرتجف نحو حجرة جانبية . . وما إن دفع بابها ، حتى روعته صرخة مدوية . . هرول على أثرها صاحب الدار وعبيده وأبناؤه فوجدوا وحشى ينتصب فى بلاهة وجمود ، لم تكن فتاته وحدها ، بل كان معها عدد آخر من الجوارى . . ثلاثة . . ومن ثم أصابهن الرعب حينما وقع ضوء الشمعة الخافت على وجه الوافد الذى لا يتوقعه أحد . . فصاحت إحداهن مستنجدة . . فتسمر فى مكانه ، بعد أن فقد القدرة على سرعة التفكير والتصرف وشعر بحرج بالغ ، وهو يرى نفسه فى هذا المأزق السمج» .

وعضت فتاته على شفتيها فى حيرة ، والتزمت الصمت ، مع أن خفقات قلبها كادت تحطم أضلاعها . . وقال جبير بن مطعم وقد اكفهر وجهه ، وامتلأت نبراته بفيض الغضب :

- «ما الذى أتى بك الساعة إلى هنا؟؟» .

أطرق وحشى دون أن يجيب . .

فخطا جبير نحوه وأمسك بكتفه ، وهزه فى عنف :

- «أيها الحقير . . من علمك أن تقفز فوق الجدران ، تقتحم حرماتها . . » .

- «سيدى . . » .

- «اصمت أيها الآبق . . إن نفسك لن تتغير . . نفس عبد ذليل . . » .

- «سيدى . . » .

دفعه جبير بشدة ، وأشار إلى عبيده قائلا :

- «اقذفوا به إلى خارج البيت . . » ثم استدار إليه قائلا :

- «لو رأيت وجـهك الأسـود هنا مـرة أخـرى لحطمت رأسك . . » .

وهجم العبيد على وحشى وأمسكوا به ، لكن جبير جرى وأمسك به مرة أخرى ، ثم قال :

- «أريد أن أعرف لماذا جئت هنا الساعة؟؟ أجئت لتسرق أم لتعتدى على الحرمات أم ماذا؟؟» .

دمعت عينا وحشى ، وحاول أن يتصرف بلباقة فقال :

- «سيدى، لم تزل الدار دارى . . فأنا بالأمس غلامك وسأظل طول عمرى فى خدمتك، لقد ساقنى الولاء والحنين . . وجدت الباب مغلقًا، لم أستطع . . كنت أريد أن آوى إلى مكانى المعهود . . الوحدة والفراغ يكادان يحيلان ليلى إلى جحيم، تلك هى القضية . . ولا شىء غير ذلك . . . ».

وقهقه جبير فى مرح، بعد أن رق قلبه وقال :

- «على الرغم من حماقتك وشراستك فأنت طيب القلب».

وشمخ جبير بأنفه فى ثقة وقال :

- «لا بأس . . اذهب واقضِ بقية الليل مع رفاقك القدامى إلى جوار حظائر الشياه . . ».

وافتر ثغر وحشى عن ابتسامة ساخرة لم تتضح معالمها فى ضوء المصباح الزيتى، وتمتم :

- «شكرًا لك يا سيدى . . إننى سعيد بذلك . . إنك تعرف ألفتى للمكان ومن فيه . . هذا يثلج صدرى . . ».

وكان وحشى فى داخل ذاته يتفجر غيظًا وحنقًا، بل تمنى فى تلك اللحظات أن ينقض على عنق جبير، ويقبض عليه بيديه المتشنجتين، ولا يتركه إلا جثة هامدة، لشد ما يكره هذا السيد وبيته ومن فى البيت، إن ذلك كله مجموعة من

الذكريات المرة المؤلمة لنفسه، المؤذية لشعوره، لكنه كان فى موقف لا يمكنه أن يتصرف إزاءه سوى ذلك التصرف برغم ما فيه من غضاضة وتحقير.. كل ذلك من أجلها.. من أجل الملعونة التى أحبها قلبه، وغامر فى سبيلها تلك المغامرة الصبيانية..

وعندما جلس إلى جوار رفاقه فى حجرتهم القذرة تمتم أحدهم ساخراً:

- «إنك تحن إلى العبودية».

وقال آخر:

- «إن وحشى عبد من أخمص قدميه إلى قمة رأسه..».

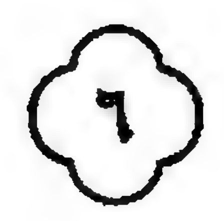
وتمتم ثالث:

- «لو كنت مكانك يا وحشى لما حُومت حول هذا البيت طيلة حياتى..».

وصرخ وحشى فى حدة:

- «أيها الحمقى.. اصمتوا وإلا قطعت ألسنتكم..».

تبادلوا النظرات الحائرة، وألقوا بأجسادهم المنهكة على الأرض صامتين، إنهم لا يستطيعون أن يفهموا دخيلة هذا الرجل غريب الأطوار..».



غادر بيت سيده متخفيًا قبل أن يفضحه نور الشمس، لقد قضى ساعات تعسة أشق عليه من سنوات الذل والعبودية، كل ذلك من أجلف تائه، أمله الوحيد الباقى فى هذه الحياة، والشعاع الذى يضىء ظلام نفسه المقهورة المضطربة، وعاد إلى خمره وكئوسه يعب كيما ينسى، وهل يستطيع أن ينسى كلمات «جبير» الجارحة؟؟ إنه لم يزل يعيره بأنه عبد ذليل، إن عتقه لم يغير من وضعه شيئًا، ألهذا كان يكافح ويسفح دم سيد من سادات قريش، ويعادى نبيًا، ويعيش مراق الدم طول حياته؟ أين أمانيه الحلوة، وأحلامه الساحرة، وما كان يتمناه من حرية وشرف وكرامة؟؟ لكنه هو الذى دفع بنفسه لهذا الحرج، وألقى بها فى هذا المأزق، بل إن فتاته هى السبب.. لكن كل شىء يهون فى سبيلها.. إلا شيئًا واحدًا.. حريته..

واستطاع وحشى أن يتصل بها وأن يلتقى بها خفية، وعندما ضمهما مكانهما المعهود، قال فى توتر:

- «كيف تغدرين؟؟» .

ولما لم تجب، هدر فى عصبية واضحة :

- «جلست أنتظرك حتى كدت أفقد عقلى، من أنت حتى تسببى لى مثل هذه الكوارث، وتعرضى كرامتى للهزء والسخرية؟؟» .

وظلت معتصمة بالصمت، فاستطرد :

- «يجب أن تفهمى أننى مثل سيدك تمامًا، لا فرق بينى وبين جبير الآن، أم أنك تشكين فى هذه الحقيقة الأكيدة؟؟

ثم ابتلع ريقه، واتجه إليها بكل اهتمامه متسائلا :

- «لماذا لم تحضرى فى الموعد المضروب؟؟» .

- «لم يكن لدىَّ رغبة. .» .

لكأنما سددت إلى قلبه سهمًا قاتلا، وصرخ :

- «كيف؟؟ أتستطيعين أن تقولى مثل هذا الكلام لسيدك جبير؟؟» .

- «لا أستطيع. .» .

- «لماذا؟؟» .

- «لأنه سيدى. . اشترانى بماله، وربانى وحمانى. .» .

- «وأنا؟؟ ألست فى منزلة سيدك؟؟» .

قالت فى إصرار :

- «إنك لا تملك هذا الحق ! !» .

- «هل أفهم أن ولاءك لمن اشتراك أكثر من ولائك لمن تحبين ؟ ؟» .

وشردت بضع لحظات ، وتمتمت :

- «لقد أصبحت أشعر أن هناك حاجزًا ضخمًا يحول بينى وبينك ، امتلأ قلبك بترهات وأفكار غريبة ، فلم يعد فيه مكانًا لمثلى ، لقد فقدت وحشى المتواضع المخلص البسيط . . تمزقت بيننا أواصر الحب والآلام والعذاب . . إننى لا أثق فى حب السادة . . » .

قال وهو يمد يده نحوها :

- «أيتها الغبية . . لئن نلت حريتى ، وتخلصت من عبوديتى . . فإنى سأظل بالنسبة لحبك عبدًا ذليلا طول حياتى . . » .

وما إن لمست يده كتفها ، حتى ارتجفت وابتعدت عنه .

- «ماذا جرى ؟ ؟» .

- «لا أعرف . . لقد زرعت فى نفسى الوساوس والهموم ، كنت أفكر فيك وفى كلماتك وأنت فى الحرب ، لم أخرج

بشىء من ذلك كله، اللهم إلا القلق والشك فى كل شىء . . لقد أصبحت أخاف منك . . أنت الذى ملأت سماءنا الجميلة بسحب قاتمة . . أصبح كل شىء معقدًا مخيفًا . . يكفى أنك حر وأنا أمة مشتراة . . ».

تمتم فى ضيق:

- «أيتها البلهاء، وما شأنك بهذا كله؟؟ لا تفكرى فى شىء من هذا، الأمر الوحيد الذى يجب أن يشغل بالك هو مصيرنا . لا بد أن نتزوج ونعيش معًا إلى الأبد . . ليس بيننا حواجز من أى نوع، سأحاول أن أحررك بمالى . . سأدفع لسيدك ما يشاء . ».

همست فى سخرية:

- «تشترينى؟؟».

- «ولم لا؟؟».

هب واقفًا، وواجهها فى حيرة قاتلة:

- «الحقيقة أننى لا أفهم شيئًا مما تقولين، ولا أقتنع بكلمة واحدة . . قولى صراحة . . هل تغير قلبك نحوى؟؟».

- «أجل».

هوت الكلمة فى أذنيه كالصاعقة، وهزت كيانه، فارتعشت

ساقاه، وأوشك أن يتهاوى، لكنه تماسك وقال فى صوت مرتجف:

- «إنك مثلهم.. أنت تسخرين منى ومن كبريائى وتحتقرين تجربتى العظيمة فى التحرر، أنتم جميعًا تتآمرون علىَّ وتريدون أن تحرمونى من الكسب العظيم الذى حققته، تصرون على أن تشعرونى بتفاهتى وحمقى.. منذ متى تعلمت هذه الوقاحة والتبجح؟؟ إنه لانقلاب غريب لم أكن أتصوره.. لقد كنت أطوع لى من بنانى وأنا عبد ذليل، فكيف تعترضين على مشيئتى وأنا حر أبى لا سلطان لأحد علىَّ؟؟

تمتمت فى أسى:

- «دعنى أفكر..».

- «تفكرين؟؟ كيف؟؟».

- «إن سيدى نفسه لا يستطيع أن يحرمنى من التفكير..».

- «لقد أصابك مس من الشيطان..».

- «أنت الشيطان نفسه.. إنك لم تعد ترى شيئًا.. لو دققت النظر فى مرآة لهالك التغير الذى طرأ عليك.. إن نظراتك التى كنت أرى فيها الوجد والخضوع والحب تغيرت تمامًا.. أرى الآن فيها تحديًا وحقدًا وشراهة.. ووجهك الساذج السمح قد تقلصت عضلاته.. أرى فيه إنسانًا فى حالة

مستمرة للانقضاض والوثوب والافتراس . . حتى كلماتك البريئة مسخت تمامًا وأصبحت أشبه ما تكون بالأوامر . . آه . . أين أنت؟؟ إننى أبحث عنك فلا أجدك . . أين الرجل القديم الذى ملأ علىّ حياتى، وأحال الحاضر والمستقبل إلى جنة وارفة الظلال؟؟».

تمتم فى حنق:

- «تحبين العبد الذليل».

- «أجل . .».

- «إنه تعصب حقير لبنى جنسك . . تقديس لنقائصكم ورذائلكم . . إنك تحسديننى على ما نلت من حرية وكرامة . . يا جنس العبيد . .».

قالت وقد احتقن وجهها غضبًا:

- «إنك لا تفكر إلا فى نفسك . .».

- «أنا؟؟».

- «ولا تفكر فى الحب إلا بالقدر الذى يروى ظمأك . . إننى أعرفك . . وبالطريقة التى تحقق ذاتك، وتغذى كبرياءك . . إننى أعرفك . .».

- «أنا؟؟».

- «ليس لديك حق ولا باطل، ولا تعترف بحلال ولا حرام. . ».

- «كيف؟؟».

- «نفس الكلمات التى قلتها بالحرف الواحد ذات يوم. . ».

- «لم أقصد الإساءة إليك. . ».

- «إنك تسىء إلى نفسك أولاً. . وإلى جميع الناس. . ».

اقترب منها، وانحنى فى ضراعة قائلاً:

- «أنت حياتى. . وحريتى. . ».

- «لا تلمسنى يا وحشى. . ».

صاح فى جنون:

- «إننى أستطيع أن أسحقك. . ».

- «لن تجنى شيئًا».

- «والنتيجة؟؟».

- «دعنى وشأنى. . ».

فاحتواها بين ذراعيه القويتين، وضمها على الرغم منها إلى

صـــدره وهى تصـــرخ وتقــاوم، تدفــعــه فى صــدره بيــديهــا الواهنتين، وتصيح:

- «أيها الوحش..».

- «لن أتركك لحماقتك..».

لكنهـا ظلت تقـاوم، حتى تراخت يداه، وهو يلهث بينمـا انطلقت تقول:

- «إننى أحتقر حريتك وأفكارك..».

قال وقد اشتعل جسده ناراً:

- «إن هناك رجلاً آخر..».

- «أجل..».

دارت به الأرض، ولم يعد يرى شيئًا، واستحالت حرارة جسده إلى برودة وعرق وخفقات فى صدره وتمتم فى حزن بالغ:

- «من هو؟؟».

قالت فى هدوء:

- «محمد..».

صرخ فى ارتياع:

- «من؟؟».

- «إننى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله».

لم يستطع البقاء فى مكانه، تراخت ساقاه، وجلس على الأرض، وجحظت عيناه، حاول أن يتكلم فاحتبست الكلمات فى حلقه، وجاءه صوتها:

- «وكلمات محمد يا وحشى تحمل السلوى والعزاء للمحرومين.. ودينه يضم فى مبادئه الخلاص.. ولو تحولت هذه المبادئ إلى حقائق فى هذه الأرض لعم السلام، ونعم الناس بالسعادة..».

صرخ فى دهشة:

- «لكن أحاديثك السابقة كانت تخالف ذلك... لم تنطقى بمثل هذه العبارات من قبل، تصرفاتك لم تحمل معنى يوحى بهذا التطور الخطير.. أبلغت بك البراعة هذه الدرجة من التخفى والتظاهر؟؟».

قالت فى هدوء:

- «إنه نور انبثق فى خاطرى فجأة.. لا شك أن له هواجس قديمة فى نفسى.. أفكار أخذت تنمو وتكبر حتى وجدتنى ذات يوم أنطق الشهادتين..».

وصمتت فترة ثم قالت:

- «إنك تحاول أن تنال حريتك كفرد. . بجهد شخصى محدود. . أتعتقد أن هذا يغير كثيراً فى القضية الكبرى لنا نحن العبيد؟؟ مستحيل. . إن مجموع الناس هنا بتقاليدهم ومبادئهم يكونون مشكلة كبرى. . مأساتك ذرة صغيرة فى بحرها. . ولن تسود العدالة والحرية إذا تحرر وحشى. . أو عشرات مثل وحشى. . إن وجه الحياة أعنى النظام كله وأسسه كلها يجب أن يتغير. . وأن ينطلق هذا التغيير من هنا (وأشارت إلى رأسها) ثم من هنا (وأشارت إلى قلبها)».

التفت إليها دون أن تزايله دهشته:

- «لكن لماذا لم تخبرينى بذلك قبل أن أذهب إلى الحرب؟؟».

- «لم تكن الظروف مناسبة، ولم أكن قد استقر قرارى بعد..».

ضرب كفًا بكف، وتمتم:

- «أصبحت الأمة البلهاء فيلسوفة..».

- «لا أعرف شيئًا عن الفلسفة يا وحشى.. إنها كلمات سمعتها وآمن بها قلبى، وما أنا إلا ناقلة أمينة لها..».

استبد به الغضب، ولوح بيده فى حنق قائلا:

- «لقد أسلمت فى وقت مناسب جداً . . الآن تستطيعين أن تذهبى إلى محمد . . » .

وأضاف ساخراً :

- «وأن تشاركيه النصر العظيم الذى حققه فى «أحد» منذ أيام» .

طأطأت رأسها فى أسى قائلة :

- «أعرف أن قريشًا قد كسبت هذه الجولة ، لكن الوحى أكد لمحمد أن النصر للمؤمنين فى النهاية . . » .

قال فى ازدراء :

- «كلمات يعوزها الدليل . . » .

- «أتريد دليلا على كلمات الله . . يكفى أنها وحى يوحى . . إذ كنت قد آمنت بالله وبرسالة محمد ، فلا أتردد فى الإيمان بآيات القرآن . . » .

أمسك بيدها وجذبها بقسوة :

- «من علمك هذه الكلمات؟؟» .

- «نساء ورجال يملئون مكة . . ويخفون إسلامهم . . » .

دفعها إلى الوراء وقال فى شماتة :

- «لسوف أخبر مولاك بكل شىء . . عندئذ تقطع رءوس

المفتونين، وتعلق على قارعة الطريق. . ».

هدرت فى صوت ثابت قوى:

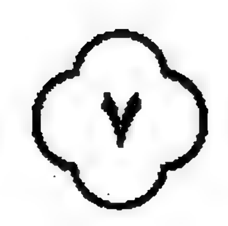
- «أتفعلها كرجل؟؟ أتبدأ عهد حريتك بالغدر وتقييد حرية الآخرين فى أن يختاروا العقيدة التى يقتنعون بها؟؟ إننى لم أفشِ لك سرى إلا لعلمى بأنك قد تعود إلى حظيرة الله وتعلن إسلامك. . ».

أعطاها ظهره ومضى. .

كان يتخبط وسط الظلام لا يدرى أين يتجه، وبدا له أن الموت أروح من هذه الحياة الثقيلة المليئة بالأعاجيب والأحاجى التى تزمجر فيها الأحداث زمجرة العواصف العنيفة. .

وعندما بلغ بيته الجديد عجز عن الاستطراد فى التفكير، فهرول إلى كأسه لعلها تنسيه أحزانه وقلقه العتيد.

●●●



الشعاع الوحيد الباقى فى ذلك العالم الأسود قد انطفأ، مات الضوء فجأة وبدون مقدمات، أليس هذا غدراً؟؟ والطعنة أتت من حيث لا يتوقع وحشى، كان يوقن أن الخيانة قد تنطلق سهامها من أى إنسان إلا «عبلة». . كانت رصيده الوحيد فى صحراء الحياة الحارقة الجافة. . الواحة الخضراء التى يأوى إليها. . ها هو يحيى الآن بلا رصيد. . أليس هناك تفسير واحد صحيح لمعنى هذا الوجود وتصرفات البشر؟؟. . لو حلت هذه العقدة لما بقى فى الأرض مأساة. . أم ترى أن التفسير الصحيح موجود ووحشى يغلق عقله وقلبه دونه؟؟ وإذا كانت الحياة كلها غدراً وخداعًا وخيانة، فلماذا لا يتعامل وحشى مع الجميع بنفس الطريقة. . لماذا لا يذهب مثلاً إلى سيده القديم «جبير» ويخبره بأن «عبلة» قد صبأت، وخرجت عن دين سيدها ودين الأشراف من القوم؟؟ لكم يحلو لوحشى أن يرى سيده «جبير» وهو

يسحق هذه الحشرة سحقًا . . ينثر عظامها، ويريق دمها، لكى تتعظ ويتعظ غيرها من المغرورين والمغرورات ولكى يتأكد لها أن الحياة أعظم هبة فى الوجود، وأن الحفاظ عليها أهم من محمد وعقيدته ومبادئه الكبيرة!!؟ «أيتفتح قلب امرأة مملوكة على النور، وتغشى عنه عيناى . . وعينا سيدها؟؟» وكيف ينصرف فكرها إلى مثل هذه الأمور وهى فى مثل تلك السن، وتحت تلك الظروف القاسية . . أم أن ما يراه مانعًا من قبولها لدين محمد، قد يكون نفسه هو السبب فى إيمانها به؟ ويغمغم وحشى لنفسه: «ويحى . . إنها تجرنى إلى التفكير فى أمور ما كنت أود أن أستغرق فيها قبل ذلك . . وعندما يعلم سيدها بأمرها، فلسوف يسوقها إلى الساحة الملعونة، ليشوى جلدها تحت وهج الشمس والسياط، ويجمع حولها الصبية يبصقون عليها، ويقذفونها بالأحجار ويتسلون بعذابها . . ».

وعندما بلغ «وحشى» هذا الحد من التصور الحاقد، وجف قلبه، وشعر بغير قليل من الرثاء والعطف عليها، إنها رقيقة حساسة . . أخلصت له الحب فى الماضى، وهى لم تقل حتى الآن إنها تكرهه، لكن عاملاً جديدًا طرأ على علاقتهما من جراء اختلاف وجهتى النظر . . هى ترى أن الدين الجديد أصبح فى حياتها كل شىء، يجب أن تخلص له فى السر

والعلن، وأن تهب نفسها وروحها من أجل دعوة محمد، وهو يرى أن الحرية والحب أغلى نعمة فى الوجود، وأنه لا يصح أن يعول إلا عليهما. . ومن هنا جاء الصدام. . ألا يمكن أن يلتقيا مرة أخرى؟؟ لقد أصبحت بينهما مسافة طويلة من التنافر، وكيف يستطيع أحدهما أن يطوى هذه المسافة طيًا، ويلحق بالآخر، وتعود علاقات الود القديم. . ومن ثم لا يصح أن يتسرع فى الوشاية بها. . إن الوشاية ستصم عاطفته وصمة لا خلاص منها. .

لكن الغيرة تأكل قلبه، والوحدة تنهش روحه نهشًا، والضياع يملؤها عذابًا أقسى من عذاب العبودية والقهر، كان فى إمكانه أن يعيش بدون نعمة الحب. . لا. . لا. . إنه لم يفقد الحب بعد، إن قلبه يصرخ بالحب والشوق، و«عبلة» لم تبع نفسها للشيطان. . ولم تسلم قيادها لرجل آخر. . «إن حب محمد من النوع الذى لا أخاف ولا أغار منه. . إن محمداً بالنسبة لها أب ومعلم ومنقذ لروحها. . إنه نبى كما يزعم، وحقد وحشى عليه ينبع من خوفه منه بسبب قتل حمزة، وينبع أيضًا من تأثيره الكبير على اتجاهات فتاته وأفكارها. . ومحمد ربما لا يعرف عبلة حتى الآن، وقد لا يعرف الكثيرين مما يدينون سراً بدينه. .

. . آه. . الوحدة تقتلنى يا «عبلتى» القاسية. . وحريتى

أصبحت مرة المذاق، وحياتي بلا معنى . . وأنت لا تعلمين ما يتتابنى من أرق ويأس وعذاب» .

●●●

والتقى «وحشى» ذات مساء بأحد أصدقائه الأرقاء القدامى واسـمـه «سـهـيل» وهو تاجـر مـن الطائف، ولـم يخف على الصديق ما طرأ على «وحشى» من تغير، إنه يراه شاردًا حزينًا ضائق الصدر، لا يكاد يستقر على حال، ولا تعرف البسمة طريقًا إلى شفتيه . .

قال صديقه سهيل :

- «ماذا دهاك؟؟» .

تنهد «وحشى» آسفًا وقال :

- «هجرتنى دون وداع . . » .

- «من . . » .

- «حبيبة القلب . . » .

- «كيف يا وحشى، وقد أصبحت حرًا؟؟» .

- «أليس هذا عجيبًا؟؟ إن القدر يسخر منى . . » .

- «ترى ما السبب يا وحشى فى هجرانها؟؟» .

قال وحشى فى شىء من الضيق :

- «محمد . . ».

- «كيف؟؟».

- «لقد أسلمت . . . ».

- «لكن إسلامها يا وحشى لا يقتل الحب، المسلمات كما أعرف أكثر النسوة ولاء ووفاء . . ».

- «لقد فرقت بيننا العقيدة . . ».

- «إن زينب بنت محمد بقيت مع زوجها أبى العاص ابن الربيع على الرغم من إسلامها وكفره . . إنها بنت محمد يا وحشى . . ».

التفت إليه وحشى قائلاً :

- «وهل نسيت أنه عندما وقع أبو العاص فى الأسر يوم «بدر» أطلق محمد سراحه على أن يعيد إليه ابنته؟؟».

قال الصديق :

- «أوه . كثيرات فى مكة يؤمنّ بمحمد ويكفر أزواجهن، ولكنهن يعشن حياتهن العادية . . ».

- «إن إيمانها يا صديقى تدفق فجأة، وملأ روحها، وجعلها تجعل العقيدة فوق الحب والحياة . . ».

- «أية امرأة تلك؟؟».

- «أمة مشتراة بدنانير معدودة . . » .

وصمت الصديق برهة ثم قال :

- «الحقيقة يا وحشى أن الحياة فى مكة تضطرم ، وأن أحداثًا كبرى تلف الناس بعواصفها ، ومحمد -لا شك- أصبح ذا خطر كبير برغم هزيمته فى معركة أحد . . إن قرآنه كأنه السحر ، ومبادئه تتسلل إلى النفوس ، وتحدث فيها أضخم الانقلابات» .

والتفت إليه وحشى فى دهشة قائلاً :

- «أتعتقد أن هذا الرجل على حق؟؟» .

قهقه الصديق قائلاً :

- «ويحك يا وحشى . . إنك تعانى اضطرابًا بالغًا ، ألم تقل لى ذات يوم أنه ليس فى الحياة حق أو باطل ، ولا حرام ولا حلال . . القوة وحدها هى كل شىء؟؟» .

طأطأ وحشى رأسه فى حيرة قائلاً :

- «إننى حائر معذب يا سهيل . . » .

- «أى صديقى العزيز وحشى ، إن قريشًا ترى أن محمدًا على باطل لأنه خرج على دين الآباء والأجداد ، وحقّر أفكارهم وتقاليدهم ، ومحمد يرى أن تصرفات الأجداد

وتقاليدهم ليست حجة . . ويدعو الناس إلى المقارنة بين ما كانوا فيه وما يدعوهم إليه . . ويسوق حجة باهرة . . إن خالق البشر أعلم بحالهم من أنفسهم، لهذا أرسل نبيه، ومعه قرآنه . . التعاليم المنقذة للناس من الضلال . . محمد يراهم على باطل، وهم يرونه على باطل . . وأنت يا وحشى لك أن تختار . . .».

صرخ وحشى وقد ازدادت حيرته :

- «أختار؟؟».

- «أجل . . ألست حراً؟؟».

- «إنها حرية قاتلة يا سهيل . .».

- «للمسئولية الفادحة التى يحمل الحر أعباءها . .».

قال وحشى محزونًا :

- «وامصيبتى . . إننى لا أعرف أين أتجه . . إن مشكلتى لم تحل بعد . . نلت الحرية فازدادت آلامى وحيرتى . .».

قال الصديق :

- «وفتاتك؟؟ أتتلظى بنيران الحيرة هى الأخرى؟؟».

- «لا . . آه يا صديقى العزيز لو رأيتها . . كان وجهها يشرق برغم شدة الظلام، وكانت تتكلم فى ثقة ويقين

غريبين، لم ألمح في كلماتها خوفًا أو اضطرابًا، ولم أشم في نبراتها قلقًا.. إنها كانت تتكلم هادئة النفس.. لكأنما رست سفينتها على شاطئ آمن تكتنفه الأشجار الخضراء، والثمار اليانعة.. لكأنما وضعت قدميها على أعتاب جنة محمد..».

قال الصديق:

- «لأنها عرفت الحق..».

- «أتعتقد أنها على حق؟».

- «رأيي ورأيك لا أهمية لهما.. يكفي إيمانها بأنها بلغت مرفأ الحق والسلام..».

- «الحق والباطل قضية ذاتية إذن..».

- «هذا صحيح لحد ما، ما دام البشر يحكمون أهواءهم ومصالحهم، ويخضعون لتأثيرات شتى..».

- «والحق المطلق؟؟ أين هو؟؟».

أشار الصديق بإصبعه نحو السماء قائلاً:

- «هناك.. عند الله..».

- «أي إله؟؟ إله محمد.. أم إله اليهود.. أم إله النصارى. أم إله قريش؟؟».

- «الرب واحد يا وحشي..».

- «لكن الناس يختلفون.. وكل طائفة تعتقد أنها تحمل لواء الحق ودعوة الله..».

- «انظر..».

- «إننى لا أرى شيئًا..».

- «لأنك مريض يا وحشى.».

أمسك وحشى بكم صديقه، وجذبه إليه فى عنف قائلا:

- «وأنت.. مع من رأيت الحق؟؟».

- «لم أرَه بعد..».

- «لكنك تمتاز بفكر ثاقب، وعقل كبير..».

قال الصديق ساخراً:

- «العقلاء أبطأ الناس سيراً نحو الدعوات الجديدة..».

- «لماذا؟؟».

- «التفكير الطويل يورثهم التردد والبطء. وقد يؤدى إلى الشلل والجمود.. قد يكونون أقوى الناس عقلا.. وأضعفهم إرادة.. العقل وحده ليس كل شىء.. يا وحشى..».

تمتم وحشى فى أسى:

- «اللعنة على كل شىء.. ألا يمكن أن يعيش الإنسان بلا دين؟؟».

- «مستحيل.. القيم أو المبادئ يا وحشى جزء من طبيعة الإنسان.. والدين مجموعة من القيم..».

قال وحشى محتداً:

- «ولم لا أصنع هذه القيم..».

- «لأنك قاصر..».

- «لست قاصراً، فأنا إنسان حر، أفكر.. وأعمل..».

- «إذا كنت قادراً على أن تصنع قيمك فلماذا لم تصنع نفسك؟؟».

- «أنا لست إلهًا.. والله الذى خلقنى وهبنى العقل..».

هز الصديق رأسه قائلاً:

- «العقل شابته أحزان كثيرة.. وعقل الإنسان يا وحشى محدود.. ولولا ذلك لعرف الحق وقصده على التو.. وتاريخ الإنسان ملىء بالانحرافات العقلية.. لذا تكفل الله بأن يصنع الضوابط لعقل الإنسان، وبأن ينير له الطريق..

قال وحشى:

- «خلق الله العقل وفرض عليه الوصاية لقصوره..».

- بل أنزل عليه الهداية لتأخذ بيده.. ومن شاء آمن ومن شاء كفر.. لا يساق أحد بالسوط.. وكلمات الله واضحة بسيطة..».

التفت وحشى إليه مغتاظًا وقال:

- «اذهب عنى.. لقد زدت فى حيرتى وعذابى.. إنك تفهم الكثير، لكنك لا تتخذ موقفًا محددًا..».

- «إننى أتعذب مثلك يا وحشى!! أتطردنى؟؟ إنك فى حاجة إلىّ.. وأنا فى حاجة إليك.. كلانا يقف على مفترق الطرق بين الجنة والنار.. هناك يا وحشى حق وباطل وهناك حلال وحرام.. لكن الحياة غموض وتخبط واختلاط..».

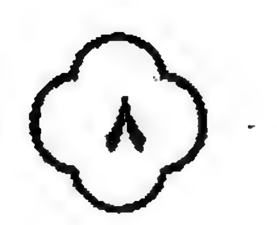
صرخ وحشى محتدًا:

- «اذهب عنى.. لا أطيق أن أرى أحدًا..».

وعندما انصرف صديقه «سهيل» جلس وحده.. انطوى على ذاته.. وانهمرت دموعه على الرغم منه..

- «ويحك يا عبلة.. لقد ارتكبت فى حقى جريمة كبرى.. إنك تقتليننى.. تتنكرين لأيامنا الحلوة.. ليتنى ما عرفتك.. ليتك لم ترطبى أيامى القاسية الجافة بكلماتك الشجية، ومشاعرك الطيبة.. كنت أفضل أن أموت ظمأ من أن تسكبى قطرات من رحيقك الحلو فى فمى.. ثم تتركينى نهبًا للحرمان والعذاب».

●●●



كان قرار وحشى قرارًا نهائيًا، وهو أنه لن يقيد نفسه بقيد من نوع جديد، ولو كان هذا القيد هو رسالة الله، لقد أصبح ينفر من كل القيود، يريد أن ينطلق ويتحرر ولا يلتزم إلا بما يوافق فكره، وينسجم مع هواه، ولن يجره حبّ «عبلة» للارتباط بعقيدتها، ولن يعميه غيظه عن الالتفات لما هو جدير به من الوفاء والتسامح معها، أى أنه لن يغدر بها ويشى بها عند سيدها جبير، لكن هل شعر بالأمن والراحة عندما استقر رأيه على هذا الموقف؟؟ لا . . إنه لم يزل يقاسى من المرارة والحنق والأرق، ومن ثم أخذ يفتش فى ذاكرته يبحث عن شىء ينسيه . . الخمر وحدها لا تنسيه، وهو لا يفكر فى الزواج بعد أن فترت علاقة عبلة به . . لكنه على استعداد لأن يعبث . . وتذكرها . . إنها بغى معروفة . . إنها مثله لا حسب ولا نسب . . تحترف البغاء، لكنها مسلية قادرة على أن تؤدى مراسيم المواساة والعزاء، قادرة على أن تنسيه

بعض آلامه وأحزانه . . فليشد الرحال إلى «وصال الرومية . . ».

وجاءها فى منتصف الليل، كان يود أن يغرق حتى أذنيه فى المجون والعبث والشراب، اللعنة على كل شىء . . على كل القيم والمبادئ، الطرق كلها مغلقة أمامه، فليفتح لنفسه طريقًا أى طريق، تمضى فيه حياته التعسة . . ولديه القوة والمال والحرية . . واليأس أيضًا . . ألا يكون اليأس أحيانًا مدعاة للمغامرة والاستهتار؟؟

وعندما رأته وصال قالت :

- «طالت غيبتك يا وحشى . . ».

- «كنت أرتع فى حلم زاهٍ ساذج يا وصال . . ».

- «وهل أفقت من أحلامك؟؟».

- «تيقظت على أبشع آلام عرفتها فى حياتى . . ».

- «لماذا؟؟».

- «آه يا وصال . . وهبتها قلبى، وأخلصت لها الحب».

قهقهت فى سخرية قائلة :

- «نفس القصة القديمة . . المكررة . . ».

- «هجرتنى يا وصال . . ».

- «أعرف..».

- «وتنكرت للذكريات الشهية..».

- «أليست امرأة؟؟».

- «طعنت كبريائي وآمالي يا وصال..».

- «ألست رجلاً؟؟».

- «لكنني محطم.. رماد..».

- «المرأة تفعل ذلك.. والرجل أيضًا..».

- «أنا لم أجرم في حقها..».

- «لا يهم..».

- «وما هو المهم إذن يا وصال؟؟».

- «أن تنساها..».

- «كيف؟؟».

- «الشيء الذي تفعله الآن هو الحل.. لا تترك فراغًا في قلبك ووقتك.. فلتملأ الفراغ بأي شيء.. أي شيء.. لا بد من البديل.. عندئذ تشفى من حبها.. لست التعس الوحيد يا وحشي..».

- «أنا أشدّ تعاسة مما تتصورين..».

- «أعرف . . وبيتى هذا هو مكان العلاج لكثيرين . . إننى بغى . . لكن لى رسالة سامية . . » .

- «أبغىّ وذات رسالة؟؟» .

- «أجل يا وحشى؟؟ أنا هنا أمسح دموع المحزونين . . أعطيهم البديل . . أداوى جراح الحب والعذاب . . أجبر القلوب الكسيرة . . لدى الكثير من العطف والمجاملة لأهب الكثير من السلوان . . إن العطاء فضيلة . . وأنا أعطى كثيراً . . أعطى بثمن بخس . . وأحيانًا بلا ثمن . . » .

تناول وحشى كأسًا وشربها دفعة واحدة، ثم أخذ يضحك من كل قلبه . وابتسمت وصال قائلة :

- «لم تضحك؟؟» .

- «أتحبين الصراحة؟؟» .

- «وأكره النفاق . . » .

- «حسنًا . . أنت تتحدثين عن الفضيلة، أليس هذا غريبًا؟؟ وتزعمين أنك تشفين المحزونين، وتداوين الجرحى . . » .

- «أجل يا وحشى . . » .

- «إنك يا وصالُ جرعة مخدر . . أو مجرد كأس خمر . . ما تفعلينه ما هو إلا مسكّن وقتى . . » .

- «هذا أقصى ما أستطيعه . . » .

جرع الكأس الثانية ، ثم تجشأ وقال :

- «لم تسألينى عن سبب هجرانها لى» .

- «لا أريد أن أثير لواعجك . . لتنسَ هذا نهائيًا . . » .

- «والنسيان يتمرد علىّ يا وصال . . » .

مالت عليه فى دلال :

- «هات قبلة . . » .

لا يدرى أطال الوقت به أم قصر ، إن كثرة الشراب والعبث والصخب ، قد قادته إلى الارتماء فى نوم عميق ، ولم يفق إلا على لكزاتها وهى تصرخ وتقول :

- «وحشى . . وحشى . . لقد طلع النهار . . » .

قال وهو يتقلب فى كسل :

- «سيان عندى الليل والنهار» .

- «بل يجب أن ترحل الآن . . » .

قال ساخرًا :

«أتخافين الفضيحة؟؟» .

قالت محتدة :

- «ويحك . . ليس هذا وقت السخرية . . الجميع يعرفون من أنا . . ».

- «حسنًا إننى باقٍ هنا اليوم بأكمله . . ».

- «مستحيل . . يجب أن ترحل فورًا يا وحشى . . ».

- «لماذا؟؟».

- «لأن غيرك ينتظر دوره . . ».

طار النعاس من عينيه، وجلس فى الفراش قائلاً:

- «غيرى ينتظر؟؟ إننى أرفض أن يقطع أحد علىَّ متعتى».

قالت فى ضيق:

- «أنت لا تملك ذلك . . ».

- «سأعطيك ما تشائين من المال، سأعوضك عن هذا الطارق الجديد . . ».

زمجرت قائلة:

- «هل جننت يا وحشى؟؟ إنه سيد من علية القوم».

- «وأنا الآخر سيد . . سأعطيك أكثر مما يعطى . . ».

حاولت الرفق به فقالت:

- «وحشى أيها الحبيب . . إنهم محزونون تعساء مثلك . .

فلتعطهم الفرصة . . إن الطبيب لا يمكن أن يربط نفسه بمريض واحد . . ويترك باقى المرضى يتمزقون ألمًا وأسى . . » .

كان رأسه نهبًا لصداع شديد، ومع ذلك فقد قال مقهقهًا .

- «اعتذرى له . . » .

- «لا . . . » .

- «سأحطم جمجمتك وجمجمته . . » .

دفعت وحشى فى صبر نافذ :

- «قلت لك إنه من علية القوم . . » .

- «وأنا؟؟» .

- «أنت تعرف من أنت، ولو خيرت بينكما لـ . . » .

صاح :

- «لا تكملى يا فاجرة . . » .

- «كفى . . » .

- «سأعطيك يا وصال أضعاف ما يعطيك . . » .

- «المسألة ليست مسألة مال يا مجنون . . » .

- «ماذا إذن؟؟» .

- «المكانة . . ثم إنه يستطيع أن يسفح دمى ودمك . . أنت تعرف» .

غمغم في أسى :

- «تطردينني يا وصال؟؟» .

- «ما قصدت ذلك . . » .

واستطرد :

- «وتعرِّضين بماضيّ الأسود في العبودية . . وتحطمين قارورات الدواء التي وهبتها في المساء . . وتتنكرين للفضيلة العظيمة(!!) التي تحملين لواءها . . » .

هدرت في عجلة :

- «هيا . . هيا . . لا وقت لهذا الجدل العقيم . . لتخرج من الباب الخلفي . . ولتعد إليَّ بعد فترة . . » .

احتد قائلاً :

- «بل سأخرج من الباب الرئيسي الذي دخلت منه بالأمس وسأنظر إلى السيد العظيم بعينين لا تطرفان . . وسألقي عليه التحية ، وليعلم أن الفراش الذي سيدفن نفسه فيه بعد لحظات تفوح منه رائحة عرقي . . وأن الكئوس الملقاة هنا لم تزل فيها ثمالة من خمري . . ليعلم أنني مثله تمامًا . . وإنك ربما تكونين أسعد حالاً معي . . لكنك تنافقين . . يا من تكرهين النفاق . . » .

دمعت عيناها ، وانحنت على قدميه تقبلهما وتقول :

- «ألا ترحم مسكينة بائسة مثلى».

رق قلبه فقال:

- «حسنًا. لسوف أخرج من الباب الخلفى..».

- «وستعود فى الغد يا وحشى..».

قال فى كبرياء:

- «لن أعود..».

قالت وقد زايلتها همومها، وأشرق وجهها بابتسامة مقتضبة:

- «ستجد قدميك تسوقانك إلى هنا مرة أخرى.. أنت فى حاجة دائمة إلى ما يسكن آلامك ويداوي جراحك يا وحشى».

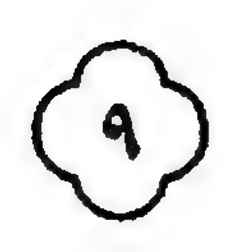
●●●

كان ضوء الشمس قويًا باهرًا، وكان وحشى ذو الرأس المصدع يحاول أن يفتح عينيه جاهدًا ليواجه النور، وسار يتخبط على غير هدى، وجالت فى خاطره أمنية غريبة، أليس هناك من يكلفه بقتل أحد ويدفع له الثمن.. ليس مالا بالطبع.. ولا الحرية.. ولكن يدفع له حبًا.. لماذا لم تطلب منه عبلة أن يقتل واحدًا من أعداء محمد؟؟ إن حريته لا تأنف

أن تنطلق فى أى اتجاه . . أى اتجاه . . إنه لا ينحاز لأى طرف من الأطراف المتصارعة إنه يبحث فقط عن شىء . . عن حبه المفقود، كما كان يبحث بالأمس عن حريته المفقودة . . نال الحرية وفقد الحب . . أهكذا لا يستطيع أن يستمتع بالحياة المثلى التى يحلم بها؟؟

- «وامصيبتاه . . عبلة لها رسالة . . ومحمد له رسالة . . وأبو سفيان أيضًا يحمى دينه . . الشىء الوحيد الذى اتفق فيه مع محمد . . إن هذا عصر جاهلية وضلال وزيف . . كل من فيه فلاسفة حتى سهيل ووصال وعبلة . . لكن أحدًا لم يستطع حتى الآن أن يهبنى السعادة والأمن . . إن أفضل شىء أفعله الآن هو أن آخذ إبلى وأغنامى وأذهب بها إلى المرعى . . هناك حيث الصمت والأفق الرحيب والصحارى الواسعة . . والوحدة الضاربة . . هناك قد أجد شيئًا من الراحة . . . وأنعم بالهدوء مع الحيوان والجماد . .» .

●●●



جلست الإماء يسمرن كالعهد بهن كل ليلة، بعد أن مر يوم طويل مملوء بالجهد والعرق، وفى جلستهن تلك يبحن بأسرارهن، ويبدين ذوات أنفسهن، معتمدات على ما بينهن من ثقة، وما يجمعهن من مصير مشترك، وفى مثل هذه الجلسات يسترخين ثم يتحدثن عن السادة دون حرج، فواحدة تسخر من سيدتها وتقلد صوتها ومشيتها، وأخرى تتخذ سمت سيدتها فى غضبها أو ضحكها أو إشاراتها، وثالثة تروى فضيحة من الفضائح المستترة فى مكة، أو تروى أحدث قصص العشق والزواج، وجلست عبلة بينهن لا تنبس ببنت شفة، كانت صامتة شاردة تفكر فى أمورها الخاصة، وما طرأ على حياتها من تغيرات خطيرة، فهى خائفة أشد الخوف، ماذا يحدث لو علم سيدها بإسلامها؟؟ وماذا ستقول صويحباتها إذا أمسكن بها ذات مرة متلبسة بأداء الصلاة، أو اكتشفن علاقاتها ببعض المسلمات المتخفيات؟؟ وعلى الرغم من

خوفها الشديد، وإشفاقها على مصيرها، إلا أنها كانت تشعر بلذة عجيبة، لذة صاحب المبدأ وهو يضحى بأغلى ما يملك فى سبيل ما يؤمن به، لقد آثرت دينها على حبها، ورضيت بالقلق والخوف تاركة الاطمئنان الخانع الخاطئ فى ظل جاهليتها. . لقد اقتحمت حاجز الخوف والتردد، وفتح الله قلبها للنور، وفى الوقت نفسه ما زالت تخلص لسيدها، وتؤدى ما عليها من التزامات وأعمال دون تقاعس أو ملل.

ودق قلب «عبلة» دقات سريعة حينما سمعت صويحباتها يتحدثن عن محمد، وأخذت ترقب حديثهن فى لهفة بالغة، قالت إحداهن:

- «إن محمداً لم ينهزم كما يزعمون، فأنصاره فى ازدياد، وقد أدب المعتدين من القبائل المجاورة له، وأخذ عليهم العهود والمواثيق، وكسر شوكة اليهود فى المدينة. . وها هم يأتون إلى مكة زرافات ووحدانًا يستغيثون ويحرضون. . ».

قالت أخرى:

- «إن سادات قريش منزعجون أشد الانزعاج، تجارتهم أوشكت على البوار، وأموالهم فى تناقص مستمر، واسم محمد أصبح يزرع فى قلوبهم الخوف. . لكأنما ساقت الأقدار محمداً كى ينتقم من هؤلاء السادة المتغطرسين. . إنه يسقيهم

من نفس الكأس التى يسقوننا منها . . ومن يدرى لعله يستطيع يومًا أن يحطم بيوتهم فوق رءوسهم، وأن يطلقنا من أسار الذل والهوان».

قالت ثالثة :

- «إن محمداً يعطف على العبيد والإماء . ويوصى بهم خيراً . . ويأمر أتباعه أن يعاملوهم برفق، ويطعموهم مما يأكلون ويعاملوهم كإخوة . . بل إن أغلب العبيد الذين آمنوا برسالته قد نالوا العتق، ونعموا بالحرية . . . » .

وانبعث صوت آخر يقول :

- «أو تعتقدون يا فتيات أن قريشًا ستسكت على هذا الضيم وأن اليهود سيتركون شأن محمد يعلو؟ إننى على يقين من أن أعداء محمد -وقد شعروا بالخطر الداهم- سوف يكتلون قواهم، ويحشدون حشودهم للقضاء عليه .

وصمتت برهة، ثم استطردت تقول :

- «فلا تتعلقن بأهداب الأمل الكاذب، ولا تحسبن أن يوم الخلاص قد قرب . . إن سلطان قريش واليهود أعتى من أن يزلزله أحد، ولو كان نبيًا يحمل رسالة من الله . . السادة فى مكة قساة غلاظ لا يعرفون الله . . واليهود لديهم المال والذهب والسلاح . . فكيف يبلغ محمد مأربه بين قسوة قريش ومكر اليهود وقوتهم؟؟» .

ولم تستطع عبلة أن تلتزم الصمت أكثر من ذلك، فانطلقت قائلة:

- «لو أراد الله أمرًا، لما استطاعت قوة قريش ومكر اليهود أن يرداه.. وهيهات... والله غالب على أمره.. والله يقول لمحمد على لسان الوحي: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

ردت إحداهن:

- «ومن علمك هذه الكلمات؟؟».

قالت عبلة في هدوء:

- «الناس..».

- «هذه كلمات لا يحفظها إلا المسلمون، وما في مكة مسلمون..».

- «إن أعداء محمد أشد رغبة في حفظ كلماته من أصحابه، إنهم برغم عدائهم الشديد له، يجدون في أنفسهم دافعًا غريبًا لا يقاوم في سماع كلماته، والتقاطها من أي فم.. وكلمات محمد أيتها الصاحبات تفرض سلطانها على الناس..».

وقالت واحدة منهن:

- «من منكن رأت محمداً؟؟».

ردت عبلة فى فخر:

- «أنا!!».

- «كيف رأيته؟؟».

- «رأيت رجلا على وجهه نور الصدق واليقين، وفى نظراته معنى التواضع والحياء.. ما سمع أحد كلامه إلا صدقه.. هكذا أظن.. يألفه الصغير والكبير، وينجذب إليه العدو والصديق.. لو سألنى أحد يومًا عمن أتوسم فيه أن يكون نبيًا فيمن لقيت من الناس طول حياتى لما اخترت غيره..».

قالت امرأة فى خبث:

- «ولماذا إذن لم تؤمنى بدعوته؟؟».

ارتج عليها، واضطربت حركاتها، وتلعثمت وهى تقول:

- «أنا؟؟ من أكون؟؟ امرأة فى قيود العبودية لا تملك شيئًا.. والناس يا أختاه على دين ملوكهم.. وإعجابى بمحمد لا يعنى إيمانى برسالته.. إننى أتكلم عن محمد الإنسان.. وحديث الجميع عنه لا يختلف عن حديثى.. ومع ذلك فإن أغلبهم لم يؤمن به.. محمد إنسان لا غبار عليه.. يقولون

شاعر والشعر شيء عظيم كما نعلم . . والحقيقة أن كلامه أحلى وأعظم من الشعر . . ويقولون ساحر . . ونحن لم نره يفعل شيئًا من هذا . . ويقولون كاهن . . لكن هناك فرقًا كبيراً بين كلماته وكلمات الكهان . . ألا تعتقدن ذلك؟؟

وأدركت «عبلة» أنها قد عادت مرة أخرى تتحدث عن محمد بطريقة مريبة، وأن كلماتها قد تثير حولها الريب والظنون في وقت كثر فيه الشبهات، وتزعزعت الثقة، وعم الفساد والاضطهاد وارتكبت الحماقات، ومن ثم استدركت قائلة :

- «ليكن محمد أي شيء، فلا دخل لنا بذلك، نحن لا في العير ولا في النفير . . مجرد إماء مستذلات لا حول لهن ولا قوة . . يأكلن ويشربن، ويقمن على خدمة السادة . . » .

همست إحداهن في حنق ظاهر :

- «ليت محمدًا يأتي، ويضرب ضربته، ويجعل عاليها سافلها، ويريق الدماء، ويمرغ الأنوف في الرغام، ويسوق أصحاب الحسب والنسب سبايا وأسارى . . فيستوى الجميع في هذه البلدة الظالم أهلها . . » .

ولم تستطع عبلة السكوت :

- «يا غبيات . . محمد ليس قاطع طريق، ولا ملكًا طامعًا يريد أن يستذل العباد، ويوسع رقعة مملكته . . » .

قالت إحداهن :

- «فماذا يكون إذن؟؟» .

قالت عبلة فى إيجاز :

- «نبى . . » .

- «ماذا تعنين؟؟» .

- «جاء يحمل لواء العدل والرحمة فى ظل التوحيد لله . . ورجل هذا شأنه لا يحيل العمران إلى خرائب ، ولا يجعل من الناس أسارى وسبايا . . إنه ينشد لهم الهداية ، ويرشدهم إلى حياة نظيفة عادلة سعيدة . . » .

قالت امرأة :

- «أو ليس غريبًا أن تسل السيوف فى وجه رجل هذا شأنه» .

قالت عبلة :

- «أو تظنين أن السادة يتنازلون عن امتيازاتهم ومصالحهم هكذا ببساطة؟؟ إنهم يعتبرونها حقوقًا يحافظون عليها ، ويضحون فى سبيلها . . ويعتبرونها مسألة كرامة أيضًا . . ومن العسير على سادة قريش أن يفرطوا فى حقوقهم وكرامتهم . . » .

- «معقول . . » .

وعادت عبلة تقول :

- «لقد عشت فى هذا البيت منذ خمس عشرة سنة . . أى منذ أن كنت طفلة . . وتابعت ظهور محمد بدعوته . . اعتبروه فى أول الأمر رجلا ذكيًا طامعًا . . سخروا منه فى البداية . . وعندما لمسوا أمارات الجد والإصرار فى قوله ، فكروا فيه جيداً . . فهالتهم النتائج المروعة التى قد تنجم إذا تبعه الناس . . فثاروا فى وجهه ، وحاربوه فى تلك الأيام أعنف حرب . . ونكلوا بأتباعه . . أنتم تعرفون ذلك . . وألجئوه إلى الهجرة التى كانت عليهم وبالاً . . وكانت بالنسبة له فاتحة خير . . ألا تذكرون ما حدث لقريش فى حرب «بدر»؟؟ من كان يتصور أن محمداً قادر على أن يجرعهم كأس الهزيمة ، ويقتص من انحرافاتهم ومظالمهم العديدة ، وتجنيهم عليه؟؟» .

قالت امرأة :

- «لكنهم ثأروا منه يوم «أحد» . . وقتلوا عمه حمزة . . » .

وعندما جاء ذكر حمزة ، انتفضت «عبلة» لكأنما لدغتها عقرب . . هذه الذكرى تؤرقها ، وتجلب عليها الألم والعناء ، أجل قتله «وحشى» الرجل الذى اختاره قلبها ، وأخلص له الود ، ليت شخصًا آخر غير وحشى فعلها ، بل ليت الجريمة لم

تحدث بالمرة . . إن وحشى يظهر فى خيالها وقد تلوثت يداه وحربته بدم الشهيد البطل . . المؤمن . . عم رسول الله . . لشد ما تألم محمد لمصرع حمزة ، وعبلة يؤلمها ما يؤلم رسول الله ، ويحزنها أن يلقى أمراً يؤذى شعوره ، ويجلب له الأسى والغيظ . . إن مأساة حمزة قد قضت على كل أمل فى أن يلتقى وحشى وعبلة لقاء الحبيبين مرةً أخرى .

ومالت نحوها إحدى الصاحبات :

- «فيم تفكرين يا أمة الله؟؟» .

فقالت عبلة :

- «أنا؟؟ لا شىء» .

ضجت زميلتها بالضحك ، لأنها كانت تعرف أن هناك علاقة ما بين عبلة ووحشى ، وأن هذه العلاقة يشوبها الحذر والخوف ، وقالت الزميلة :

- «إن قاتل حمزة بطل تعرفينه جيداً . . » .

قالت عبلة وقد ارتجفت شفتاها ، وساد وجهها شحوب ظاهر :

- «قتله غدراً . . وليس فى هذا بطولة . . » .

- «عجيب أمرك يا عبلة ! ! حسبتك سوف تفخرين بما فعله وحشى . . » .

- «القتل ليس مدعاة للفخر . . خاصة إذا كان غدراً وغيلة . . ».

- «الحرب هى الحرب يا عبلة . . سيان فيها أن تضرب غدراً أو صراحة . . والبارع من ينجو بنفسه، ويلحق الضرر بعدوه . . ».

- «ليست هذه أخلاق الرجال . . ».

مالت صديقتها نحوها وقالت فى خبث :

- «المهم أن وحشى نال الحرية والمجد والمال . . وهذا أعظم ما يحلم به رجل . . و . . تحلم به امرأة . . إنه قادر الآن على أن يشتريك بماله، ويجعل منك زوجة حرة . . لولا مقتل حمزة لما نعمتما بهذا الخير العميم . . مصائب قوم عند قوم فوائد . . أليس كذلك؟؟».

قالت عبلة فى ضيق :

- «أنتن تتوهمن أشياء ليس لها وجود . . من أرادت منكن الخلاص فلتذهب إليه . . أما أنا فلا أبغى الخلاص على يديه».

قالت زميلتها :

- «تحاولين أن تخدعينا . . ».

- «ورب البيت لا أكذب . . ».

- «أنت تبعدين الأنظار عن علاقات الود القديم . . وما يوم تخطيه لسور البيت ببعيد . . أتظنين أننا فى غفلة عما يجرى؟؟» .

قالت امرأة وهى تتثاءب وتغالب النوم :

- «الحقيقة أن وحشى نذل حقير . . ويوم أن يفكر فى الزواج فلن يتزوج واحدة منا . . سوف يبحث له عن امرأة ليس لها ماض فى العبودية . . إنه عربيد ماجن . . نجس . . ولطالما تعجبت لتلك العلاقة التى تتحدثن عنها بينه وبين «عبلة» . . » .

صاحت فتاة وهى تهز قبضتها فى تأكيد وعصبية :

- «إنها علاقة حقيقية . . أنا واثقة من كل كلمة أقولها . . » .

وقالت فتاة أخرى وهى تتمطى وتتنهد :

- «ما أروع التسلل فى المساء للقاء الحبيب ! ! !» .

وقالت ثالثة :

- «لقد قهر قلوبنا ، وسخر من كلمات الود التى كنا ننثرها أمامه ، واختارك أنت . . وأطلق عليك «عبلة» ومن يومها ولا يناديك أحد إلا به . . وهل ينسى أحد يوم أن ضبطكما سيدنا وأنتما تتحدثان فى هيام فشوى جلدكما بالسياط . . » .

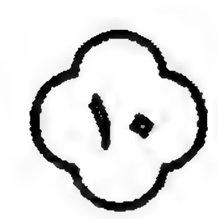
وشعرت عبلة بالحصار الذى ضربه حولها صديقاتها ، كما

وجدت أنه ليس فى الإمكان أن تنكر ما حدث، فرفعت رأسها متحدية وقالت فيما يشبه الاعتراف:

- «كل واحدة منا قد تكون فريسة للطيش والتضليل والخداع.. لكنى أقسم بكل مقدس.. أننى لا تربطنى به الآن أية صلة من الصلات التى تتوهمنها.. لقد أفقت من ضلالى.. ولكن أن تصدقن أو لا تصدقن..».

والحقيقة أن عبلة شعرت بسعادة بالغة وهى تنطق بهذه الكلمات، لقد كانت تقاسى الأمرين فى الأيام الفائتة، كانت تفكر فى وحشى، وفى علاقتها به، وكانت تأمل أن ينحاز إلى الإسلام سراً، وأن يحاول البدء فى حياة جديدة.. لكن مراقبتها لسلوكه، ومناقشاتها معه أثبت أنه أبعد ما يكون عن دعوة الله.. وأتيحت لها الفرصة أخيراً، فأعلنت رأيها دون مواربة، وهى تعلم أن هناك من ستتطوع بنقل كل شىء إلى وحشى تقربًا إليه، وطمعًا فى رضاه..».

●●●



وصمم وحشى على الذهاب مرة ثانية إلى «وصال»، كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى، لكن قوة خفية تدفعه لأن يمضى فى الطريق، أصبح كالمدمن للمخدر، وهو لا يجد فى نفسه أدنى رغبة لأن يقاوم، ولماذا يقاوم ويكابر وهو يشعر أن الرغبة تحرقه، وتؤرق عليه هدوءه، وهل فى الدنيا شىء ذو قيمة يستحق العناء بالنسبة لوحشى اليائس التعس؟؟ إن أبسط الأشياء لرجل نعم بالحرية بعد جهد جهيد أن يفعل ما يحلو له، خاصة إذا كانت أموراً لا تكبده مشاق كثيرة، ولا تعتبر من الخطورة بمكان، ووصال بيتها مفتوح، قلما تغلقه فى وجهه، وهى تعلم جيداً أنه سيعود، إنها خبيرة بأمور الرجل من أمثال وحشى، إنهم رواد شبه دائمين، يتعاطون الجرعات التى يتصورونها تسكن آلامهم، وتنسيهم أحزانهم، ها هو يعود إليها مثلما قالت لم يستطع أن يلبى نداء كبريائه ويقاطعها، وهو يدرك أنه قد رضى بالدون، وقدم بعض

التنازلات لكن لا بأس فإن لكل شيء ثمنًا . . هو يعطيها شيئًا من ماله وكبريائه وسمعته، وهي تعطيه التسكين والنسيان وقدرًا من السلام . . ما دامت عبلة قد قصمت ظهر علاقتهما، ولم تدعه يستمتع بمذاق الحرية الوليدة . . الحياة عنيدة . . تعطي أملاً، وتسلب هناء . . لكأنما تحرص الحياة على شيء من التوازن السمج الذي يؤرق الإنسان، ويجعله يقاسي الحسرة والنقص والألم، وأنا في هذه الأيام لا أطيق الصبر، إنني أكرهه وأتبرم به، الصبر دواء أرفضه . . أرفضه بشدة، إنه قيمة تافهة خلقها الضعفاء لتستر ضعفهم، وتخفف من حدة آلامهم . . الصبر انتظار حتى تعمل الحياة عملها، أو يعمل الفرد عمله لتحقيق ما يريد؟؟ لكن وأسفاه . . إنه يكاد يقتل وحشي، ويملأ نفسه بالضيق والحنق والتمرد . .

وبلغ بيت وصال، لماذا يأتي إليها بهذه اللهفة العارمة؟؟ أهو يحبها؟ هذا شيء مضحك ومدعاة للسخرية، إنها ملك الجميع، وتبيع بضاعتها لمن يريد، والأهم من هذا كله أنه يحب عبلة، أيمكن أن يجمع حب النقيضين في قلبه الواحد؟؟ لقد أصبح وحشي في دوامة لا يكاد يعرف في جيشانها الحق من الصواب، أو الصادق من الكاذب، ولماذا يزعج نفسه بهذه المشاكل؟؟

واستقبلته كالزهرة الجذابة التي انتابها شيء من الذبول، ورنت على ثغرها ابتسامة مغرية، وهي تقول:

- «وأخيرًا أتيت.. كنت أعرف ذلك..».

قال وهو يسدد إليها نظرات فاحصة:

- «أتسخرين أم تعتبين؟؟».

- «دائمًا تحاول الوصول إلى كنه الأشياء..».

- «الفضول يؤرقني يا وصال..».

- «خذ الحياة على علاتها..».

- «كيف؟؟».

- «واستمتع بما يقع تحت يديك وكفى، إن كثرة البحث والتفكير تفقدك المتعة واللذة..».

قال في حسرة:

- «لكن الله خلقني على الصورة التي ترين، وزرع في قلبي وعقلي التساؤل الملح.. ما ذنبي؟؟».

- «إذن فلا تقس الأمور بالمقاييس المثالية.. الواقع يفرض نفسه، ويحتقر المثاليات..».

قال معاتبًا:

- «وهل من المعـقـول أن تطردينى من أجل ذلك القـرشى المتـصابى؟؟ إننى لا أتصـور كيف تشـمين أنفاسه، وترضـين بدعاباته الثقيلة، وهذره السمج . . ».

قالت وفى نبراتها رنة حزن واضحة :

- «هذه صناعـتى . . ألم أقل لك إننى أستـقبل المرضى من كل لون وجنس؟؟ إن أسـوأ حالات المرض وأبشعهـا هى التى يستقبلها الطبيب المداوى . . ».

قال ساخرًا :

- «أما زلت تصرين على الكلام عن الفضيلة؟؟».

- «وحشى . . أنت تعلم . . أننى أحاول جاهدة أن أرضى بالمقسوم، وأن أبحث عن المبررات التى تكيف أمنياتى الحلوة مع الواقع الأليم . . والحقيقة أننى بمرور الوقت أصبحت أعتقد أننى أؤدى وظيفة إنسانية . . ».

قهـقه وحشى حتى كاد يستلقى على ظهره من الضـحك وقال :

- «الدعارة وظيفة إنسانية!! أليس هذا عـجيبًا . . آه . . لو حكم محمد مكة لجلدك ألف ألف جلدة . . ».

وذهل وحشى حينما سمعها تقول :

- «لو حكم محمد لما ارتكبت ما يستوجب الجلد . . ».

وانتفض قائلا :

- «كيف؟؟».

- «هذا سؤال عسير . . لكن الذى أعرفه أن محمداً لا تفوته شاردة ولا واردة، وأنه لا يظلم أحداً . . إنه يهب الأمن، ويكفل الرزق، ويحمى الضعيف، ويشكم القوى، ولا يجعل من الأحساب والأنساب أساس المفاضلة بين البشر . . ».

قال وحشى فى شرود :

- «أتعتقدين ذلك؟؟».

- «هذا ما سمعته عنه يا وحشى . . والمؤمنون به فى المدينة يعيشون فى ظل هذه المعانى . . أو يحلم الإنسان بأكثر من ذلك؟؟».

تجهم وجه وحشى وقال :

- «ماذا تعرفين عن الله يا وصال؟؟».

- «أنا لا أعرف عنه الكثير . . ولكنى أعرف أنه لا يرضى الظلم والاستغلال والتفرقة فى المعاملة بين الناس بسبب الأحساب والأنساب أو الجنس أو اللون . . ».

قال وحشى :

- «ولماذا لا تؤمنين بمحمد إذن؟؟».

- «لا أدرى . . ».

- «أنت تهربين . . ».

قالت وهى تهز كتفيها فى حيرة :

- «ربما لأنى لا أجسر على مجابهة المتاعب، أو ذلك الجبن الموروث فى إطار حياتى القاسية . . أو لعلى أنتظر اللحظة الحاسمة . . ».

قال وحشى :

- «لو علم الذين يدخلون بيتك بهذا لأحرقوك بالنار . . ».

- «لا أعتقد ذلك . . إنهم دائمًا لا يأخذون كلامى مأخذ الجد، إننى أداة تسلية وترفيه فى نظرهم . . بل أعتقد لو حدث ذلك لاتخذوه ذريعة للهزء منى ومن محمد . . إن البغى الساقطة التى تؤمن بمحمد لا يمكن أن يقلدها رجل كأبى سفيان مثلاً . . ».

وصمتت برهة ثم استطردت تقول :

- «ومع ذلك فإن هذه قضية لا تشغلنى كثيرًا الآن، ولا آخذها مأخذ الجد . . لندع محمدًا وشأنه . . ولندع الحرب تحتدم بينه وبين أعدائه، وعندما ينجلى غبار المعركة، فلسوف

نصفق ونزغرد للمنتصر أيًا كان، وسنفرش طريقه بالرياحين..».

قال وحشى محتدًا:

- «ليس هذا شأن كرام الناس..».

ضحكت فى مرارة وقالت:

- «لست من كرام الناس على أية حال..».

وابتلعت ريقها، ومضت تقول:

- «ولا أعرف كيف أحمل السيف، ولا أجرؤ على رفع عقيرتى بما أعتقده.. لو كان لدىّ الشجاعة الكافية لهتفت بآلاف البشر فى مكة أن يجعلوا عاليها سافلها..».

قال وحشى ساخرًا...

- «أما أنا فأرفض هذا المنطق..».

قالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة خفية:

- «فماذا فعلت إزاء عجزك أمام عبلة؟؟».

تغيرت سحنته، ولمعت عيناه ببريق الحقد، وقال:

- «هذه قضية لا يفصل فيها السيف..».

قالت بهدوء:

- «لكن يفصل فيها المال . . » .

- «المال؟؟» .

- «أجل يا وحشى . . هل غاب عنك ذلك؟» .

- «كيف؟؟» .

- «تشتريها من سيدها . . » .

- «وهل يقبل؟؟» .

- «ولم لا؟؟ إنها مجرد بضاعة لو قدمت له الثمن المغرى فلن يضن عليك بها . . وجبير حسبما أعتقد لن يردك خائبًا . . ألم تقتل حمزة وتثأر لدم عمه؟؟ ألم تعمل فى خدمته فترة ليست بالقصيرة؟؟» .

فكر وحشى بضع لحظات . . إنه حل رائع ألهمه الله هذه البغى الفاضلة، ماذا كنت أنتظر؟؟ هل كنت أتوقع أن تأتى عبلة راكعة، لتقدم فروض الطاعة والولاء من تلقاء نفسها؟؟

هب وحشى واقفًا. فقالت وصال:

- «إلى أين؟؟» .

- «إلى جبير . . » .

أمسكت بطرف ثيابه قائلة :

- «ليس الآن . . ألا تستطيع الصبر؟؟» .

- «الصبر حجة العاجزين . . » .

- «يجب أن تفكر فى الأمر مليًا، وترسم الخطة الناجحة . . ثم إننى أريدك أن تبقى معى بعض الوقت . . أهكذا تغفلنى بسرعة؟؟ ذلك شأن المريض دائمًا مع طبيبه، فإذا مازال الشفاء تركه دون كلمة شكر أو وداع . . » .

نظر وحشى إليها، وجد على وجهها مسحة حزن لا تريم، وقرأ فى عينيها ضراعة يائسة، وجاءه صوتها الخفيض: - «إننى وحيدة . . تعسة . . » .

قال فى دهشة:

- «إن بيتك لا يكاد يخلو من الزائرين . . » .

- «قلت لك . . إنهم مرضى . . أو عملاء يبيعون ويشترون» .

أدار إليها ظهره وقال فى أسى:

- «لقد طردتنى من بيتك . . » .

- «لم أقصد ذلك . . . أنت تعرف الحقيقة . . » .

- «ولو جاء واحد من السادة الآن لتكررت المأساة . . » .

- «إننى أعتذر إليك . . ليس لى حرية التصرف . . » .

وشعر وحشى أن رابطة من نوع غريب تربط بينه وبين هذه المومس:

- «حسنًا.. لسوف أبقى معك يا وصال بعض الوقت... إن هذا يسعدنى..».

وأشرقت ابتسامة عريضة على ثغرها أضاءت وجهها كله وقالت:

- «أنت الوحيد الذى يعرف كيف يجاذبنى أطراف الحديث، إن شراسة طبعك، وحدة أخلاقك، وعنف سخطك تبدو كلها دون تكلف.. إنك أثير إلى قلبى على الرغم مما يشوبك من انحراف».

نظر إليها فى رقة وقال:

- «إننى أحبك يا وصال..».

- «هذا ليس حبًا.. إنه ألفة من نوع غريب بعض الشىء».

- «أنت تعرفين.. أننى لا أكذب..».

- «وعبلة؟؟».

قال فى حيرة:

- «تلك هى المشكلة التى لا أستطيع حل طلاسمها..».

قالت وهى تهم بالقيام:

- «حسنًا. . لا تشغل نفسك بأمرى. . إنه أتفه من التفاهة. .».

قال وحشى:

- «إلى أين؟؟».

- «عندى نوع خاص من الخمر المعتقة لا أقدمه إلا لخاصة الخاصة. .».

أحاديث حلوة تعيد إليه الثقة بنفسه، وتخفف الكثير من آلامه وأحزانه، إن وصال طبيبة ماهرة حقًا، لكنها لا تمارس طقوسها بالنسبة لوحشى بجمود، إن فى كلماتها نبرة حنان عميقة، وهى لا شك له فى قلبها عاطفة قوية ما أسعد وحشى بها، وارتياحه إليها. .

- «ولا تنسَ يا وحشى أن الخمر قد انخفضت أثمانها منذ أن أعلن محمد تحريمها على أصحابه. . إن سوق الخمر فى «يثرب» قد كسدت إلى حد بعيد، وهذا ما يزعج تجارها من اليهود وغيرهم. .».

ثم ضحكت ضحكتها المعهودة، التى توحى بالعبث وعدم الاكتراث، وكأنها تقهر كل المنغصات التى تنتصب لها كل ساعة، وهى تهم بارتكاب الخطايا. . وعادت ومعها الخمر والكئوس وهى تقول:

- «المومس ذات الضمير يا وحشى تتعذب كثيراً . . على الرغم من السنين التى مضت فى أوحال الرذيلة ، فإننى أقدم عليها وكأنها ترتكب لأول مرة فى حياتى . . أعرف أنك لا تصدقنى . . » .

قال دون اكتراث :

- «مكة غارقة فى الإثم من قمة رأسها لأخمص قدميها . . إنها بؤرة النفاق والكذب والحماقة فى أغلب منتدياتها ومسامرها» .

قالت :

- «إذن محمد صادق فيما يتحدث به عن جاهليتهم . . » .

أشاح بيده فى استنكار قائلا :

- «دعنى محمداً وشأنه . . إن مجرد ذكر اسمه يثير ثائرتى» .

قهقهت وصال فى توتر قائلة :

- «إنه لغريب حقًا . . أن نتحدث عن الفضيلة بين الكئوس والعربدة والمجون . . » .

ودق الباب . .

يا للكارثة ! ! وشحب وجه وحشى ، واختلجت شفتاه

وتسمرت يداه على الكأس وجمدت «وصال» وقد احتقن وجهها، وقال وحشى :

- «لقد حضر أحد السادة الكبار . . إذن ستتكرر المأساة . . » .

هبت وصال من مكانها، ونادت خادمتها الوحيدة، وقالت لها فى عبارة قاطعة :

- «اذهبى وقولى للطارق إننى لست هنا . . » .

وبعد لحظات سمعا صخبًا وضجيجًا، إن السيد الكبير يرفض الرجوع ويرغى ويزبد، ويقذف بالشتائم، ثم ساد الهدوء من جديد . . وعادت الخادم تقول :

- «لقد رحل بعد عناء، وبعد أن أفهمته أنك لست هنا وستعودين فى الصباح . . إن شتائمه مقذعة للغاية يا سيدتى . . » .

وأضاءت ملامح وصال بالسعادة وقالت :

- «هأنتذا ترى أننى انتقمت لكبريائك يا وحشى . . إن جيوبه مثقلة بالدنانير . . ليكن، المال ليس كل شىء . .

إننى قد عزمت على أن أقدم لك خمرى هذه الليلة . . ونفسى أيضًا دون مقابل . . . » .

طأطأ وحشى رأسه فى رضى وقال :

- «إننى أشعر الآن براحة كبرى . . » .

ومد يداً مرتجفة إلى الكأس الأولى وتناولها منها .

●●●

١١

تمتم وحشى :

- «أجل . . الطريق السوى قد فشل فى البلوغ بى إلى ما أريد، لقد سدت المنافذ فى وجهى، وطمست معالم الطريق أمامى، وأغلقت أبواب قلبها دونى . . هذا ما فعلته عبلة، وأنا لن أرضخ للهزيمة، وأرتضى العجز، إننى أقوى من إسلامها ومبادئها، وستظل هى دائمًا فى المكان الأدنى، وستظل لى اليد العليا عليها . . فأنا سيد وهى لم تزل أمة مملوكة لسيدها . . وماذا أفعل؟؟ ذكرتها بأيامنا الحلوة . . توسلت إليها بما بيننا من عهود . . قدمت قلبى قربانًا تحت قدميها وأنا القوى القادر . . حاولت الدخول إليها من أية ناحية فأبت وأصرت على العناد . . لاحقتها فى الطرقات . . بذلت لها كل ما أملك من مال ومجد كى تفعل بهما ما تشاء، لكنها احتقرت كبريائى وأفكارى واعتبرتنى بدون الإسلام حيوانًا . . أو أقل مرتبة من الحيوان . . أيتها الذليلة الحقيرة . . يا من يحبك قلبى برغم حقارتك وسوء

أدبك . . لسوف أعرف كيف أسوقك إلى بيتى سوقًا، وأجعلك تركعين . . ولسوف أمرغ شرفك وكبرياءك فى التراب . . وستعلمين عندئذ أننى أقوى منك ومن محمد بأفكارى وتدبيرى وإصرارى، إننى أعرف ما أريد، وأقصده لتوى دون إبطاء . . لسوف أذهب إلى جبير بن مطعم . . أنا أخذت بثأر عمه، وقتلت حمزة عم الرسول . . وسببت أذى كثيرًا وألمًا بالغًا بسبب ذلك لمحمد وصحبه . . جبير لا ينسى ذلك . . وكيف ينسى حديثًا مازال يتردد فى أرجاء مكة والمدينة ! ! وسأطلب من جبير أن يبيعنى «عبلة» سأشتريها بمالى . . عندئذ ينتهى كل شىء . . سأصبح سيدها الجديد . . العفاء على محمد ودينه . . وفى بيتى . . آه . . هى تعرف واجبات الإماء والعبيد . . وسأسخر منها عندما تقول لى سأعطيك جسدى، أما روحى فلا يملكها إلا خالقها . . أنا أعرفها . . لسوف تقول لى ذلك . . لا تهمنى روحها، لتذهب إلى الجحيم . . إننى أمسك بلحمها . . بجسدها . . أرى عينيها وأذنيها وأنفها الجميل . . وقوامها الرشيق . . كل هذا سيكون لى، وأنا لا أريد غير ذلك . . الجسد هو الحقيقة الكائنة التى أؤمن بها عند اللقاء . . » .

وأعد وحشى نفسه، وارتدى خير ملابسه، وأسرع بالذهاب إلى مولاه القديم، فوجده يجلس وحده وعلى وجهه سيما الانشغال والتفكير العميق . .

وما إن رآه جبير حتى انبسطت أساريره وقال :

- «تحوم حولنا يا وحشى . . وكأنك ضائق بالحرية . .» .

يبدو أن سيده يميل إلى المناقشة ، وأن لديه تقبلاً واضحًا لذلك ، فتشجع وحشى قائلاً :

- «سيدى . . إن الحرية أعظم نعمة فى الوجود . .» .

- «ولكنك تعس . .» .

- «هذا شىء آخر . .» .

وقهقه سيده قائلاً :

- «لكن محمدًا يرى أن الإسلام هو أعظم نعمة فى الوجود» .

- «له أن يقول ما يشاء . . لكن هناك كثيرًا من التعساء لا يذهب الدين بتعاستهم» .

- «ولا الحرية يا وحشى . .» .

- «أجل يا سيدى . . ولا الحرية . .» .

- «فكيف تكون السعادة إذن إذا لم تكن فى ظل الدين ، ولا فى ظل الحرية يا وحشى؟؟» .

قال وحشى :

- «السعادة فى أن تحقق ما تريد . . » .

- إذن فلن تكون هناك سعادة على وجه الأرض» .

- «لماذا يا سيدى؟؟» .

- «الإنسان ليس إلهًا، وهو لا يستطيع أن يحقق ما يريد» .

- «إن ما نريده أشياء فى طاقة الإنسان . . » .

- «ليس دائمًا يا وحشى . . . إن هناك أشياء تبدو صغيرة أعجز عن بلوغها . . خذ مثلاً : إننى أبحث دائمًا عن وجه الحق فى كل قضية فيصيبنى الدوار والقلق . . حسبته لدى محمد . . فإذا به . . أعنى رجاله يقتلون عمى، ويمرغون شرفنا فى الرغام، ومن ثم كرهته . . وحسبته هنا لدى أساطين مكة . . فوجدت الغموض أشد وأقسى . . ما معنى ذلك يا وحشى؟؟» .

- «معناه؟؟ . . لا أدرى . . » .

- «إن أيدى الشياطين قد أخفت وجه الحق . . » .

ضحك وحشى فى أدب، وقال :

- «لا دخل للشياطين فى أمر كهذا . . » .

- «ماذا إذن؟؟» .

قال وحشى فى قسوة :

- إن وجه الحق لا يبين إلا إذا هتكت السيوف الأستار التى تخفيه . . ».

- «السيوف؟؟».

- «أجل يا جبير بن مطعم . . القوة وحدها ينجلى عنها وجه الحق . . ».

قال جبير فى حزن :

- «وإلى أين تتجه السيوف يا وحشى؟».

قال وهو يلوح بقبضة يده :

- «فى كل اتجاه . . ».

- «هذا جنون . . ».

وأراد وحشى أن يضرب لسيده على الوتر الذى يطربه، فقال فى خبث :

- «إذا كان لا بد من تحديد، فلتتجه السيوف نحو ذلك الخطر الداهم فى «يثرب» إن القضاء على محمد قضاء على أكبر قسط من الفتن والبلبلة . . محمد هو الذى أثار العقول وحرك القضايا النائمة منذ زمن بعيد . . ومحمد -إن ترك وشأنه- فلسوف يملى إرادته على العرب جميعًا . . ».

هز جبير رأسه قائلاً :

- «أصبت أيها المتمرد . . هذا هو رأى حكماء اليهود وكبرائهم . . وأظنه رأى السادة من قريش . . لسوف نجمع العرب قاطبة تحت لواء واحد، وننقض عليه فى وكره، سنشن حربًا على محمد وصحبه تأكل الأخضر واليابس . . » .

واستطرد جبير وهو يجفف عرقه :

- «لعلنا بعد ذلك نعرف وجه الحق . . » .

- «هو ذلك يا سيدى . . » .

وصمت جبير برهة، ثم عاد يقول :

- «لكن أليس هناك طريق آخر غير طريق السيوف؟؟» .

- «أنت ترى . . محمد يقول لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه . . ومحمد يا سيدى يعنى ما يقول . . لم يعد هناك غير السيوف . . » .

وتمتم جبير :

- «السيوف قد تنصرنا وقد تخذلنا . . » .

- «لا يهم . . إنكم لستم أقل شأنًا ولا عزمًا من محمد . . وهو سيكافح حتى يظهره الله أو يهلك . . وأنتم يجب أن تكونوا كذلك . . » .

- «إذن . . فإلى المزيد من الدماء . . ومزيد من الثأر . . » .

- «هذا أمر أوجبته الضرورة . . » .

وسادت فترة صمت، كان كل منهما يفكر فى أمره، جبير يفكر فى أمر محمد والأحزاب التى اجتمعت لحربه، والمستقبل الذى ينتظر هذه المعركة، ووحشى يفكر فى أمر يخصه . . لا يهمه فى الحقيقة أن ينتصر محمد أو ينهزم، المهم أن ينال وحشى بغيته:

- «سيدى جئت إليك فى أمر مهم . . » .

- «ماذا؟؟» .

- «أنت تعلم أننى قمت على خدمتك السنين الطويلة . . » .

قال جبير مازحًا:

- «كنت مشاكسًا لا تستقيم إلا بالضرب . . » .

آلمته هذه العبارة، وهم أن ينفجر، لكن كيف؟؟ إنه أمام سيده القديم، وولى نعمته، ثم إنه قدم ينشد حاجة لديه، فما عليه إلا أن يعتصم بالصبر والمداراة حتى ينال ما يريد . .

- «لكنى كنت أخلص الرجال لديك . . » .

- «لم يكن هذا تفضلاً منك، لقد اشتريتك بمالى، وواجب عليك أن تقوم بما كنت آمرك به . . » .

ازداد الضيق بوحشي، لكنه أخفى انفعاله وراء ابتسامة صفراء خادعة:

- «سيدى . . إنك مازلت بى البر الرحيم . . » .

- «قل ما تريد دون مقدمات . . » .

هتف وحشى فى خجل:

- «عبلة . . » .

قال جبير فى دهشة:

- «من هذه؟ وما شأنها؟» .

- «أمة لديك . . أنت تعرفها، تلك الفتاة التى . . » .

- «أوه . . أذكرها . . » .

- «إننى أريدها لنفسى . . » .

قال جبير فى دهشة:

- «تريدها لنفسك!! إنها ملك يمينى . . » .

- «أريد أن أشتريها بمالى . . » .

- «أنت؟؟ أأصبح لك مال؟؟ ومن أخبرك أننى سأبيعها؟» .

- «إن قلبى متعلق بها، وأريد أن أتزوجها . . » .

قال جبير فى حدة: «سحقًا لك ولها.. وما شأنى بهذا؟؟ إنها فى خدمتى ولا أستغنى عنها، ولو دفعت ألف دينار.. إنك تسيء الأدب كثيراً يا وحشى.. ولولا نجاحك فى قتل حمزة لجعلت العبيد يقذفون بك إلى الخارج..».

قال وحشى مرتجفًا:

- «سيدى..».

قاطعه جبير فى حمق:

- «اذهب عنى، فما بى رغبة لسماع هذه الترهات..».

لشد ما تضايق جبير، هذا العبد الذليل، يأتى يناقشه مناقشة الند للند، ويشترى منه ويبيع، ويطلب الأمة الأثيرة لديه، المخلصة له فى عملها، العارفة بشئون خدمة سيدها، إن وحشى قد أصابه الغرور، ونسى آداب اللياقة، لقد أصبح من العسير إصلاحه إلا بالسوط.. لكن لا بأس من مسامحته هذه المرة، فإذا ما عاد لمثلها نال جزاءه الذى يستحق..

- «إننى أضرع إليك يا سيدى ضراعة العبد الذليل الذى تعلقت كل آماله بهمة سيده..».

واغرورقت عينا وحشى بالدموع، إن عليه أن يصبر، ويستمع لتقريع سيده فى برود.. فليس هنا من يشهد ذلته وضراعته، إنه يريد أن يمتلك تلك التى حطمت آماله،

وبددت أحلام حبه، يريد أن يمتلكها ليفعل بها ما يشاء ويسحق كبرياءها ويسخر من مبادئها وإسلامها. . إن ذلك سيبرد نار قلبه، ويطفئ لوعة فؤاده. . وسيشعرها أنه أقوى منها، وقادر على إرغامها، وإن الفرق شاسع بين ما يحظى به من حرية، وما ترزح هي تحته من عبء العبودية والعار. .

- «وحشي. . لا تدعني أثور في وجهك مرة أخرى. . أنت تعلم أني لا أكرهك. . لكن ليس معنى هذا أن تنتزع شيئًا مني يؤثر على راحتي ونظام حياتي. . إنني في حاجة إليها. . ولا تجعل لهفتك عليها تنسيك حق الآخرين فيها. . اذكر ذلك جيدًا. .».

امتقع وجه وحشي، ودارت برأسه الهواجس، وكاد ينفجر من شدة الغيظ. . العجز. . يا لها من مأساة. . ها هو يقف مقهورًا عاجزًا أمام رغبته. . فأين الطريق إلى السعادة إذن؟؟ الجميع يبحثون عن السعادة وليس فيهم من يساند أخاه، وينيله بعض ما يحقق له سعادته. . ولهذا ستظل السعادة أمنية معلقة بعيدة المنال. . إنها موجودة لكن أنانية الناس وجشعهم يجعلها صعبة التحقيق. . إذن فلتكن الطامة ولينطلق حقد وحشي المدمر، لا مكان للمثاليات في هذا الزمان. . فلتقل عبلة عنه غدار. . كاذب. . حقير. . إنه سينتقم لكبريائه من «عبلة» ومن جبير نفسه، ولن تستطيع أية قيمة من القيم الإنسانية، ولا

أى مبدأ من المبادئ فى الأرض أن يمنعه من أن ينفث حقده . . إن رفض سيده كالحكم عليه بالموت . . فلن يترك الدنيا والعمران . . ليتحطم كل شىء . . ولينتشر الألم والعذاب . . وليتعذب الناس ويتألموا مثله . .

قال وحشى وقد تفصد جبينه عرقًا :

- «سيدى . . إن هناك سراً أخفيه عنك . . » .

نظر إليه جبير فى اهتمام ، وقال بجد :

- «ما هو ؟ ؟» .

- «إن عبلة قد اعتنقت الإسلام ، وتبعت محمداً . . لقد صبأت يا سيدى وأنت لا تعلم . . » .

قال جبير وقد بان الضيق فى عينيه :

- «أواثق أنت من هذا القول ؟ ؟» .

- «لقد اعترفت لى بنفسها ، بل دعتنى إلى ذلك . . » .

- «متى ؟ ؟» .

- «منذ وقت ليس بالبعيد . . إنها أشد حماسًا من المخدوعين من أمثال بلال وغيره من العبيد المارقين . . » .

قال جبير فى حنق :

- «ولماذا لم تخبرنى فى حينه ؟ ؟» .

- «كنت أنتظر اللحظة المناسبة..».

- «ولهذا أتيت لتشتريها وتتزوجها..».

- «وكنت كفيلاً يا سيدى بردعها وردها إلى الصواب..».

وشرد جبير بضع لحظات، ثم افتر وجهه عن ابتسامة عريضة وقال:

- «إننى أعرف جيداً سلوكك يا وحشى.. لقد أردت الانتقام منها بعد أن عرفت أنها ليست لك.. لقد خبرتك عن كثب سنين طويلة.. إنك حقود، أسود الطوية لا مبدأ لك ولا أخلاق.. تكره الناس.. وتكره نفسك.. إنك تطعن الفتاة التى مال إليها قلبك.. ولو وافقتك وسلمتها إليك لكنت كمن يسلم إنسانة طيبة بريئة إلى سيف الجلاد..».

صاح وحشى:

- «سيدى.. أقسم لك إنى صادق فيما قلت..».

صرخ سيده:

- «أنت كاذب.. إننى أعرفك.. لا ترنى وجهك الأسود مرة أخرى.. أيها النذل الجبان.. ليس فى قلبك مثقال ذرة من حب لأحد..».

شعر وحشى بالعرق يبلل ثيابه، ودارت به الأرض، وجر حطامه جرًا وخرج إلى الشارع، ومشى كالمنوم.. لا يرى شيئًا فى خياله إلا وجه سيده الحانق القاسى، وصورة وجه «عبلة» وهى تنظر إليه فى سخرية وشماتة.. وكأنها الثمرة الشهية المحرمة..

ماذا جرى؟؟ كيف تفوه بهذه الكلمات؟؟ ولماذا فعل ذلك؟ إنه يعترف لأول مرة فى حياته أنه حقير تافه.. إن عبلة لم تكن تتصور أنه سيغدر بها برغم ما بينهما من خلافات.. الأقدار تصفعه فى قسوة، وتنتقم لها. وبدا له أن هناك فرقًا شاسعًا بينه وبينها.. إنها سماء وهو أرض موحلة.. وسيده أماط اللثام عن ذات نفسه الحاقدة الشريرة.. ما أقسى أن يصطدم وحشى بالحقيقة المرة، وأن تتجلى أمام عينيه دعارة خلقه!!

لماذا لم يثر الشك فى قلب سيده نحو عبلة؟؟ لماذا يصدقها ويكذبه؟؟ وتمتم وحشى وقلبه ينزف ألمًا وحزنًا وحنقًا أيضًا:

- «لسوف يتأكد له أننى لم أخدعه هذه المرة.. ومع ذلك فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئًا.. إننى أشعر، وسأظل أشعر أننى ارتكبت إثمًا وحماقة كبرى فى حق فتاتى النافرة... واكرباه يا وحشى!!».

●●●



قدم سهيل إلى وحشى الذى لم يكن يتوقع قدومه، كان وحشى يجلس وحده مستسلمًا للتفكير القاسى، لقد أساء إليه سيده القديم إساءة بالغة، والأدهى من ذلك أنه اكتشف -وإن لم يكن لأول مرة- أنه رغم حصوله على الحرية، وقتله لحمزة، وانتعاش حالته المالية، لم يزل الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى العبيد، إن وصمة العبودية لم تفارقه، لقد كان واهمًا حينما ظن أنه قد تحرر تمامًا. . . آمن الآن أنه لا يكفى أن يشعر بالحرية فى أعماق ذاته، وأن ينالها على أساس شرعى، ليس الاعتراف بحريته هو كل شىء، الأهم من ذلك هو معاملة الناس له كحر، وهذا هو الجانب المهم والشاق فى القضية الكبرى، كيف يرغم الناس على ذلك، وليس هذا فحسب بل إن وحشى يقوم من خطأ ليتردى فى خطأ آخر، أراد أن يعيد إليه حبيبته النافرة، ففشل، لم يترك الباب مفتوحًا لمحاولة أخرى، بل أساء إليها إساءة بالغة حينما وشى بها إلى

سيدها، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، إن جبير لم يصدقه في مزاعمه برغم صدق الوقائع، الجميع ينظرون إليه في شك، ويعاملونه باحتقار، ويعتبرونه عبدًا كاذبًا حاقدًا.. ماذا يفعل؟؟ أيحمل سيفه ويحارب الناس قاطبة من أجل تحقيق ذاته، وتأكيد حريته، آه.. لو لم يقتل حمزة ويرتكب هذا الفعل الذي أرث العداء بينه وبين محمد، لو لم يفعل ذلك.. لانتقم لنفسه، ولطعن قريشًا طعنة في الصميم وفارق أهلها ودينها ولحق بمحمد، لا لأنه يؤمن بمحمد بل ليغيظ قريش ويحارب قيمها وكبرياءها، ويسخر من غرورها.. إن وحشي يعتقد أن رجال محمد لا ينظرون إلى بلال أو سلمان أو صهيب الرومي نظرة أهل مكة إليه.. إنهم يعاملونه كإخوة. ربما ليغروا العبيد باعتناق الإسلام الانضواء تحت راية محمد، ووحشي يظن أن محمدًا يعرف كيف يجتذب إليه الفقراء والعبيد وعامة الناس، إنه يستطيع أن يستغل ما في حياتهم من ضيم وضياع ومظالم، ويستفيد من طاقات الثورة والتمرد في نفوسهم كي يضرب أصحاب العناد والسلطة والمال في مكة وغالبية الناس من الفقراء والضعفاء والعبيد.. لكن لمحمد ثأر لدى وحشي.. محمد بالتأكيد لن يعفو عني.. ألم يبك لمصرع حمزة؟؟ ألم يقل إنه لم يقف موقفًا أغيظ له من ذلك الموقف حينما وقف إلى جوار جثة عمه المشوهة؟؟ وهكذا أقف

أنا ممزقًا بين مكة التى تسىء إلى كبريائى وحريتى، وبين «يثرب» التى تعتبرنى مجرمًا يستحق إهدار دمه . . إننى أبحث عن الكسب وأناور . . . لا يهمنى أن أعتنق هذا الدين أو ذاك . . أريد أن أطبق مبادئى بأية طريقة مناسبة . . ».

وعندما قدم صديقه سهيل قال :

- «تجلس وحدك يا وحشى حاملاً هموم الدنيا فوق رأسك . . ».

قال وحشى :

- «حسبتك لن تأتى . . لقد أسأت إليك فى المرة السابقة . ».

- «أوتظننى يا وحشى قادرًا على أن أضحى بصداقتك من أجل زلة لسان فى لحظات الضيق . . ».

رفع وحشى إليه عينين شاكرتين وقال :

- «أنت إنسان نبيل . ».

- «لا عليك هذه مسألة هينة . . فلا تفكر فيها ثانية . . إننى لا أنسى أفضالك ومعونتك لى كلما قدمت إلى «مكة» فى رحلاتى التجارية . . إن سيدى التاجر الكبير الذى أعمل معه علمنى الكثير من شئون الحياة؟ علمنى أن أتغاضى عن هفوات

الأصدقاء، وألا أخسر رجلاً من أجل خطأ قد لا يقصده، وربما يكون قد تورط فيه . . التجارة مدرسة كبيرة يا وحشى . . إننى لم أقاسِ من مشكلة الحرية كثيراً لأن سيدى فى الطائف يعاملنى كابن يثق به ثقة كبيرة، ويسلم إلىَّ التجارة والمال، وأنا أحفظ ذلك كله وكأنه يخصنى . . قد تكون هذه حالة شاذة لكنى والحق أقول أشعر معه بقسط غير قليل من الاطمئنان والرعاية والأمن . . ».

قال وحشى فى حدة :

– «وأنا أكره السادة . . وأكره التجارة أيضًا . . ».

– «لماذا؟؟».

قال وحشى فى شرود :

– «الناس سواء فى المولد . . وفى الممات . . وخلال الرحلة التعسة بين المولد والموت . . رحلة العمر، يتميز الناس إلى سادة وعبيد، لماذا؟؟ لأسباب تافهة تتعلق بالأب . . أمور لا دخل للمولد فيها، هذه الظروف الخارجية الطارئة هى التى تخلق السادة والعبيد . . أشياء صنعها الإنسان الأحمق . . والحماقة كلها فى أولئك السادة . . لهذا أكرههم وأحتقرهم . . ».

هز سهيل رأسه قائلاً . .

- «ومحمد يقول يا وحشى: «الناس سواسية كأسنان المشط». . ويقول: «كلكم لآدم وآدم من تراب. . ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى. . إنك يا وحشى تقول شيئًا قريبًا من هذه الكلمات لكن بطريقة حادة ثائرة غير مهذبة. . ».

قال وحشى:

- «أيقول محمد ذلك حقًا؟؟».

- «بالتأكيد. . ».

- «هذه كلمات تقلب نظام الحياة. . ».

- «أيها المجنون. . لماذا إذن اندلعت الحرب؟؟ من أجل هذه الكلمات وغيرها. . ».

تنهد وحشى فى أسى وقال. .

- «لكنك لا تعانى شيئًا من مأساتى مع سيدك التاجر الطيب».

- «وهل أنسى أننى عبد؟؟».

- «صدقت. . ».

ثم عاد سهيل يقول:

- «ولم تكره التجارة؟؟ ألا تحب الكسب والمال؟؟».

- «التجارة مناط النفاق والكذب . . وأنا أكره النفاق والكذب . . أنتم تسمونه مهارة وحنكة . . وأنا أريد أن أسمى الأشياء بأسمائها . . يهمنى جوهر الأشياء لا مسمياتها . . » .

ورد عليه سهيل بكلمات كانت كالصفعة :

- «ولماذا قتلت أنت حمزة؟؟ أقتلته دفاعًا عن حق وعن مبدأ؟؟» .

تطاول وحشى بعنقه وقال :

- «ماذا تقول؟؟» .

- «أقول إن مصلحتك الشخصية جعلتك ترتكب ما هو أفظع من النفاق، وأخطر من الكذب . . . لقد قتلت إنسانًا . . » .

قال وحشى محاولاً الهروب :

- «هذه قضية أخرى ، الناس كانوا يسقطون بالعشرات» .

- «لم تجب عن سؤالى . . » .

عاد وحشى يقول فى إصرار :

- «كنت أريد حريتى بأى ثمن؟؟» .

- «بأى ثمن؟؟» .

- «أجل . . » .

- «ولو قتلت دون عقيدة كبرى؟؟» .

- «أجل . . » .

قال سهيل محتداً :

- «فلماذا تنكر على التجار قدراً من الذكاء والدهاء ، وتنقم على السادة حفاظهم على سلطاتهم ونفوذهم ومصالحهم؟؟» .

ارتج على وحشى فدمدم قائلاً :

- «أنت تعرف نذالتهم جميعًا ، وجرائمهم التى لا مبرر لها من ضمير . . » .

هتف سهيل :

- «أنت مثلهم إن لم تكن أقسى وأفظع . . » .

صرخ وحشى :

- «ماذا؟؟» .

- «إننى أقول الحق . . » .

ومسح سهيل بعض قطرات العرق التى تندى بها جبينه الأسمر وقال :

- «أنت لا تفكر إلا فى نفسك. ولهذا ستظل دائمًا فى عذاب لا ينتهى، ستشقى أبد الآبدين. . . إن علاقاتك الإنسانية مع البشر قد تقطعت، أنت تعيش فى عزلة من الظلام والحقد والأنانية. . لماذا أخدعك؟؟ هذا هو رأيى فيك. . أردت أن أقوله لك قبل أن أرحل. . قد لا نلتقى إلا بعد وقت طويل. . لهذا السبب فرّت منك عبلة، واحتقرك السادة فى مكة، وأهدر محمد دمك. . وهأنتذا تعانى تعاسة قاسية برغم الحرية والمال. . وبرغم المتعة التى تشتريها من المومسات. وكئوس الخمر التى تترعها كل مساء. . ».

زحف وحشى على ركبتيه، وأمسك بكتفى «سهيل» وتمتم وفى عينيه دموع تلمع:

- «سهيل. . أنت صادق فيما تقول. . خبرنى ماذا أفعل؟؟ إننى كالغريق. . أتخبط فى محيط لا شطآن له. . أبحث عن مرفأ أمان. . إننى مخلص فى طلب الأمان والسعادة. . ماذا أفعل يا سهيل؟؟».

ضمه سهيل إلى صدره فى حنان، وقال فى رنة إخلاص واضحة:

- «معذرة يا وحشى. . لقد كانت كلماتى قاسية. . مجردة من المجاملة والرقة. . ».

- «إننى سعيد بها أشد السعادة . . هذا ما حدث فعلاً منى . . غدرت بحبيبتى . . وشيت بها لدى سيدها وهى التى ائتمنتنى على سرها المصون . . نظرت إليها من عل حينما رأيت نفسى حراً وهى لم تزل أمة ذليلة . . أشعرتها بنقصها وتميزى . . تمثلت الحقارة والنذالة والكبرياء التى تحرك سلوك السادة . . لقد مُسخت فأصبحت بؤرة لخطاياهم ومفاسدهم . . أصبحت سيداً بكل ما يحمله السيد من رذائل . . أعيب عليهم ، وألتذ بالتشبه بهم ، وأنا الذى أحنق عليهم . . وأحارب دولتهم الباطلة التى ينخر فيها السوس . . » .

قال سهيل فى ارتياح :

- «هذه بداية طيبة . . إن اعترافك بالحق هو باب النجاة أو مرفأ الأمن كما تسميه يا وحشى . . » .

- «لكنك لم تخبرنى ماذا أفعل؟؟» .

- «أن تولد من جديد . . . » .

- «كيف يا سهيل؟؟ الإنسان لا يولد إلا مرة واحدة . . » .

ابتسم سهيل وأردف :

- «اهجر هذه الأرض الذليلة الطافحة بالفساد . . واهجر ماضيك الأسود . . » .

- «كيف؟؟».

- «وسر إلى «يثرب» مدينة الرسول..».

قهقه فى توتر:

- «وأسلم رقبتى لرجال محمد؟؟».

- «وأعلن إسلامك..».

- «سيقتلوننى...».

- «لا يهم..».

- «إنك تمزح يا سهيل.. إن حياتى أثمن ما أملك، لا يمكن أن أفرط فيها بسهولة..».

- «لن يقتلوك..».

- «لن أفرط فى حياتى..».

- «قلت لن تصاب بأذى..».

- «وما هو الضمان؟؟».

- «إسلامك..».

- «أنا لا أثق فى أحد يا سهيل.. لسوف يظل الناس ينظرون إلىّ قائلين: هذا قاتل حمزة وسيظل محمد ينظر إلىّ نظرته إلى مجرم عتيد.. وستلاحقنى اللعنة أينما رحلت..».

رفع سهيل يده متسائلاً:

- «يجب أن تقرر أولا هل لاقت دعوة محمد فى نفسك قبولا . . ».

سادت فترة صمت، تجهم بعدها وجه وحشى، ولمعت فى عينيه هواجس الشر والحماقة، وصرخ فى عناد:

- «لا . . . ».

- «لماذا؟؟!».

- «لقد فقدت الثقة بكل شىء . . ثم إن قريشًا لن تترك محمدًا . . إنهم سيسيرون إليه فى جيش لجب يحطمون به ملكه، ويقضون على دينه، وأنا إن لحقت بمحمد، ونلت عفوه. فإما أن أسقط فى المعركة القادمة قتيلاً . . أو أساق أسيرًا، وأبدأ رحلة العذاب والعبودية من جديد . . ».

تمتم سهيل فى يأس:

- «لم تزل تتكلم بدافع المنفعة الشخصية . . إننى أعرض عليك قضية أخرى . . هى أن تؤمن أو لا تؤمن . . ».

- «إننى يا سهيل لا أستطيع أن أنزع نفسى من أية قضية عامة . . إننى أقيسها بما يتبعها من تكاليف تمس وجودى . . ».

قال سهيل وهو يهم بالقيام:

- «ليس لدىّ ما أضيعه . . الطرق أمامك، ولك أن تختار الطريق الذى تسير فيه . . إنها مسئوليتك . . » .

ودار وحشى بنظراته الحائرة فى جنبات البيت، ثم التفت إلى سهيل فجأة وقال له فى دهشة ظاهرة :

- «ولماذا لم تؤمن أنت الآخر؟؟؟ ألأن سيدك يعاملك فى رفق، ويغدق عليك ماله وبره، ويهبك ثقة لا حدود لها؟؟؟» .

أشرقت ملامح سهيل بالأمل، وأومضت السعادة فى عينيه الواسعتين، وقال فى رضى وهدوء غريبين :

- «لقد شهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله . . لكن . . » .

- «لكن ماذا؟؟ أتعلق إيمانك بشىء ما؟؟» .

- «سيبقى إيمانى سراً . . إن بنى ثقيف مطبوعون على العناد، وأملى أن أؤدى دوراً بينهم لعل الله يهدى على يدىّ أحداً . . وسأعرض الأمر على الرسول، وما يشير به سأفعله دون تردد . . حتى ولو قال لى احمل سيفك واذهب وحارب الطائف وحدك يا سهيل . . » .

وبقى وحشى محملقًا فيه بضع لحظات وقال :

- «ماذا أسمع؟ إننى لا أصدق أذنى . . » .

قال سهيل ملوحًا بسبابته :

- «حذار أن تشي بي كما فعلت «بعبلة» . . » .

دفعه وحشى بكلتا يديه ، وأخذ يصرخ فى جنون :

- «إليك عنى . . اخــرج من بيــتى . . لا أريد أن أرى أحدًا . . أنتم تزيدون من كربى وعذابى . . » .

قال سهيل وهو يبستم فى وداعة :

- «إننى ذاهب ، ولن أنقم عليك تصـرفك . . إنك جـدير بالعطف والرثاء . . أنا لا أزيد من كـربك وعـذابك . . أنت الذى تجلب الشقاء لنفسك . . » .

وانصرف سـهيل ، بينمـا بقى وحـشى وحـده ، وقف وقـد تدلت ذراعاه ، واتجه بصره الزائغ نحو السقف مسمرًا كالأبله ، ثم أجهش بالبكاء وارتمى على الأرض ينتحب كثكلى فقدت وحيدها . . » .

●●●



زيارة غريبة لم يكن وحشى يتوقعها، لقد دأب فى الأيام الأخيرة على لزوم بيته، لا أنيس له سوى كأسه، أصبحت الخمر من ألزم لوازمه، الخمر والحربة أعظم صديقين له فى الوجود. . والثالثة هى وصال التى يتردد عليها من آن لآخر، ليمزج أساه بأساها، ويبادلها الأحاديث المختلفة. . وفى أثناء تواجده بالبيت طرق الباب وافد غريب لا معرفة لوحشى به من قبل، وقال الوافد الجديد:

- «أنت لا تعرفنى. . ومع ذلك، فهل تسمح لى بالدخول؟».

رماه وحشى بنظرات متسائلة وهو يقول:

- «على الرحب والسعة».

- «جئتك من يثرب. . الطريق شاق، وناقتى أرهقها المسير. . إلىَّ بقليل من الماء والزاد. .».

وأحضر له وحشى على الفور ما طلبه، وجلس قبالته يتفحصه وهو يجرع الماء ويلتهم الطعام، ثم يتجشأ، وتمتم الضيف.

- «تتساءل من أنا؟؟».

- «هذا أفضل وإن كان لن يؤثر فى حسن اهتمامى بك كضيف عزيز».

- «أعرف قدرك يا وحشى . . إن ذكرك قد طبق الآفاق، الركبان يتحدثون به فى كل مكان . . ».

وخفق قلب وحشى، الحقيقة أن الخوف بدأ يتسرب إلى قلبه، هذا الرجل المريب قد يكون رجلاً من رجال محمد، جاء لينفذ فيه حكم الموت، ومحمد لن ينسى دم عمه، والبطش بالمجرمين يدخل الرعب فى قلوب المتنمرين لارتكاب الجرائم، ألم ينتقم محمد من «شاعر اليهود كعب ابن الأشرف»؟؟ وأدرك الرجل ما انتاب وحشى من ارتباك، فاستطرد يقول:

- «أجل . . إنك قتلت حمزة، فشفيت الصدور، وانتقمت للضحايا المساكين، لو فعل عشرة رجال مثلما فعلت وقتل كل واحد منهم رجلاً من رجال محمد المرموقين لوفروا الكثير من المعارك والدم والمال . . ».

وجم وحشى، يبدو أن ظنه صحيح، هذه بداية الخديعة لكن الضيف لا يحمل سيفًا، ولا يستل خنجراً، ويأتى فى ضوء النهار لا تحت جنح الظلام، ويطلب الطعام والماء، ويجلس فى هدوء غريب.. أتراه يمعن فى إخفاء نواياه حتى يضرب الضربة القاضية؟ وأدرك الرجل ما يعانيه وحشى من شك، فقال:

- «نحن نعرف كل شىء عنك، ونريد أن نساعدك..».

هتف وحشى فى ضيق يحاول إخفاءه:

- «من أنتم؟؟ من أنت؟؟».

- «أو تشك فى أمرى؟؟».

- «الجهل يؤدى إلى سوء الفهم..».

قال الرجل الغريب:

- «نحن إخوة.. جمعنا هدف واحد.. إخوة برغم تنائى الديار، وإن كنت لا تعرفنا فنحن نعرفك جيداً. نحن نعرف أولئك الذين يضمر محمد الحقد لهم، ويحاول القضاء عليهم، أو يهدر دمهم، ومحمد أيها الصديق يعرف كيف يدبر أموره، ويوحد جنوده، ويضرب ضربته فى الوقت المناسب.. أما نحن وأنت وأولئك الذين يقفون فى وجه محمد فإن

الحكمة تنقصهم. . أتسألنى من أنا؟؟ أنا ضحية من ضحايا «بنى النضير» الذين أجلاهم محمد عن ديارهم، وشتت شملهم بغير سبب مقنع. . ».

هتف وحشى فى دهشة:

- «يهودى؟؟».

- «أجل. . ».

وصمت اليهودى برهة ثم استطرد:

- «وأمّرناه على المدينة. . وسالمناه حتى تمكن منا، ثم أذاقنا الذل والهوان، زاعمًا أننا تآمرنا عليه لقتله، وأفشينا سره لعدوه، وحرضنا عليه العرب. . ».

قال وحشى:

- «أو تنكرون ذلك؟؟».

ضحك اليهودى ضحكة شيطانية، ثم قال:

«فعلناه فى الخفاء. . أتظننا نترك محمداً ليفرض سلطانه على العرب، ويملى إرادته على هذه الرقعة الشاسعة من الأرض ويحطم نظامها؟؟ وهل سيترك لكم أو لنا مكاسبنا وحريتنا. . ».

قال وحشى فى هدوء:

- «ليس لدىَّ ما أخاف عليه . . » .

ابتسم اليهودى فى مكر وقال :

- «كان ذلك قبل أن تقتل حمزة . . أما اليوم فإن دمه فى عنقك . . ثم إن لك من الحرية والمال والمجد ما تحرص عليه أشد الحرص . . ألا تخاف على حياتك مثلا؟؟» .

- «صدقت . . » .

وحك اليهودى أنفه ، ثم قال :

- «وتريد أن تتزوج . . وتنجب ذرية من الأحرار . . وتسعد بك وتسعد بها . . أليس كذلك يا وحشى؟؟؟» .

هز وحشى رأسه قائلاً :

- «صدقت . . إن محمداً لا بد أنه يفكر فى الانتقام منى» .

ورد اليهودى فى خبث :

- «وخير وسيلة للدفاع الهجوم . . » .

- «ماذا تعنى؟؟» .

قال اليهودى وهو يمط رقبته ، ويقرِّب وجهه من وحشى :

- «تقتله قبل أن يقتلك . . » .

- «كيف؟؟» .

- «تسدد إليه حربتك فى الخفاء، فيخر صريعًا كما خر عمه حمزة. . وسنكفل لك الأمن والسلامة، سنمدك بالرجال وندبر لك الأمر. . ».

قال وحشى وهو يبتسم فى مرارة:

- «ألهذا جئت؟؟».

فأخرج اليهودى كيسًا مملوءًا بدنانير ذهبية كثيرة العدد وقال:

- «وإليك ما يكفل لك الحياة الرغيدة طول العمر. . وهذا قليل من كثير».

قال وحشى والدنانير تبرق فى تحدٍّ وإثارة:

- «فإذا ما فشلت فقدت حياتى. . وذهبى وحريتى. . ومستقبلى كله. . .».

- «لن يحدث ذلك».

- «ألم يحدث ذلك لكم؟؟».

- «ويحك يا وحشى. . المستقبل لنا. . لقد خسرنا جولة أو جولات، والمعركة طويلة الأمد. . والنصر لنا مهما كانت خسائرنا. . لسوف نخرج لمحمد عن قريب فى جيش لم تسمع به العرب من قبل. .».

قال وحشى وهو يلهث:

- «لقد مللت هذه اللعبة..».

- «لم أكن أتصورك ضيق الآمال، قليل الطموح هكذا.. إن محمداً صبور دءوب لا يكل ولا يمل، ولا يستسلم لليأس..».

قال وحشى:

- «من بعثك إلىّ؟؟».

- «حييّ بن أخطب زعيم اليهود.. لقد استجاب له أبو سفيان، وهو الآن يحشد قبائل أسد وأشجع وفزارة وغطفان، وأنت لو استجبت لما أعرضه عليك، لكنت أفعل وأخطر من هذا الجيش بأسره..».

هبّ وحشى وصرخ محتداً:

- «ماذا تريدنى أن أفعل؟؟ فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم.. إننى لا أحب أحداً ولا أثق بأحد.. إن جبير بن مطعم رفض أن يبيعنى الجارية التى اختارها قلبى لأتزوجها.. ضن بها علىَّ، وأنا الذى ثأرت لدم عمه، وخلصتهم من عدو لدود. وعرضت نفسى لنقمة محمد.. لئن قتلت محمداً فلن يكسب غير السادة الأوباش.. السادة الذين أذلونى وعذبونى

واستغلونى، ثم ضنوا علىّ بفتاة لا تساوى أكثر من دنانير معدودة . . ».

قال اليهودى :

- «أو حدث هذا فعلاً؟؟ يا للكارثة؟؟ إن جبير قد ارتكب خطأ جسيمًا، وتصرف فى غير لباقة وأدب . . ».

قال وحشى وقد أشاح بوجهه بعيدًا :

- «تلك هى الحقيقة المرة . . لم يزالوا يعاملوننى كعبد، وينكرون علىّ حقى فى الحياة الحرة الشريفة . . إن محمدًا لا يفعل مثلما يفعلون . . ».

قال اليهودى فى صوت خفيض :

- «السادة هنا حمقى لا يدرون ما يفعلون . . ».

وأردف وحشى فى شماتة وسخرية :

- «والأنصار فى يثرب يعطفون على المهاجرين، ويتنازلون لهم عن زوجة من زوجاتهم، ويفسحون لهم فى دورهم، ويهبونهم المال والمتاع . . تلك هى الأخوة الصادقة . . أما هنا فى مكة . . فيزوقون لى المنى، ويعتقون رقبتى، ويرمون إلىّ ببعض المال . . ثم يسخرون منى . . يعاملوننى باحتقار . . يحرموننى من فتاة بخسة الثمن . . وبعد ذلك تأتى وتطلب منى قتل محمد . . وتمنينى مثلهم بالمال و . . ».

وقاطعه اليهودى قائلا :

- «لسنا مثل سادات مكة، نحن نعرف كيف نقدر الكفاءات. . والحقيقة -وإن كان هذا سراً- أننا نحتقر السادة عندكم لضيق أفقهم، وتعفن أفكارهم. . ». وابتلع اليهودى ريقه، ثم قال فى تأكيد :

- «لتأت إلينا، ولتختر لنفسك أجمل فتاة من يهود بنى قريظة أو يهود خيبر . . لسوف نزفها إليك زفافًا لم يسمع به العرب من قبل . . أنت بطل همام، وإذا لم تكلل البطولة الحقة بتحقيق رغباتها، فلا كانت الدنيا ولا كان النظام . . ».

امتعض وحشى وهمس :

- «هنا يحتقروننى فى العلن، أما أنتم فتستخفون احتقاركم لى . . لكنكم ستحتقروننى على أية حال، وعندما أؤدى مهمتى تلفظوننى كالطعام الفاسد، وتقذفون بى إلى الكلاب الضالة . . لم أعد أثق بأحد . . ».

قال اليهودى فى جد :

- «إننى على استعداد لأن أنفذ ما عرضته عليك . . وهذا أقوى دليل على صدقى . . ».

قال وحشى :

- «وأنا لا أريد غير عبلة».

وشرد وحشى وهو يقول:

- «إن عنادها جعلنى أشد تعلقًا بها، وتشبث سيدها بها قد ضاعف أشواقى إليها، وإساءتى إليها، قد مكنت من حبها فى قلبى أكثر من أى وقت مضى.. إن أمر الإنسان جد غريب أيها الضيف.. لاشك أن الدنيا مليئة بالحسناوات الطيبات.. أنا أعرف ذلك يقينًا، لكن ما حيلتى وأنا لا أحلم إلا بها، ولا أفكر إلا فيها؟؟».

وعاد وحشى إلى الجلوس وهو يقول:

- «خذ ذهبك عنى، لقد زهدت فى كل شىء.. لا قيمة للذهب والمال والمجد.. ولا حتى الحرية.. إذا تحطم قلب الإنسان، وسحقت أشواقه..».

تمتم اليهودى:

- «لم أكن أتصورك على هذه الحال، امرأة تفعل بك كل هذه الأفاعيل، وتغير من أخلاقك وسلوكك؟؟ إن الوهم يسيطر على عقلك.. أين وحشى القوى الصارم المتمرد على الوهن والضعف ومساوئ السادة؟؟».

وصمت اليهودى برهة، وأخذ يسدد إلى وحشى نظرات فاحصة ثم قال:

- «إننى على استعداد لأن أجعل «حيى بن أخطب زعيم اليهود» يتوسط لدى جبير كى يهبك فتاتك. . لكن. . ».

قال وحشى كطفل غرير:

- «لكن ماذا؟؟».

- «لكنك لم تعد تصلح لشىء. . إن الذين يلقون زمام أنفسهم للنساء لا يصلحون لشىء. . ».

وعاد اليهودى يقول:

- «إنكم يا أهل مكة ممزقون، لا تحاربون فى حماس. . أو غالبيتكم لا تأخذ الأمر مأخذ الجد. . إن الخطر يتهدد مصالحكم. . ».

وابتلع اليهودى ريقه واستطرد:

- «وماذا تكون النساء؟؟ إن أى طعام يسد جوعة الجائع، كذلك أية امرأة تطفىء ظمأ الجسد. . لا شىء غير ذلك. . ».

قال وحشى:

- «لقد كنت كذلك من قبل. . أو حسبتنى كذلك. . الجسد هو الحقيقة الملموسة التى أؤمن بها. . لكنى كنت أظهر خلاف ما أبطن. . ».

لوح اليهودى بيده محتجًا وقال:

- «ليس الأمر أمر امرأة. .».

- «ماذا تعنى؟؟».

هتف اليهودى:

- «مسألة كرامة. . أنت تريدها لتثبت لها أنك سيد، ولتوهم الناس أنك قادر على الحصول على ما تريد. . تريد أن تؤكد حريتك التى تشك فى حقيقة وجودها. .».

استبد الضيق بوحشى فقال:

- «أنا لا أرهق نفسى الآن بالبحث عن الأسباب، وتفسير السلوك، إننى أريدها. . هذا كل ما فى الأمر، والسادة يبشون فى وجهى، لكنهم يناصبوننى العداء. . لكأنهم يرفضون أن يتحرر عبد، ويصبح له مكانة تشبه مكانتهم فى بعض النواحى. . هؤلاء الحمقى تسيطر عليهم الأنانية والزيف والغرور ليسوا جديرين بأن يضحى الإنسان فى سبيل قضية لهم. . أو يحارب فى صفوفهم. .».

ثم أمسك وحشى بذراع اليهودى وجذبه إليه قائلا:

- «أو تظن أن محمداً كان سيعاملنى هذه المعاملة لو آمنت بدعوته ووجهت حربتى إلى صدر أبى سفيان أو جبير بدلاً من حمزة؟؟».

طأطأ اليهودى رأسه فى خجل وقال:

- «لا . . الحقيقة أن محمداً يعرف كيف يكافئ رجاله، ويعاملهم فى رقة، ويجذبهم إليه . .» .

قال وحشى :

- «ولهذا سوف يسحق محمد رءوس السادة فى مكة، ويدمر ملكهم . .» .

ابتسم اليهودى فى دهاء وقال :

- «ليس «المكيون» على هذه الصورة الصارخة من السوء، ليس هناك أحد مبرأ من العيوب . . سيان ذلك فى مكة أو يثرب . . ونحن نتفوق على محمد بالكثرة والعتاد والمال . . ألم ترَ ما حدث فى معركة «أحد»؟؟» .

تناول اليهودى جرعة ماء ثم قال :

- «يجب أن تفكر يا وحشى مليًا فيما عرضته عليك . . لو قتلت محمداً فلسوف تجلس على أعلى قمة فى أرض العرب . . ستسمو فوق السادة، وتنال كل ما تريد، واليهود لا يغدرون بأصدقائهم وزملاء كِفاحهم . . يجب أن تعى هذه الكلمات جيداً . . إننا برغم ما حاق بنا من نكبات نستطيع أن نرفع من نشاء ونخفض من نشاء . . . ونستطيع أن نحقق لك ما تريد ولو على أشلاء من يعترضك . . أتفهمنى؟؟ وأنت عندنا أشرف من ألف سيد . . إننى راحل الآن . .» .

أشار وحشى إلى الذهب المتكوم بسبابته اليمنى قائلاً :

- «خذه معك . . » .

- «سأتركه لديك أمانة . . إنه قد يساعدك على التفكير وحسم الأمور . . » .

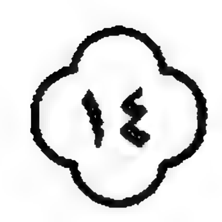
وقال اليهودى وهو يزمع الخروج :

- «هذا هو القوة المؤثرة فى الحياة . . الذهب هو الذى يحكم أتفهمنى؟؟ وهو الذى سيجلب لك الاعتراف بحقك فى الحرية والحياة الشريفة . . سيرغم السادة على احترامك . . » .

خرج اليهودى ، وعاد وحشى ينظر إلى كومة الدنانير ، وتحسسها بيد حانية ، ثم أخذ يعدها ويضعها فى الكيس ، وهو يقول :

- «غنيمة باردة . . ما أروعه ! ! » .

●●●



هرولت إحدى الإماء إلى «عبلة»، ونادت فى اضطراب:

- «عبلة.. عبلة.. مولاك يريدك على عجل..».

نهضت عبلة مسرعة وقالت:

- «خيراً.. ماذا يا ترى يريد؟؟؟».

قالت زميلاتها:

- «رأيته يا عبلة مكفهر الوجه، يلوح الغضب فى عينيه».

ساد الشحوب وجهها، ومضت إليه..

لم ينسَ «جبير بن مطعم» وشاية «وحشى»، وإن لم يصدقها، نفاها بشدة، بل استصغر شأن وحشى بقدر ما علا قدر «عبلة» فى نظره، لكن الشك أخذ يخالج جبير، ماذا لو كان وحشى صادقًا؟؟؟ إنها ستكون كارثة وعاراً.. سيضحك منه أشراف مكة، ويجعلون من الحادث مادة للسخرية

والتسلية، وهل فى بيته إنسان يجرؤ على مخالفته، وترك دينه واتباع دين محمد؟؟ إن فى ذلك تصغيراً لشأنه، بل تنكراً شنيعًا لدم عمه الذى أراقه حمزة فى بدر . . لا . . لا إن فتاة من فتياتى لا تجرؤ على ارتكاب هذه الحماقة الشائنة، ومع ذلك فلماذا لا يستدعى الفتاة، ويناقشها الأمر؟؟ إن ذلك لن يكلفه شيئًا، وفى الوقت نفسه سيجد الفرصة لإدانة وحشى والتنكيل به، ولهذا استدعى عبلة، التى أتت على عجل، وهى تدرك أن فى الأمر خطورة من نوع ما، وإلا لما استدعاها فى ذلك الوقت الذى لم يتعود استدعاءها فيه، ولما كان وجهه مكفهراً، وعيناه تعبران عن الغضب كما تزعم زميلاتها، إن عبلة كما تعتقد لم ترتكب خطأ فى حق سيدها، ولم تعص أمرًا، ترى هل وشت بها واشية من جراء علاقتها القديمة بوحشى؟؟ هذا الأمر ليس مستبعداً، واستراحت «عبلة» لهذا الخاطر، إنها قادرة على أن تدافع عن نفسها، وتبرئ ساحتها من أية تهمة بعد أن قطعت علاقتها بوحشى، وأصبحت تلك العلاقة فى ذمة الماضى . . لهذا أقبلت فى غير قليل من الهدوء، وقالت مطأطأة الرأس :

– «أمرك يا سيدى . . » .

قال جبير :

- «أنت من أحسن الفتيات هنا أدبًا وطاعة. . ».

- «هذا واجبى يا سيدى. . ».

- «وأنا لم أسئ إليك أو أقسو عليك. . ».

- «هذا تكرم منك وفضل لا أنكره. . ».

ثم قال بلهجة صارمة:

- «وأنا أكره النفاق. . ».

وران الصمت لحظات، لم تجب عبلة خلالها بكلمة واحدة، فانطلق سيدها يسألها:

- «هل تربطك بذلك المأفون الأحمق صلة؟؟».

- «من؟؟».

قال وهو يسدد إليها نظرات كالسهام:

- «وحشى بن حرب. . ».

ارتجف جسدها، ومع ذلك شعرت بفيض من الراحة يهطل على قلبها الواجف وتمتمت فى خشوع:

- «لقد جمعنا معًا شرف خدمتك. . وعندما رحل انتهى كل شىء. . لم أخطئ أو أخن. . وسأظل دائمًا عند حسن ظن مولاى. . ».

ثم استطردت فى ثقة :

- «إذا كان هذا الأمر يقلق سيدى ، فإنى أؤكد لك أننى أتعبد بخدمتك . . ليس تفضلاً منى وإنما هو واجبى نحو الرجل الذى اشترانى بماله ، وأحاطنى بحمايته وبره . . ولا يغدر بسيده إلا كل خائن خسيس . . » .

انفرجت أسارير وجهه ، وقال :

- «لقد زعم ذلك الأحمق «وحشى» أنك قد اتبعت محمداً . . » .

دارت بها الأرض ، لكأنما انقضت على رأسها صاعقة من السماء ، وهتفت فى وهن :

- «هل فعلها؟؟» .

قال سيدها دونما اكتراث يذكر :

- «أعرف أنه كاذب . . هذا ما قلته له ، إن أحقاده تعميه عن اتباع مواقع الصدق والإنصاف . . » .

قالت والدموع تهطل من عينيها :

- «إنى يا مولاى . . » .

قاطعها قائلاً :

- «كان يريد شراءك ليتزوجك. . هذا المجنون يحسب أنه بحفنة من المال استأجرناه بها يستطيع أن يقف فى مواجهة السادة موقف الند للند. . لو كان عنده ذرة من حياء، وومضة من فكر سليم لما تجرأ على ارتكاب تلك الحماقة. . ».

همست:

- «فى الحقيقة يا سيدى إننى أريد أن أقول؟!

لوح جبير بيده مقاطعًا:

- «لا تدافعى عن نفسك. . إن الأمر لا يحتاج إلى دفاع. . أنا أعلم الحقيقة قبل أن أستدعيك، وأعرف أنك بريئة، وما استدعيتك إلا لأبين لك حقارته ونذالته، فتكونى على علم بها، فإذا ما طاردك أو حاول الاتصال بك فما عليك إلا أن تخبرينى وأنا أعرف كيف أضع حداً لحماقاته وتجرئه عليك. . إن فتاة عاقلة مثلك لا يمكن أن تفكر فى أمور الدين وتعقيداتها، إن واجبك شىء غير هذا كله. . أعرف أن بعض الإماء والعبيد قد سحر محمد ألبابهم، ووضع فى عقولهم بذرة التمرد، واستغل نقاط الضعف فيهم. . وفتاة مثلك لا يمكن أن تسقط فى شباك دعاوى محمد، ولا يخلب لبها بريقه. . ثم أشار إليها أن تنصرف قائلاً:

- «تستطيعين الآن أن تعودى إلى عملك آمنة مطمئنة. . ».

لقد سد سيدها عليها الطريق، لم يعطها فرصة للاعتراف إنه يأبى أن يصدق الحقيقة، لأن ظنه يفرض عليه صورة معينة لفتياته، ولا يتصور أن واحدة منهن تجرؤ على التنكر له والمساس بكبريائه، وهمت عبلة بالانصراف، وخطت بضع خطوات، لكنها توقفت، وأدارت وجهها نحوه من جديد، ثم عادت إليه.

- «ماذا تريدين؟؟».

- «لم أتعود أن أخدعك أو أكذب عليك.. ولو كلفني ذلك حياتي..».

- «أعرف ذلك..».

ثم ازداد شحوب وجهها وارتجاف جسدها وهي تقول:

- «سيدي.. الحقيقة.. الحقيقة..».

- «ماذا؟؟».

- «لقد تابعت محمدًا على دينه..».

كارثة كبرى، لكأنما أطبقت الجبال على رأسه وسحقته سحقًا، إنه لا يصدق، هذا مجرد حلم، وكيف يصدق؟؟ أتجرؤ فتاة مشتراة أن ترفع رأسها في بيته وتزعم أنها اعتنقت دين محمد؟؟ ونظر إلى وجهها الشاحب، وجسدها المرتجف، ودموعها الغزيرة، وصرخ:

- «أنت تكذبين».

ثم نهض وجذبها من يدها، وقرب منها عينين يتقدان شرراً وهدراً:

- «تكلمي.. لاشك أنك تكذبين.. إن فتاة حقيرة مثلك لا يمكن أن تفرق بين حق وباطل.. مثلك ليس لديها الشجاعة لتختار..».

ثم دفعها إلى الوراء فى قسوة وقال:

- «إنه تطاول صارخ على مكانتى..».

- «مولاى.. يحزننى أن تجزع وتتألم.. إن لك كل ما للمالك على المملوك من حق.. لك دمى وجهدى، لكن الشيء الوحيد الذى لا يملكه إلا الله هو قلبى..».

زمجر فى حماقة:

- «أى إله ذلك الذى ينازعنى سلطانى فيما أملك؟؟».

قالت فى نبرات خاشعة:

- «حاش لله... إنه خالقك وخالقى.. وأنا لم أغدر أو أخن..».

- «أهنالك غدر وخيانة غير الذى صنعت؟؟».

- «ليس هناك إنســان يسـتطيع أن يرغـم الآخــرين على الإيمان أو الكفر، أو الحب أو الكره. . ».

لوح فى عنف:

- «أنا لا أطيق نقاشًا كهذا. . ».

وعاد يخاطب نفسه:

- «لشد ما قاسيت من هؤلاء الإماء والعبيد!! ماذا يقول الناس عنى، السيد المهاب، والنسابة الكبير، وأعنف خصوم محمد. . عصاه فتيانه وفتياته، واعتنقوا الإسلام. . يا للعار!! أأشوى أجسادهم بالسياط، هذا لا يفثأ غضبى. . أأسفك دمهم؟؟ إننى لا أبلغ بذلك ما أريد. . كيف يخضعون لذلك الرجل الذى يعيش فى يثرب، ويتبعون دعوته، ويعرضون أنفسهم للموت والعذاب، وهو بعيد عنهم؟؟ أنا هنا. . إلى جوارهم، لا يستطيعون الإفلات من رقابتى، ولا يعصون لى أمرًا. . ومع ذلك يجرؤون على اعتناق ما لا أعتقد. . إنهم يسخرون منى. . ».

- «كيف بلغتك كلمات محمد؟؟ ومتى وجدت الفرصة لدراستها وهضمها والاقتناع بها؟؟ أو تظنين أيتها الحشرة الدنيئة أنك أبعد نظرًا، وأثقب فكرًا منى أنا؟؟».

قالت والدموع تملأ عينيها:

- «سيدى. . الإيمان قضية أخرى تختلف عن عمق الفكر أو ضحالته. . والله يهدى من يشاء. .».

سخر فى مرارة:

- «وشاء الله أن تهتدى الأمة الذليلة الحقيرة، وأن يبقى جبير بن مطعم فى غيه وضلاله. . أيمكن أن يحدث ذلك؟؟».

- «إننى أصغر من أن أجيب عن هذا السؤال».

- «لماذا؟؟».

- «لأنه لا يخصنى يا مولاى. .».

- «فمن يجيب إذن؟؟ محمد؟؟».

- «إنه يوجه لصاحب الشأن. . لمن يملك الهداية والضلال».

انحنى واستقام فى حركات لا تتفق مع وقاره، ثم قال:

- «إذن فاسأليه أيتها الطاهرة المؤمنة لماذا كتب علىّ العصيان؟ إنك أقرب إليه منى. .».

- «طريق الله مفتوح لا يحتاج إلى وساطة أحد. .».

زم شفتيه، وقرب حاجبيه وهدر:

- «أتبشرين بدين محمد فى بيت جبير بن مطعم؟؟».

- «لم آنس لديك إلا كل نبل وكرم . . ولم أنتهك حرمة هذا البيت».

وفكر جبير، ماذا يفعل؟؟ إن ما حدث من عبلة طعنة نجلاء توجهها الأقدار إلى شرفه وكبريائه، نفس القصة القديمة، إنها تفعل ما فعله بلال وغيره من العبيد والإماء، أينكل بها، ويذيقها ألوان العذاب حتى ترجع عن غيها؟؟ إنها صغيرة السن والألم الشديد يعيدها إلى رشدها، ويجعلها تفيق من هوسها، لكن العناد والصبر والتضحية طبيعة هؤلاء المارقين والمارقات . . ».

أيقتلها ويواريها التراب دون أن يسمع بها أحد؟؟ إن هذا لن يشفى غليله، أو يبدد من نيران الغضب التى تشتعل فى قلبه . . أيجعلها عرضة للعذاب والألم الطويلين . . للموت البطىء حتى يحطم كبرياءها، ويزيد من إذلالها حتى ينفد صبرها، وتستسلم لليأس؟؟

والتفت إليها قائلاً:

- «والآن تستطيعين أن تذهبى من حيث جئت . . إننى آمرك ألا تخبرى أحدًا بشىء مما جرى الآن . . ». وانصرفت عبلة . .

جففت دموعها، ورفعت عينيها المحتنقتين إلى السماء شاكرة ضارعة، كانت تشعر بفيض من الراحة والرضى، برغم المستقبل الذى يكتنفه الغموض القاتل. . لكنها قد أدت واجبها. . وأطلقت كلمة الحق دون مواربة. . قد تدفع حياتها ثمنًا لذلك. . لكن الجميع سيعرفون الحقيقة، وقد يفتح ذلك الطريق أمام أعينهم، فيفرون إلى الله. . والأهم من ذلك أنها أرضت ضميرها، وأرضت ربها. . وأنها تتلذذ بما يجره عليها ذلك الإيمان من عناء. . .

وتمتمت: «لعنة الله عليك يا وحشى. . لم أكن أتصور أن تنحط لهذه الدرجة من النذالة والوحشية. . ».

وعندما عادت إلى مقرها فى البيت وسألتها زميلاتها عما جرى همست قائلة:

- «لا شيء. . كان سيدى يعتب على عدم دقتى فى إعداد الطعام. . ».

فى ناحية أخرى، كان جبير يروح ويجيء فى حجرته لا يقر له قرار، ثم أمسك بلحيته الكثة وهتف فجأة:

- «إيتونى بوحشى بن حرب الآن. . أريده على عجل. . ».

●●●



تمتم وحشى وهو يهرول: «إننى أشم رائحة الكوارث من بعيد، أنفى يلتقطها كأنف كلب مدرب، يدى لا تخطئ التصويب، وأنفى لا يخطئ فى حاسته الحادة».

ربما حسب وحشى فى بداية الأمر أن «جبيرًا» قد أرسل إليه ليعاقبه على كذبه وتجنيه، واتهامه لعبلة دون دليل، لكنه سرعان ما استبعد هذه الفكرة، كان تكذيب سيده له قد وقع فى حينه، ولا يستأهل الأمر إعادة تأنيب، أما وأن سيده قد استدعاه على عجل فلا شك أنه تبين الحقيقة، إن عبلة مجنونة إيمانها من نوع عميق لا يعبأ بالنتائج، وما أظن إلا أنها ألقت فى وجه سيدها بالحقيقة المرة التى كادت تضعفه، وجبير حاد الطبع، شامخ الكبرياء، يعتبر إيمانها اعتداء صارخًا على كرامته ومركزه الكبير بين سادات قريش..

وحينما دخل وحشى انحنى انحناءه خفيفة وتمتم:

- «خادمك الأمين تحت أمرك . . ».

تنهد جبير وقال :

- «اجلس يا وحشى . . ».

- «أأجلس يا سيدى؟؟» . ؟

- «أجل . . ».

لم يصدق وحشى أن جبيراً يدعوه للجلوس ، وما إن استقر فى مكانه حتى غمغم بصوت لا يسمعه جبير : «هذا دأبهم ، إذا كان لهم حاجة عندى فإنهم يعاملوننى باحترام ، ويغرقوننى بكرمهم الحاتمى . . أنا أعرف هؤلاء السادة . . ظاهرهم الكبرياء والتعفف ، وباطنهم يغص بالعفن والرذائل والحقارات . . نفس الصورة التى رأيت جبيراً عليها حينما طلب منى أن أقتل حمزة ، أنا أعرفه جيداً . . ترى ماذا يريد هذه المرة؟؟ هل سيستأجرنى لجريمة جديدة . . تالله لن أضحى بحياتى أو أعرضها للخطر مهما كان الثمن . . حتى ولو كان الثمن عبلة . . إن حياتى برغم تعاستها أثمن ما لدىَّ فى هذا الوجود . . » . وأفاق وحشى من هواجسه على صوت سيده :

- «الحقيقة أننى ظلمتك يا وحشى . . ».

- «أنت صاحب فضل يا سيدى . . وإكرامك لى يشملنى حتى آخر لحظة من لحظات عمرى . . لقد جدت علىّ بالحرية ولا يساوى الحرية شيء فى هذا الوجود . . ».

قال جبير :

- «أو تعتقد ذلك حقًا؟».

- «هذا أمر لا يختلف فيه اثنان يا واهب الحرية لعبدك التعس . . » أجل . . ليطأطئ وحشى رأسه وليتقرب إلى سيده بمعسول الكلام، وليرفع سيده إلى أوج السماء، ويجعل منه إنسانًا فوق البشر، إن وحشى لن يخسر شيئًا . . وسيده لن يرتفع مقامه قدر أنملة . . لكن وحشى سيكسب فى الحقيقة كثيراً، هذه الكلمات الضارعة لن تكلف وحشيًا شيئًا . . غير أنها ستفتح قلب جبير له . .

- «أحيانًا تبدو يا وحشى فى كامل عقلك، وتعبر عن أفكار عظيمة لا أراها إلا لدى حكماء هذا العصر . . ».

ابتسم وحشى فى خجل :

- «هذا كثير يا سيدى . . ما أنا إلا فتى طائش مسكين يخونه التوفيق فى التعبير فى أغلب الأحايين . . ».

- «كلما تواضعت يا وحشى . . زدت فى عينى رفعة . . ».

- «العبيد لا يرتفعون . . إنهم يولدون عبيداً ويموتون عبيداً . . ».

- «إلا أنت يا وحشى . . ».

- «وهل أنا إلا واحد منهم؟؟».

- «لست مثلهم، لقد نلت الحرية بعرق جبينك . . إن الأقدار تعدك لحياة أسعد وأشرف . . ».

ثم استدار إلى وحشى فجأة وقد تجهم وجهه وقال:

- «أتحب محمداً يا وحشى؟؟».

- «كيف يا سيدى؟؟ ولم قتلت عمه؟؟ إننى أكره فى حياتى اثنين لا ثالث لهما، الماضى الأسود، ومحمد بن عبدالله . . ».

ابتسم جبير وتمتم:

- «أيها الملعون . . إن صراحتك تطربنى فى بعض الأحيان».

- «لكن لِمَ هذا السؤال؟؟ إنك تعرف الإجابة عنه سلفًا».

قال جبير:

- «فى كل لحظة يجدّ جديد . . وموسى اليوم ينقلب إلى فرعون غداً . . ».

- «الثبات على الحق فضيلة . . ».

- «الكارثة أن كل واحد يزعم أنه على الحق . . ».

ثم صمت برهة وقال:

- «أتدرى لماذا استدعيتك؟؟».

- «يسعدنى أن تستدعينى أيًا كان السبب . . إن ثقتك فىَّ أمر أحرص عليه أشد الحرص، خسبت أن نيلى الحُرية، وجمعى لبعض المال سيجعلنى فى غنى عن الناس جميعًا . . كان هذا وهمًا يا سيدى . . إن الرجل الذى عشت معه تلك السنوات الطويلة، وأسبغ علىّ فضله . . سأظل أسير عطفه وعونه طول عمرى . . إنه أسار محبب إلى نفسى . . ».

وسر جبير لسماعه هذه الكلمات التى تسيل رقة وعذوبة، وتفيض بالعبودية والطاعة، أهذا هو المتمرد الذى كان يلعنه ويسخط عليه، ويريد أن يتخلص منه ولو بالعتق؟؟ ثم . . أهكذا تكون عبلة التى ترفق بها، وحرص عليها أشد الحرص؟؟ إن الأقدار تسخر منه، فتجعل من وحشى الآبق العنيد مطيعًا مستسلمًا، وتجعل من عبلة الوادعة المخلصة مباءة للخيانة والغدر واعتناق الأفكار الخطرة . . لقد كان جبير خاطئًا حينما انخدع بالمظاهر، ولكنه لن ييأس على ما فات، لم تزل فى العمر بقية، ولم يزل قادرًا على الانتقام من

كل إنسان يسيء إليه، أو ينال من كبريائه . . وقال جبير فجأة :

- «لقد أصبحت أوقن أن محمداً ساحر . . » .

- «ساحر؟؟» .

- «أجل . . إن أقوامًا يتبعونه وهم فى قمة الذكاء والحنكة، ثم أجد أيضًا آخرين يؤمنون به وهم عراة من كل موهبة وروية . إن اجتماع النقيضين لا يمكن تفسيره، إلا بأن الرجل ساحر . . » .

ابتسم وحشى ابتسامة ذات معنى وقال :

- «ولماذا بطل سحره يوم أحد؟؟» .

- «هذا ما يحيرنى . . الأنبياء لا يهزمون يا وحشى . . هل تتصور أن محمداً أخذ يتلو آيات من القرآن تصف ما جرى يوم أحد وكأنه أمر أراده الله ليأخذ منه المسلمون درسًا، وليجربوا التضحية والابتلاء، وليعلموا أن النصر غالى الثمن وأنه لا يعطى للمتهاونين أو الكسالى . . إن كل طعنة توجه إليه يداويها بروعة بيانه، فيصبح رجاله وهم أشد إيمانًا به، وتمسكًا بدعوته . . أليس هذا سحراً؟؟» .

- «ليس هناك سحر يا سيدى . . هناك السيف والمكيدة . . » .

وتجهم وجه جبير وشرد بصره، ثم تمتم :

- «وحشى . . دعنا من هذا الحديث المؤلم . . لقد فكرت فيما عرضته علىّ . . » .

- «أى عرض يا سيدى؟؟» .

- «ألم تطلب منى شراء عبلة؟؟» .

- «أوه يا سيدى . . لقد انصرفت عن هذا الأمر عندما تيقنت من إيثارك لها . . إن احتفاظك بها لا يؤلمنى . . لقد عتبت على نفسى أشد العتب . . فالنساء كثيرات يا سيدى . . » .

قال جبير فى صرامة :

- «لقد قررت بيعها لك» .

- «إنك توقعنى فى حرج . . » .

- «أنت جدير بكل تكريم . . لكن أتحبها حقًا؟؟» .

ضحك وحشى فى أدب :

- «أى حب يا سيدى تقصد؟؟ أتعتقد حقًا أن فتاك الذى تربى على يديك يمكن أن يسلم مصيره لامرأة؟؟» .

إن الإفراط فى حب النساء أمر يتنافى مع الرجولة الحقة فى نظرى . . » .

قال جبير:

- «فلماذا طلبتها بالذات؟؟».

- «هذه الداعرة تجيد معابثة الرجال.. إنها مجرد تسلية..».

- «أكانت كذلك حقًا؟!».

- «يؤسفني أن أعترف.. ربما يكون هذا تصرفًا غير لائق مني ومنها، لكن هذا ما حدث..».

زم شفتيه في ضيق، وقال:

- «بكم تشتريها؟؟».

- «مائة دينار..».

- «زد يا وحشي..».

- «مائة وعشرين..».

- «زد يا وحشي..».

- «بكم تريد يا سيدي..».

- «أريدها لك بمائتين..».

- «طوع أمرك يا سيدي..».

وجفف جبير قطرات عرق تصببت على جبينه، ثم قال وقد احتقن وجهه:

- «وحشى..».

- «مولاى..».

- «هى لك بلا ثمن على شرط..».

- «ما هو؟؟».

- «أن تحيل حياتها إلى جحيم.. ولتجعلها تتذوق مرارة الألم، والضياع والاحتقار.. ولتقاسى من الجوع والظمأ والسخرية التى ما بعدها سخرية.. ليتعذب جسدها وروحها حتى تتحطم.. وحذار أن تغافلك وتقتل نفسها..».

واستطرد جبير وهو يصر على أسنانه غيظًا:

- «أريد أن تطول حياتها ليطول عذابها..».

انحنى وحشى وتناول يد سيده، وقبلها فى خشوع وهو يتمتم:

- «السمع والطاعة يا مولاى.. وليأت سحر محمد لينقذها مما ستعانيه من ضياع وآلام.. ليس كلهن على غرار سمية وأشبه ببلال وياسر.. هؤلاء الذين تحملوا الألم العظيم..».

قال جبير:

- «لست أحمق حتى أرضى بعذاب كعذاب بلال وسمية وياسر.. إن ما أريده شيء آخر.. الخوف.. والجوع.. والعذاب.. والأيام الطويلة ستفعل فعلها.. ماذا فعلوا ببلال؟؟ وضعوا صخرة على صدره، وتركوه فى لهيب الشمس وجمعوا حوله الصبية.. وآلموه فترة قصيرة.. وماذا فعلوا بسمية قتلوها قتلاً شنيعًا؟؟ هذا هراء.. لو استطعنا أن نهز إيمان عبلة، ونعيدها إلى الطريق القويم فسيكون هذا شيئًا رائعًا ونصراً مؤزراً، أية حلاوة يتذوقها القاتل؟؟ لا يا وحشى.. أريد الاثنين معًا.. العذاب والفتنة، حتى تكفر بمحمد..».

وابتلع جبير ريقه وقال:

- «إن ما فعلته بحمزة عم الرسول أمر هين بالنسبة لما سيفعله فى عبلة.. أتفهمنى؟؟».

- «أفهم ذلك جيداً..».

وصاح جبير بصوت مبحوح:

- «أحضروا عبلة..».

وعندما قدمت شاحبة الوجه، قلقة النظرات قال جبير مشيراً إلى وحشى الذى جلس خافض الرأس:

- «هذا سيدك الجديد يا فتاة.. لقد اشتراك منى فاسمعى له وأطيعى..».

نظرت إلى وحشى الذى رشقها بنظرة شيطانية، ثم دارت بها الأرض، فلم تستطع ساقاها أن تحملاها فارتمت على الأرض متكومة وهى تشهق فى لوعة تمزق القلوب..

●●●



وضمهما أخيراً بيت واحد، أهو فى حلم أم فى يقظة؟؟
كيف يبدأ؟ وماذا يفعل؟؟ إنه ألعن موقف واجهه وحشى فى
حياته، اللحظة التى طالما انتظرها، تبدو وكأنها أشد ما تكون
تعاسة وحيرة، إنه لقاء من نوع شاذ غريب، أتت «عبلة» دون
كلمة ترحيب، وجلست دون أن تنطق ببنت شفة، عيناها
محتنقتان دون دموع، ووجهها شاحب ذابل، وهو يتشاغل
بأشياء تافهة، لا يستطيع أن يفتح فمه ويلقى كلمة واحدة،
وهى نهب للانتظار والقلق الرهيب.. وحانت منه التفاتة
فوجد شفتيها تتمتم، آه إنها تصلى لإلهها وتستنجد به،
ووحشى لمن يصلى ويضرع، إنه فى الحقيقة أشد كرباً وأسى
منها، من المفروض أن يملك زمام الموقف، ومال إلى رف
قريب، وفى خفة وسرعة لم تلحظهما عبلة، تجرع قدراً من
الخمر دفعة واحدة، إن الخمر ملجؤه ومآبه، قد تمده بشىء من
الشجاعة فيستطيع مجابهة الموقف الصعب.. ثم جرع جرعة

كبيرة أخرى، فقد تحل الخمرة عقدة لسانه، وتهبه قدراً من الوقاحة والصفاقة فينطلق بكلمات. . أى كلمات. .

وأخيراً قال وقد أعطاها ظهره:

- «لقد اشتريتك بمالى. . ».

ولما لم تجب، استطرد:

- «أنا أختلف عنه كثيراً. . ».

وظلت معتصمة بالصمت فقال:

- «لماذا لا تتكلمين؟؟».

قالت بصوت جريح:

- «وماذا أقول؟؟».

- «أى شىء. . قولى أى كلام. . ».

- «إن ما سأقوله قد لا يروق لك. . ».

استدار إليها قائلاً:

- «تكلمى. . ».

- «أنتما حيوانان مفترسان».

- «قد يكلفك ذلك حياتك. . ».

- «لقد استودعت الله نفسى منذ أن عرف جبير الحقيقة. .

لم أكن أتصور أن تفعل ذلك، لقد حاولت الحفاظ على حبنا فإذا بك تدمره إلى الأبد..».

قهقه دون وعى:

- «هذه كلمات بلهاء، لقد أصبحت لى على الرغم منك.. وهنا أستطيع أن أفعل بك ما أشاء.. عن أى حب تتكلمين؟؟».

رفعت رأسها فى تحدٍّ:

- «لن تستطيع..».

- «ها.. ها.. ها..».

- «لن تستطيع..».

اقترب منها ملوحًا بيده فى وجهها:

- «لقد اشتريتك بمالى..».

- «دون ذلك الموت..».

- «إن آخر ما أفكر فيه هو الموت.. بل لعلى لا أفكر فيه مطلقًا..».

وفكر أن يهجم عليها، ويطوقها بذراعيه، ويعتصرها اعتصارًا، ويمطر وجهها الذابل الشاحب، بقبلاته النهمة، لكنه لم يستطع. خيل إليه أن رماحًا مشرعة تحميها، وتسدد

حرابها إلى قلبه، داخله رعب بالغ، لم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة، وعيناها المحتقنتان تسدد إليه نظرات مخيفة، وخفق قلبه بشدة، وقال فى ضراعة:

- «تعرفين أننى أحبك، وأننى لم أفعل ما فعلت إلا لأنى أحبك، وأريدك إلى جوارى.. ألا تشعرين بحرارة هذه الكلمات يا عبلة؟؟ إنها تنبع من أعماق قلبى الحزين..».

قالت مطأطئة الرأس:

- «لا تحاول أن تؤثر علىّ.. لقد مات كل شىء.. الحب معنى سامٍ شريف، وأنت لا تعرف السمو ولا الشرف.. لقد خضت فى الأوحال والمستنقعات الآسنة، وتوسلت بأخس الوسائل لتنال أمرًا نبيلاً..».

- «جنونى بك دفعنى إلى ذلك.. أنت تقسين علىّ.. لو سمعت هذه الإهانات من رجل لحطمت رأسه..».

- «أنا بإيمانى أقوى من الناس قاطبة..».

صرخ محتدًا:

- «هذا غرور.. أنت تجرّين على نفسك الوبال.. أنا أرفض الهزيمة والحرمان.. وعندما يستولى علىّ اليأس فسأدمر كل شىء.. أدمرك وأدمر نفسى..».

قالت فى إصرار :

- «أنا هنا لأفعل ما تشاء من أعمال . . » .

- «وسأتخذك زوجة . . » .

- «مستحيل . . » .

- «لكنى اشتريتك بمالى . . ولى الحق فى معاشرتك . . أتخرجين على العرف والتقاليد؟؟» .

- «كل شىء إلا هذا . . لن أمكن كافراً منى . . » .

- «أنا صاحب حق يا عبلة . . » .

- «لقد قلت لى ذات يوم إنه ليس هناك حق وباطل . . » .

هجم عليها ، وأطبق بكلتا يديه على عنقها وهو يصرخ كمجنون :

- «وهناك القوة . . أتذكرين؟؟» .

حاولت أن تصرخ فلم تستطع ، أما هو فقد تراخت قبضتاه واختلطت المرئيات أمام عينيه ، فلم يعد يميز شيئًا ، وارتمى إلى جوارها فى ذهول ، ولم يدرِ أطال الوقت أم قصر ، لكنه فتح عينيه ، فوجدها جالسة فى مكانها ، محتقنة الوجه ، تنطلق من عينيها نفس النظرات الحادة المتحدية . .

قال وقد تبللت عيناه بالدموع :

- «أنت لا تعرفين الحقيقة . . ».

- «أعرف . . ».

- «ماذا؟؟».

- «لقد اجتمع الحاقدان . . جبير الثائر من أجل كرامته وشرفه، ووحشى الحاقد من أجل حبه وكبريائه، أنتما بؤرتان من عفن وشذوذ تريدان أن تتآمرا على فتاة مسكينة أرادت أن تفتح قلبها لنور الحق والفضيلة . . لم أرَ فى حياتى ظلمًا أو عدوانًا كهذا . . ».

قال بنبرة متلعثمة متعثرة:

- «أنت تجرّين على نفسك الوبال . . وتتعلقين بأذيال مُثُلٍ لا وجود لها فى عالمنا . . وكيف تنسين أنك أمة ذليلة تباعين وتشترين بدنانير معدودة؟؟».

- «الروح لا يملكها إلا خالقها يا وحشى . . ».

- «بل يملكها من اشتراك . . . ».

- «أكنت تؤمن بذلك وأنت عبد؟؟».

- «كنت . . . كنت . . هذا لا يهم . . إننى الآن سيد حر . . وأنت أمةٌ . . ».

شردت إلى بعيد وتمتمت:

- «كلمات محمد رائعة كلكم لآدم . . وآدم من تراب» ومبادئه تعبر عن الحقيقة الخالدة . . أما أنتم فلكل يوم حقيقة . . ولكل حدث طارئ حقيقة . . أنتم تصنعون الحقائق التى تروق لكم، وتلبسونها اللباس الذى تريدون . . أعنى أنكم تعيشون بلا حقيقة . . عالم من الفوضى والأهواء . . أى وحشى العنيد . . لن تملك روحى ولو ملأت بيتك بالسيوف والذهب . . » .

وجرى إلى ركن الخمر، ونهل منه ما شاء، ثم عاد إليها :

- «لسوف أقيدك بالحبال، وأربط يديك خلف ظهرك وفى هدوء تام أفعل بك ما أشاء . . » .

وابتسم كشيطان

- «يا وحشى أنت حيوان مفترس . . » .

واستطردت قائلة :

- «وهل ستسعد بذلك؟؟ إنك تتمادى فى الخطيئة . . أنت لا تراجع نفسك، وتفكر فى مسلكك المشين . . » .

صرخ :

- «أية خطيئة ! ! أنت لى . . اشتريتك بمالى . . » .

- «فلا تتحدث عن الحب . . » .

- «اللعنة على الحب . . إنه أسوا مما تصورت . . ».

قالت فى نبرات هادئة :

- «أنت لا تعرفه . . لم تذقه طول حياتك . . ».

خفّت حدته، ورقت لهجته وهو يقول :

- «بل عرفته فى الأيام الخوالى . . أيام كنت أجد لديك الحنان والعطف والثقة . . كنت تستمعين إلىّ تحت ستار الليل، وكنت تمنحيننى الكثير من السلوى والعزاء . . فأشعر أنى سعيد، وأن الدنيا كلها طوع يمينى . . ».

قالت :

- «لأنك لم تكن قد تلوثت لهذه الدرجة بعد . . ».

- «إننى ملاك . . لو عرفت ما اشترطه علىّ جبير لتحفظت فى كلماتك، ولعلمت أى إنسان أكون . . ».

وشردت مرة ثانية :

- «إننى أنظر إلى المستقبل . . فأرى دولتكم تزول . . وأرى أعناق الكفر فى مكة تسجد . . وتسلم أمرها لله . . وأرى جنود الحق يهتفون بعبارات التكبير والتهليل فى كل مكان . . والقساة الغلاظ يفرون إلى جميع الأرجاء باحثين عن النجاة . . عندئذ يطلع عليكم الندم بوجهه الحزين الدامع . . وتتوارى قيمكم الدنيئة بعيداً عن الأنظار . . ».

صاح مقاطعًا:

- «لا تنطقى بمثل هذه الكلمات.. إننى أكرهها، لسوف أرحب بالموت آنذاك..».

ثم استطرد وهو يصر على أسنانه:

- «ومحمد لن يدخل مكة منتصراً.. القوة هنا.. والمال هنا.. والتراث العريق.. ومحمد لن يقهر هذا كله ولو ناصرته ملائكة السماء.. دعى هذه الأمور، فأنا أدرى بها منك..».

قالت وقد أشرق وجهها:

- «إننى مؤمنة بكل حرف أقوله كإيمانى بالله..».

وانتزع نفسه من الحجرة، وهرول خارج البيت...

●●●



إنه عاجز حتى أمام الفتاة التى يمتلكها، عاجز وهى فى بيته، وتحت إمرته، لا يكاد يفصل بينه وبينها أى حائل ملموس، وهو قوى يستطيع أن يسحقها أو يعتصرها بين يديه، لكن قوة غير منظورة تجعله لا يقدر على ممارسة رغباته، أوالتعبير عن إرادته إلا بكلمات.. مجرد كلمات؛ ضارعة أحيانًا ثائرة أحيانًا أخرى، حاول اكتسابها بكل وسيلة ففشل، تناسى شروط سيده أو تجاهلها إلى حين، والآن ما العمل؟؟ أيذهب لإحضار سوط ويقيدها بالحبال، ويقذف بها فى مكان مظلم حيث لا أنيس ولا ماء ولا طعام؟؟ أيخطو هذه الخطوة لعلها تقربها منه وتعيد إليها عقلها، وفى الوقت نفسه يكون وفيًا بشروط سيده؟؟

واستبدت به الحيرة، وهو يضرب فى الطريق على غير هدى، ووثب إلى ذهنه اسمان: «وصال» و«سهيل»، أما سهيل فهو بعيد ليس إليه من سبيل، لعله فى «ثقيف» الآن، أو

ربما يكون قد لحق بمحمد، أما «وصال» فهى ما زالت هنا . . تستقبله فى أى وقت، وتبصره بآرائها الناضجة . . لقد علمتها الأيام الكثير، وجادت عليها بخبرات قلّ أن يجد مثلها لدى غيرها . . .

وقصد لتوه إلى بيت «وصال»، إنه يشعر بفرحة غامرة ونشوة من نوع غريب، هذه البغى يمكنها أن تحيطه بجو السلوى والعزاء، إنها تشاركه أحزانه، وتجاذبه الحديث، فعطفها عليه واضح وإيثارها له لا يحتاج إلى دليل، ونصحها المخلص قد يفتح أمامه الأبواب المغلقة، فليذهب إليها وليقص عليها الأمر كله . . .

واستقبلته بابتسامتها المعهودة التى يمتزج فيها الحزن بالترحيب والرضى بالقضاء، أما هو فقد بدا على وجهه التبرم والضيق.

وقال فى أسى:

- «لم أعد أصلح لشىء يا وصال».

ضحكت فى مرح:

- «لكنك لم تزل فى فورة الشباب، وأحلى سنى العمر، وتستمتع بقوة خارقة . . .».

قال فى مرارة :

- «قوة لا تعرف كيف تنطلق . . طاقة مسجونة لا قيمة لها ، إن السخرية تنتصب قبالتى وتصب هزءها علىّ بلا رحمة . . » .

وعاد يكرر :

- «لم أعد أصلح لشىء . . » .

- «ماذا جرى؟؟» .

- «إنها الآن فى بيتى . . لكنى عاجز عن معايشتها . . » .

- «من؟؟» .

- «عبلة . . » .

- «كيف؟؟» .

وشرح لها الأمر كله دون أن يخفى عنها شيئًا ، روى لها كيف حاول شراءها ، ولقاءه الأول والثانى مع جبير ، ووشايته بها ، وإصرار الفتاة على إسلامها ، ورفضها لكل رجاء وضراعة تقدم بهما وحشى ، وسخريتها مما يلوح به من تهديد .

وهزت وصال رأسها وقالت :

- «إنه تصرف غريب منك ، هذه الفتاة لن تنالها بالقوة» .

- «لكنها ملك يمينى . . » .

- «لتنسَ هذا إن كنت حريصًا على الفوز بها . . جرِّب معها شيئًا غير العنف . . » .

- «لقد جربت يا وصال وفشلت . . » .

- «بل فعلت . . » .

لم تكترث وصال لكلامه واستطردت :

- «ولتنسَ يا وحشى أنك حر وهى أمة مشتراة . . ولتنسَ أن القوة لك ، والمال لك ، ولتبدُ أمامها وكأنك دونها . . إن حبكما يحول بينه سور عال من التصورات المفجعة . . لم يعد حبًا . . إنه حرب ، فيها غالبٌ ومغلوب . . » .

صاح قائلاً :

- «وصال . . تريدنى أن أعتنق دين محمد . . » .

- «هى تريدك أن تطأطئ رأسك . . وتستسلم لإرادتها تمامًا ، تريد أن تشعرك أن عبوديتها أقوى من حريتك . . وأن عقيدتها قد سمت بها فوق المكانة العليا التى يتسنمها السادة . . » .

قال دون أن يكترث لكلمات وصال :

- «اليأس يغلّف قلبى . . » .

- «أجل . . . » .

- «والهزيمة تدمى روحى . . ».

- «مسكين . . . ».

- «العجز يكاد يقتلنى . . لم أعد أصلح لشىء . . ».

وأخذ يتمتم شاردًا :

- «نلت الحرية . . أصبحت سيدًا يملك المال . . والتى أحبها أصبحت ملك يمينى . . ومع ذلك فالتعاسة لم تتغير . . إنها داء مستعصٍ لا شفاء منه . . ».

وجاس بنظراته خلال الحجرة، وتأمل وجه وصال وعينيها الحزينتين ثم قال وهو نهب لانفعال شديد :

- «كرهت مكة وساداتها؛ للماضى الأسود الذى عانيت منه، وكرهت محمدًا ودينه لما أعانيه الآن من عصيان فتاة آمنتْ برسالته . . إننى لا أجد أحدًا قمينًا بالحب فى هذه الحياة . .

وطلبَ كأسًا من خمر، وما إن جرعها حتى أخذ ينشد كلمات لامرئ القيس :

وليلٍ كموجِ البَحْرِ أرْخى سدولَهُ

علىَّ بأنواعِ الهمومِ ليَبْتَلى

فقلت له لَمَّا تَمطَّى بصلبِهِ

وأردَفَ أعجازًا وناءَ بكَلكَلِ

ألا أيهـــا الليـلُ الطـويلُ ألا انجـلى

بصـبحٍ، ومــا الإصبـاحُ مِنكَ بـأمـثلِ

وكانت وصال تميل برأسها مع مقاطع الشعر، وتغمض عينيها ثم تفتحهما، وأخيراً علّق وحشى قائلا :

- «لقد طال ليلى، ولا أرى للفجر بشائر. . . وعبلة تبدو كأنها تعيش فى أحضان الفجر الوليد، لا أدرى كيف؟؟ لقد صنعت لنفسها وهمًا رائعًا من نوع غريب. . ومحمد قد أمدها بعالم يملأ قلبها بالأمل واليقين . . ».

قالت وصال :

- «عليك بالصبر . . ».

- «إن الصبر خلقٌ لعين. . إنه يوحى إلىّ بالضعف والملل ومرارة الانتظار . . ».

قالت وصال :

- «عندى فكرة . . ».

- «ما هى؟؟».

- «إنه الحل الأوفق لمشكلتك العويصة . . ».

- «تكلمى . . ».

قالت فى هدوء

- «ارحل عن هذه الديار . . » .

- «وحدى . . » .

- «لا . . خذها معك . . » .

- «وإن رفضت . . » .

- «كيف ترفض ألست مالكها وسيدها؟؟ قد ترفض أشياء أخرى لكنها لن تخالفك فيما تكلفها به من أعمال . . » .

وصمتت برهة، بينما أخذ وحشى يفكر، ثم قالت وصال :

- «وليكن رحيلكما سراً حتى لا يفسده جبير بن مطعم ويبطل الخطة التى نويتها . . » .

نظر وحشى إليها فى اهتمام وقال :

- «وإلى أين نرحل؟؟» .

- «أرض الله واسعة . . » .

زمجر :

- «الدنيا فى وجهى أضيق من الخاتم . . » .

غمغمت وصال :

- «حيث يكون الأمل، تبدو الدنيا رحبة فسيحة . . » .

- «أأهرب من نفسى إلى نفسى؟؟».

- «إن تغيير المكان يحمل فى طياته أملاً جديدًا.. ويشرح الصدور بنسائم ندية منعشة، الترحال شىء عظيم..».

وران عليهما صمت عميق، ونظر وحشى إلى وصال فوجدها تبكى فى هدوء مثير، قال مستفسراً:

- «ماذا بك يا وصال؟؟».

قالت فى شرود، ونبراتها تمتزج بالدموع:

- «لطالما حلمت بذلك اليوم، كنت أتصوره قادمًا ذات مساء.. ويهتف بى من النافذة، ثم يتلقفنى بين ذراعيه، ويضعنى على ظهر جواده، وينطلق بى مسابقًا الريح.. يشق الظلام والمجهول إلى أرض جديدة، ليس فيها تجار للمتعة، ولا سادة يملون إرادتهم.. ونعيش معًا -أنا وهو- فى وحدة وأمان وحب يملأ الأرض والسماء..».

قال وحشى فى دهشة:

- «من هذا الذى تذكرين؟؟».

- «حبيبى..».

- «لقد سخرت منى حينما حدثتك عن الحب يومًا ما..».

- «كنت أبعد نفسى جاهدة عن الأحلام، فحاضرى ينوء

بالتزامات وأحداث مزعجة بعيدة كل البعد عن الحب. . ثم إن الحبيب لم يكن قد أتى بعد. . ».

وشهقت باكية وهى تقول:

- «ولن يأتى. . ».

- «حسبته إنسانًا بعينه. . ».

قالت والدموع تغرق وجهها:

- «إنه أنت يا وحشى. . ».

صاح فى دهشة:

- «أنا؟؟».

- «أجل. . . ».

- «لم أتصور أن أحدًا فى الوجود يحبنى حبًا حقيقيًا. . ».

قالت وهى تبتسم فى انفعال وتوتر:

- «إن بك نقائض صارخة وانحرافات شديدة. . ومع ذلك فقد أحببتك. . ليكن فقد فات الأوان. . إن هناك من هى أحق بك. . لتنسَ هذا الحديث. . إن الخمر قد لعبت برأسينا. . وأنا أهذى. . . ».

وجففت دموعها، ثم تناولت كأسًا أخرى وقالت:

- «يجب أن ترحلا على الفور . . لتفلتا من أسار جبير ابن مطعم وشروطه القاسية . . إنه يريدك جلاداً لحبيبة قلبك . . لم يزل ينظر إليك كعبد أجير لتنفيذ إرادته ومخططه الرهيب، يجب أن تتخلص يا وحشى من هذا القهر وتلك القيود الشائنة . . انطلق بها . . وليضرب جبير رأسه في جبل من جبال مكة . . ».

وشرد وحشى وهو يقول :

- «سأسابق الريح وأشق الصمت والظلام، وأنطلق إلى أرض جديدة . . حيث الحب والأمل، لكن إلى أين أذهب؟؟».

قالت وصال وهى تربت على كتفه :

- «انطلق أولاً . . . وفى الطريق الطويل ابدأ التفكير . . اسألها أين تذهبان . . قل لها إنك طلقت العالم من أجل حبها . . وإنك عبدها المطيع . . الحب سيد كبير تسكت تحت أقدامه الكبرياء . . ».

قال ذاهلاً :

- «إنه الذل يا وصال . . ولماذا لم ترق هى كبرياءها؟؟».

- «لم يئن الأوان بعد . . ».

- «أخشى يا وصال أن تكون قد أراقت كبرياءها من أجل فكرة، أعنى دعوة محمد..».

قالت وصال وقد ثقل لسانها:

- «انطلق ولا تفكر كثيراً، لن تخسر شيئًا..».

●●●



لم يذهب وحشى إلى بيته، وأخذ يهيم على وجهه فى الطرقات حائراً ممزقًا، يفكر فيما دار بينه وبين عبلة، ويستعيد ما قالته «وصال»، لقد سيطرت عليه الدهشة وهو يستمع إلى اعتراف وصال بحبه، إنها بائعة هوى، ولم تفكر فى يوم من الأيام فى الارتباط برجل واحد، وكانت لديها الحجج القوية، والتبريرات المقنعة، كانت تعرف نفسها وظروفها وتتصرف بعقل، وفجأة ضاعت فلسفتها، وذابت تبريراتها. وأسفرت عن امرأة ضعيفة لها أشواق.. تريد أن تستأثر برجل، وتخلص له الود، وتعيش له وبه، إنها امرأة مسكينة بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى، ووحشى لم يناقشها هذا الأمر، إن عبلة تشغل باله وفكره، ووصال يحبها كمسكن لآلامه وأحزانه، إنها تروى ظمأه ريًا مؤقتًا، ليست بالمرأة الكاملة التى ترضى كبرياءه، وتملأ قلبه، وتشبع الروح والجسد معًا، وهى تدرك ذلك، ومن ثم

سرعان ما انسحبت واتهمت نفسها بالهذيان والتخريف وطلب المستحيل . .

وتجلت لوحشى فى الظلام صورة «حمزة بن عبد المطلب» فأصابه الارتياع، الخمر لم تزل تمور برأسه، والخيالات تحتشد وتتداخل، وكاد يصرخ من الرعب، آه . . العار يلاحقه والخطيئة ترتسم له، وتؤرق حياته، لم تفلح الخمر فى إبعاد الشبح عنه، ماذا يرى؟؟ لا شك أن ذلك مجرد أوهام . . لقد مات حمزة وانتهى الأمر، ويحاول جاهداً أن يبعد صورة حمزة عن ذهنه، لكنها تتجسم، وتلحّ فى عناد، حتى لكأنها حقيقة . . وأخذ يجرى ويلهث، لو رآه أحد لرماه بالجنون . . تحسس حربته . . يا للكارثة!! إنها ليست معه، ترى لماذا نسيها؟؟ ثم توقف لاهث الأنفاس . . صورة الشهيد تطارده، وتبتسم فى سخرية، وكأنه على قيد الحياة . .

- «ماذا أرى؟؟ الموتى لا يبعثون . . إنهم يستحيلون إلى رماد وعظام نخرة . . ».

وخيل إليه أن همساً يطن فى أذنيه: «أنت واهم . . ضال . . بل الموتى يُبعثون أيها المأجور الذليل» . . ماذا يسمع وحشى . . أصوات كثيرة تطن فى أذنيه، الصورة المشرقة الباسمة تتحدى الظلام، إنه يحاول أن يفتح عينيه جيداً، ويهز رأسه ليبعد النوم

والسُّكر، لينفض عنها الوهم، وصاح بأعلى صوته: «هذا هراء.. أنا لا أخاف...» وصدرت بالقرب منه ضحكة ساخرة.. من أين صدرت هذه الضحكة؟؟ إنه يتلفت يمنة ويسرة، فلا يرى إلا صورة حمزة أنّى اتجه ببصره.. إنه محاصر لا يستطيع الإفلات.. وصرخ: «ماذا تريد.. منى؟؟ تكلم.. لقد قتلتك لأنال حريتى.. إنها الحرب لا تعرف الرحمة، البشر يفعلون ذلك». لكن الصورة يشع فى وجهها الابتسام الممزوج بالسخرية.. وسمع كأن هاتفًا يقول: «احتفظ بهذه التبريرات الكاذبة لنفسك أيها المأجور.. أنت شيطان تعس.. وستظل تعسًا طول حياتك..» وأخذ وحشى يجرى هنا وهناك ويصيح: «من أنت؟؟ ماذا تقول؟؟ أنا لست تعسًا..» وخيل إليه أن آلاف الحراب تحيط به.. وأنها تقترب وتقترب.. إذن هى النهاية.. ماذا ينتظر، وصاح بأعلى صوته:

- «النجدة.. النجدة.. أنقذونى..».

ثم ارتمى على الأرض مغشيًا عليه...

وهرول نفر قليل على ضوء الشموع الخافتة، وأخذوا يتحسسون الطريق نحو مصدر الصيحة، وأخيرًا وجدوه ملقى على الأرض فى شبه غيبوبة، واقتربوا منه، صاح أحدهم:

- «هذا وحشى التعس . . يبدو أنه قد أفرط فى الشراب» .

وصبوا على وجهه ورأسه أقداحًا من الماء البارد، وعندما فتح عينيه، رأى الشموع الصغيرة المتراقصة وعددًا من الوجوه فتشبث بهم فى خوف، وأخذ يتمتم: «يريد أن يقتلنى . . إنه هنا . . موجود، لقد رأيته بعينى . . إنه يطاردنى . . لقد كان على وشك أن يقضى علىّ . . » .

قال أحد السامعين :

- «من هو؟؟» .

- «حمزة بن عبد المطلب . . » .

وضج الحضور بالضحك، وقال رجل :

- «لقد أثقلت فى الشراب يا وحشى المسكين . . » .

قال وحشى :

- «لقد رأيته بعينى رأسى . . » .

قال أحدهم ساخرًا :

- «صدقوه . . » .

وضجوا بالضحك مرة ثانية، بينما قال وحشى محتدًا :

- «لقد كنت أناقشه ويناقشنى أيها الحمقى . . الكلمات لا

تصـدر إلا عن إنسـان حيّ . أنتم لم تروا شيئًـا لكنى رأيت بعينى رأسى».

وعاد الساحر يقول مرة أخرى:

- «صدقوه. . .».

وفي أثناء ضحكهم وسخريتهم منه، جره أحدهم من ذراعه قائلاً:

- «تأبى إلا أن تزعجنا وقد أوشك الفجر. . خذوه إلى داره وألقوا به فيها حتى يفيق من سكره. .».

ودفعوا الباب، فوجدوه مفتوحًا، فهرول إلى الداخل ثم عاد ودفع الرجال إلى خارج بيته وهو يصيح:

- «اذهبوا إلى الجحيم. . لا أريدكم فى بيتى. . إنها تنتظرنى. .» ثم أغلق البـاب، وقـال وهو يفـرك يديه ويترنح:

- «إنها تنتظرنى. . .».

ثم أخذ يصيح بأعلى صوته:

- «عبلة. . عبلة. .».

ولما لم تجب على ندائه غمغم:

- «إنهـا لا تجيب. . هى تكرهنى، ثم ارتمى على الأرض

وأخذ ينتحب كامرأة، وظل صوته يضعف حتى راح فى سبات عميق . . وأخذ يغط غطيطًا عاليًا . . » .

ولم يدر أطال به الوقت أم قصر، عندما فتح عينيه وجد الشمس قدَ توسطت كبد السماء، والضوء يغمر الوجود، فتحسس رأسه الذى يرزح تحت صداع شديد، ثم تثاءب فى كسل ونادى بصوت أجش :

- «عبلة . . عبلة» .

فلم يعد إليه سوى صدى صوته، فتحامل على نفسه، ووقف وقصد صوب حجرتها فلم يجدها، ثم ذهب إلى حجرته فوجدها خاوية، وأخذ يجوس خلال الدار الصغيرة كمجنون، لكنه لم يعثر لها على أثر . . .

وطار من رأسه كل أثر للسُّكر، أين ذهبت؟؟ أتراها قد هربت؟؟ مستحيل . . ستجعل منه أضحوكة بين الناس، وسيمتلئ قلب «جبير بن مطعم» غيظًا وحنقًا، وسيشوى جسده بالسياط دون رحمة، وهرول إلى الخارج يستفسر الجيران والمارة، فلم يدله أحد عليها . . .

ساد الشحوب وجهه، وشعر بحنق هائل . . لو أمسك بها لمزقها إربًا إربًا . . لماذا استسلم لضعفه، وبسط لها رواق الحديث ولم يقسُ عليها منذ اللحظة الأولى؟؟ لماذا لم يقيدها بالحبال؟؟ ماذا يفعل الآن؟؟

وأخذ يجوب طرقات مكة وشعابها وبيوتها باحثًا عن الفتاة دون جدوى، وكيف تجرأت على الهروب؟؟ آه . . إن التى لا تعبأ بالموتِ، ولم تخف سيدها، ليس مستبعدًا أن تهرب، واتجه وحشى صوب بيت مولاه جبير، وفى الطريق لقيه ذلك اليهودى الذى أتى لمساومته مرة أخرى، وسمعه وحشى يقول:

- «هل فكرت؟؟».

- «فيم؟؟».

- «قتل محمد . . ».

دفعه وحشى فى صدره قائلاً:

- «إليك عنى . . أنا لست مأجورًا . . ».

قال اليهودى فى خبث:

- «لو كان الأمر أمر استئجار لبحثت عن غيرك، لقد وقع الاختيار عليك لشجاعتك وبطولتك وحقدك على محمد الذى سيسفك دمك إن عاجلاً أو آجلاً . . ».

قال وحشى:

- «أيها النتن . . أنت تسخر منى، وتجعلنى أداة لأطماع ملتك . . إننى أكرهكم جميعًا . . ».

وأخذ اليهودى يقذف بالقطع الذهبية إلى أعلى ثم يلتقطها

فى كـفـه وينظر إلى وحـشى نظرة ذات مـعنى . . وسـدد إليـه وحشى نظرات حاقدة قاسية وهو يقول :

- «إن قتل حمزة قد جلب علىّ شقاء لا مثيل له . . فاذهب عنى» .

قال اليهودى :

- «أنت حر . . ستجد نفسك يومًا ما -وقد أحاطوا بك من كل جانب- مضطراً لحمل السيف والدفاع عن حياتك وفى هذا الوقت العصيب لن تكون نجاتك أمراً مؤكداً . . » .

وتركه وحشى ومضى فى طريقه إلى بيت «جبير بن مطعم» وأخذ وحشى يفكر ، كيف يشرح الأمر لجبيـر؟؟ وبأى وجه سيستقبله مولاه القديم؟؟ وعن أى شىء تتمخض هذه الكارثة المروعة؟؟

وعندما رآه سيده قادمًا ، ابتسم له فى ود وقال :

- «مرحبًا بالفتى الهمام . . » .

طأطأ وحشى رأسه دون أن يجيب ، فاستطرد جبير :

- «هل نلت منها ما تصبو إليه يا أسير النساء؟؟» .

- «كلا . . . » .

قهقه جبير حتى كاد يستلقى على ظهره :

- «أين قوتك وبراعتك إذن يا وحشى؟؟ أتستعصى عليك امرأة أيًا كان لونها وطبيعتها؟؟» .

- «سيدى . . » .

أشار جبير بيده قائلاً :

- «لا تلتمس لنفسك المعاذير . . إنك ساذج ضعيف . . إذن لا شك أنك قد أعطيتها درسًا فى الأدب حتى لا تفكر فى عصيانك مرة أخرى ، لا يهم . . إن أمامك وقتًا طويلاً للمراوغة والتنكيل بها ، والسخرية منها . . » .

وعاد سيده يقول :

- «مالى أراك شاحبًا مرتعدًا يا وحشى؟؟» .

- «سيدى . . » .

- «ماذا جرى؟؟» .

- «إنها لكارثة كبرى» .

- «أية كارثة؟؟؟ تكلم . . » .

- «لقد هربت . . » .

- «هربت؟؟» .

وبرقت عينا جبير حقدًا وغيظًا ، وعض على شفته السفلى حتى كاد يدميها ، وأخذ قلبه يدق بشدة ، ويداه ترتجفان وهو يعبث بلحيته الكثة ، وصرخ :

- «أتقول هربت؟؟».

- «أجل...».

وهبّ جبير واقفًا.. ثم جرّ «وحشى» من إحدى أذنيه ونزل برأسه حتى الأرض، وداس على عنقه بقدمه، وهو يصرخ:

- «تزعم أنها هربت؟؟ وأين كنت أنت؟؟ أتزيد من تعاستى وتحقيرى أيها العبد الذليل؟؟ إيتونى بالحبال والسوط.. تقول هربت أيها المأفون؟؟».

وأخذ جبير يضربه فى جنون، لم يكن يعى تمامًا ماذا يفعل، ووحشى مستسلم للسياط الحارقة، ومن آن لآخر يقول: «الرحمة يا مولاى.. لقد أدميت جسدى ووجهى.. إننى أشد تعاسة وحقدًا عليها منك.. قسمًا لو أمسكت بها لما تركتها على قيد الحياة دقيقة واحدة..».

ولم يكفّ جبير عن ضربه إلا بعد أن خارت قواه، ثم جلس إلى جواره متلاحق الأنفاس، والدم ينزف من أماكن كثيرة فى جسد وحشى..

والتفت جبير إلى أحد رجاله وصرخ به:

- «أعدوا أربعة من كرام الخيل.. وانطلقوا صوب المدينة.. أعتقد أنها هربت لتلحق بالمسلمين هناك..».

●●●



اختفت «عبلة» ولم يعرف عنها أحد شيئًا، لكأنما انشقت الأرض فغيبتها فى باطنها، والحقيقة أن الأمر بالنسبة للفتاة لم يكن ذا صعوبة تذكر، فإن بالمدينة نساء مؤمنات ورجالاً مؤمنين، الله يعلمهم، وكان هذا أمرًا معلومًا لدى أهل مكة حيث إن القرآن أكد ذلك، وكانت عبلة تفكر فى الأمر من وجهة نظر أخرى، هل يحل لها أن تهرب من رجل يمتلكها وله حق فيها؟؟ ولكن سرعان ما أدركت أن للقضية جانبًا آخر، وهو أن مالكها ليس منصفًا معها -دعك من كفره- فللعبودية شروط وآداب، ولسلطة سيدها حدود لا يصح أن يتخطاها من وجهة نظر إنسانية بحتة، فيجب أن يكون لها عقيدتها التى تختارها ولا تبيح له أية شريعة من الشرائع أن يظلمها أو يتعنت فى معاملتها، ثم إنها قررت أن ترد إلى مالكها حقه فيها فى الوقت المناسب.. وفى قلب الظلمة هرولت «عبلة» إلى بيت تعرفه، وطرقت على الباب طرقات

ناعمة، قالت صاحبة البيت أم رابح لولدها الصغير الذى لا يتجاور الثالثة عشرة :

- «من الذى يطرق بابنا فى هذا الوقت المتـــأخـــر من الليل؟؟» .

قال الصبى وهو يفرك عينيه من أثر النعاس :

- «لعله ابن سبيل . . » .

- «ألا يأتى ابن سبيل إلا إلى بيت امرأة مات عنها زوجها وليس لها فى الدنيا غير صبيها؟» .

- «ولم لا نفتح الباب ونعرف من القادم أولا؟؟» .

دققت أم رابح النظر، فوجدت امرأة متوشحة لا يكاد يبين منها شىء، فقالت متلهفة :

- «من؟؟» .

- «عبلة» .

- «مولاة جبير بن مطعم؟؟» .

- «أجل يا سيدتى . . » .

قالت صاحبة البيت :

- «أسرعى بالدخول، لاشك أن أمرًا ذا بال يشغلك . . » .

وأم رابح امرأة أسلمت وأخفت إسلامها شأنها شأن الكثيرات والكثيرين، ولم تجد الفرصة مواتية للهجرة، كانت خائفة على نفسها وعلى ولدها، لقد رأت بعينيها كيف اعتدى المشركون على زينب بنت الرسول زوجة العاصى بن الربيع أثناء هجرتها من مكة إلى المدينة، وكيف أجهضوها دون رحمة، لهذا آثرت التخفى، وكانت تربطها بعبلة رابطة العقيدة، تلقيا نور الهداية معًا، ولكَمْ جمعهما مكان واحد للاستماع إلى الآيات الجديدة التى تنزل على محمد، وإلى تعاليمه فى كل ما يمس حياة المسلمين وسلوكهم.

قالت عبلة:

- «تأكدى من إغلاق الباب جيدًا.. لاشك أنهم سيقلبون مكة بحثًا عنى..».

ولمحت عبلة على وجه صاحبة البيت شيئًا من التوجس والتفكير، فقالت:

- «معذرة.. كنت مضطرة لهذا التصرف.. لقد باعنى جبير لوحشى بن حرب قاتل حمزة، ليتسلى بتعذيبى بعد أن اكتشف أمر إسلامى، إنه لشىء فوق الطاقة أن أترك نفسى للعذاب والانتقام الرهيب.. إن الحقد يعميهم، ولو بقيت فى أيديهم لمزقوا جسدى إربًا..».

قالت أم رابح :

- «حسنًا فعلت، لم يكن هناك تصرف غير هذا . . » .

قالت عبلة وكأنها تعتذر لها عن تعريضها لمتاعب قد تحدث :

- «ولن أطيل البقاء عندك يا أختاه، فسأحاول اللحاق بالمدينة فى الوقت المناسب . . » .

وبعد أن شرحت لها الفتاة جميع الظروف والملابسات، هزت أم رابح رأسها فى ثقة وقالت :

- «والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين . . » .

قالت عبلة :

- «ألا تشعرين بضيق؟؟» .

قالت متهللة :

- «إننى سعيدة غاية السعادة . . أشعر الآن أننى أؤدى واجبًا مقدسًا يثيبنى الله عليه، إن رجالنا يُقتلون ويُضطهدون ونساؤنا يتعرضن للويلات . . وأنا لست أقل منهن شأنًا . . إن الطريق كله إيمان وتضحية وصبر وثبات . . » .

ثم التفتت إلى الصبى قائلة :

- «أى صغيرى العزيز، لا يصح أن تفتح فمك بكلمة، إن معنى ذلك أن نفقد جميعًا حياتنا، بل إن الكفار سوف يطفئون لهيب أحقادهم، ويشعرون بمنتهى الارتياح إذا اكتشفوا أمرنا وظفروا بنا.. أتفهمنى؟؟».

قال الصبى:

- «أجل يا أماه.. إننى أدرك كل شىء.. ولن أنطق بكلمة واحدة، ولو فعلوا بى ما فعلوا بأصحاب الأخدود..».

ثم استدارت إلى عبلة قائلة:

- «من فضل الله.. أن زوجى رحمه الله، قد ترك لنا مخبأ سريًا فى مؤخرة البيت لا يستطيع أن يستدل عليه أحد، وترك لنا عددًا من الأغنام والدراهم تكفى لإعاشتنا. لقد حللت أهلاً ونزلت سهلاً يا ابنتى..».

تنهدت عبلة فى ارتياح وقالت:

- «الحمد لله. كل شىء فى سبيل الله يهون..».

وصمتت برهة ثم قالت:

- «لكن أمرًا ما يكربنى..».

- «ماذا؟؟».

- «يجب أن يتسلم مالكى ما دفعه عند شرائى..».

- «أوه يا فتاتى . . إن المشركين قد ابتزوا أموال المسلمين وطاردوهم، ومزقوا شملهم، ودمروا تجاراتهم . . » .

قالت عبلة :

- «أعرف ذلك . . لكن الأمر يكربنى . . » .

رفعت أم رابح يدها وقالت :

- «حسنًا لدىّ أسورة من ذهب، وثوب حريرى لم تتناوله يد البلى . . » .

- «لا أفهم . . » .

ابتسمت أم رابح :

- «وشاتان أو ثلاثة، فيمكننا أن نجمع من وراء بيع ذلك كله قدرًا يكفى من المال . . ثم نضع المال فى صرة، ونقذف بها إلى بيت وحشى بن حرب . . » .

قالت عبلة :

- «أريد أن أخطو هذه الخطوة الحاسمة فى طريق الهداية وأنا لست مدينة بحياتى لأحد من الكافرين . . » .

وثب الصبى وقال :

- «ونرفق بالصرة عظمة من عظام الحيوان مكتوبًا عليها . . «لقد اشتريت نفسى منك» . . وسيفهم كل شىء .

وضحك ثلاثتهم، ونظرت عبلة إلى أم رابح نظرات فيها كثير من الامتنان والشكر، ثم غمغمت:

- «وسيكون هذا دينًا علىّ أرده إليك فى حينه..».

كل هذا والجياد تنطلق فى الطريق إلى يثرب باحثة عن الفتاة الآبقة، والعيون مبثوثة فى كل بيوت مكة وحاراتها، والرسل المتخفون يتنسمون الأخبار فى مدينة الرسول دون جدوى.

ويصرخ وحشى كجريح آلمه جرحه أشد الإيلام:

- «سأظل أبحث عنها حتى أشرب من دمها.. وسأظل أكفر بمحمد وإله محمد.. حتى وإن آمن الناس جميعًا..».

ويصر جبير على أسنانه من الغيظ ويزمجر:

- «فتاة حقيرة مرغت شرفنا فى الأوحال وسخرت من كبريائنا وتدابيرنا المحكمة..».

وتقول وصال وهى تبتسم فى مرارة:

- «لو كنت مكانها لما فعلت غير ما فعلت.. أو تعتقد يا وحشى أنه من السهل على بشر أن يسلِّم رقبته وروحه ليد الجلاد الذى لا يرحم؟؟».

وتقول هند زوجة أبى سفيان عندما علمت بالنبأ:

- «إنه لشىء مثير حقًا.. والله لئن دارت الدائرة على

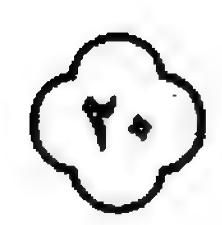
محمد وصحبه فلسوف ننزل العبيد والإماء منزلة دون منزلة الكلاب..».

وكان من حسن حظ «عبلة» ومضيفتها أن مكة قد انشغلت بحلفائها من اليهود، واستعداداتهم لحرب محمد، فيما يسمى بغزوة الأحزاب، حيث اجتمعت قريش وغطفان وفزارة وأشجع وسليم واليهود وغيرهم من القبائل.

وإن نسي الجميع مؤقتًا أمر الفتاة الآبقة، فإن وحشي بن حرب لم يكن لينسى ذلك الأمر، حتى في اللحظات التي تمتلئ فيها معدته بالخمر، ويصاب بالسُّكر والهذيان، فإن جميع أحاديثه كانت عن عبلة ومكرها وخداعها، والطعنة القاسية التي وجهتها إلى كبريائه وآماله..

ولم تكن لتمر ليلة واحدة دون أن يعتريه الوهم، فيخيل إليه أنه يرى حمزة بن عبد المطلب، وعشرات الرماح تحاصره وإلى جوارها وجه «عبلة» المؤمن الرائق، وهو يرمقه في سخرية وازدراء حتى أن وحشي كاد يصاب حقيقة بالجنون.

●●●



وانقضت فترة ليست بالقصيرة، جرت فيها أحداث وأحداث، كان وحشي يرقبها بقلب واجف وعقل مضطرب ويشارك فيها على قدر استطاعته، وحسب مزاجه النفسي، أخذ وحشي يرقب قريشًا وهي تحشد حشودها مع قبائل غطفان وفزارة وأشجع وغيرهم من اليهود، ويتابع وحشي موقعة الأحزاب التي كان يتوقع أن تضع خاتمة لحياة محمد والمسلمين والدعوة الإسلامية، لكن الأحزاب عادت دون أن تحقق كسبًا، ويبقى محمد ودعوته صامدين يزدادان قوة وبأسًا وأتباعًا، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل إن محمدًا مال بقواته على يهود بني قريظة وقضى عليهم قضاء مبرمًا، وقتل «حيي بن أخطب» زعيم اليهود، وأعدى أعداء المسلمين، والمحرض الأول على غزوة الأحزاب، بل إن محمدًا استطاع أن يعقد مع قريش صلحًا مؤقتًا هو صلح الحديبية، ثم عاد ليؤدب بقايا اليهود في خيبر فقضى على سلطانهم فيها،

والأخطر من ذلك أنه جرد جيشًا للتصدى للروم فى شمال الجزيرة، وأرسل رسله إلى قيصر وكسرى وغيرهما من الملوك والحكام، يدعوهم للإسلام. . وفى خضم هذه الأحداث استطاعت «عبلة» أن تفر وتهاجر إلى المدينة، بعد أن أودعت فى بيت وحشى قدرًا من المال هو بمثابة ثمنها. .

وكان من بين شروط صلح الحديبية أن يسمح للرسول ومن معه من المسلمين بالعمرة فى العام الذى يلى الصلح، وقد جاء اليوم المشهود. . لسوف يأتى محمد مكة حاجًا، ويقضى فيها هو ورجاله ثلاثة أيام، وألا يحملوا سلاحًا سوى السيوف فى القرب، وأن تترك قريش مكة خلال هذه الأيام الثلاثة، فإذا ما أدى محمد شعائر العمرة وطاف بالبيت العتيق، واستلم الركن، وصلى. . عاد إلى المدينة، وعادت قريش إلى مكة، تاركة الجبال والتلال التى اعتصمت بها. .
كان وحشى يفكر فى كل ذلك تفكيرًا لا يتوقف، كيف جرى هذا كله خلال الفترة التى مرت منذ هروب عبلة حتى الآن؟؟
إن الأمور تجرى فى صالح محمد، وقريش تنكمش ويضمحل سلطانها أمام زحف الدعوة الوليدة ونجاحها الغريب، فإذا ما سارت الأمور على هذا المنوال فإن محمدًا سينتصر، ستدين له مكة والجزيرة العربية كلها، سيصبح صاحب الكلمة والسلطان، وتنطوى رايات قريش،

ورجالات مكة . . وشعر وحشى بأسى عميق لا يستطيع مقاومته، وجرى إلى أبى سفيان قائلاً :

- «يا سيد قريش وزعيمها الأوحد . . كيف تسمح لمحمد بدخول مكة والطواف بالبيت العتيق؟» .

قال أبو سفيان فى ضيق لا يستطيع مداراته :

- «يعلم الله ما أعانيه من كرب يا وحشى . . لكن أنت تعلم أن البيت الحرام ملك العرب جميعًا، وقد استطاع محمد أن يؤلب علينا العرب قاطبة لأننا منعناه فى العام الماضى من الحج . . ثم إن بيننا وبينه عهدًا لا نستطيع نقضه . . واتفاقنا معه ينص على السماح له بزيارة البيت العتيق وتأدية الشعائر . . » .

قال وحشى وقد احتقن وجهه :

- «اضربوا بتلك العهود عرض الحائط . . إنها مسألة حياة أو موت . . » .

- «ليتنا نستطيع يا وحشى . . » .

- «إن محمدًا قادم -كما علمت- فى ألفين من رجاله، لِمَ لا نميل عليهم ميلة واحدة ونريح أنفسنا من هذا الأمر المزعج؟» .

صرخ أبو سفيان محتدًا وقال :

- «أيهـا الأبله . . أنت لا تعـرف الحـقـيـقـة المرة، من هم المسلمون؟؟ إن أولئك المهاجرين هم أبناء العم . . والناس هنا فى مكة قـد اشـتـاقـوا لرؤية ذويهـم المهـاجـرين . . والله لئن احتدمت المعركة فلسوف يفر نصف أهل مكة للحاق بمحمد وجيشه . . » .

قال وحشى وقد دق قلبه حقداً :

- «إنه العار يا أبا حنظلة . . » .

- «الناس فى مكة قـد ملّوا الحـرب . . وكـثـيـرون يخـفـون إسلامهم . . لا يصح أن نقامر بسمعتنا ومصيرنا فى معركة ليست مضمونة النتائج . . » .

- «أنت تهول فى الأمر يا أبا سفيان . . » .

- «إننى أدرى منك بالأمـــور، وعلى الرغم من حنقى وحقدى على محمد إلا أننى قائد مسئول . . أهل مكة أمانة فى عنقى . . نظامنا هنا أمانة فى عنقى . . يجب أن أفكر ألف مرة قبل أن أغامر . . الدم ليس ماء . . لكنه دم يا وحشى . . » .

اقتحمت هند زوجة أبى سفيان المدخل وقالت فى حدة :

- «كـيـف تـسـمح لقـاتـل ولدى وأهلى بالطواف بالبـيـت الحرام؟؟ يقتلوننا، ويعرضون بنا، ويسخرون من ديننا . . ثم يدخلون ليهللوا ويكبروا بين أظهرنا . . الموت ولا هذا . . » .

طأطأ أبو سفيان رأسه حزينًا وقال :

- «قتلنا منهم، وقتلوا منا . . وقريش لن تنكث بوعدها لا لأن النكث عار فحسب، بل لأن الوفاء بالعهد فى ظروف كهذه أمر تفرضه المصلحة العامة . . » .

احتدت هند قائلة :

- «هذا جُبن وخذلان . . » .

- «أنتم تفكرون كأطفال . . » .

وهمت هند بالكلام، لكن أبا سفيان استطرد :

- «لسوف نتحمل الكرب ثلاثة أيام، ويعود بعدها محمد وصحبه إلى المدينة . . وبعدها . . » .

قالت هند :

- «وبعدها العار والفضيحة . . » .

لم يكترث لكلامها بل قال :

- «وبعدها نتدبر أمرنا، لعلنا نصل إلى حل نهائى لهذه الأحزان والاضطرابات . . » .

أمسك وحشى بحربته، ولوح بها فى جنون :

- «لسوف أنقض عليهم، وأظل أقتل فيهم حتى أقتل . . » .

جذبه أبو سفيان من أذنه قائلاً:

- «سأفصل رأسك عن جسدك حينما تزمع عمل شيء يلوث شرف البيت الحرام، والشهر الحرام، والعهد المقدس بيننا وبين محمد..».

وانفلتت هند خارجة، وتبعها وحشي خارجًا إلى طريق آخر..

ومضى وحشي ثائرًا مكتئبًا في شعاب مكة وطرقاتها، إنه لا يطيق الصبر، ولا يتحمل الصمت أو الركون إلى بيته، بل إن الخمر لا تذهب عن باله صورة الزحف الداخل إلى مكة ترفرف عليه ألوية محمد، والعروج على «وصال» لن يخفف من بلوائه، ليس هذا يوم خمر أو يوم عربدة.. لسوف يذهب إلى زعيم آخر من زعماء قريش وقادتها.. إلى عكرمة بن أبي جهل.. ألم يقتل المسلمون أباه يوم بدر؟؟ وعكرمة شاب يتوقد حماسة وحقدًا..

- «ويحك يا عكرمة.. أتطيق أن ترى قاتل أبيك يدخل مكة ويطوف بالبيت الحرام؟؟ أين النخوة والإباء؟؟».

أدار عكرمة وجهه في حيرة وحزن وهتف:

- «لن أرى أحدًا.. لسوف أهرب إلى تل من التلال كي

أوارى أحزانى وعذابى، حتى ينفض السامر، ويعود محمد وصحبه إلى يثرب بعد ثلاثة أيام . . ».

- «الهروب عارٌ يا عكرمة . . لو كان أبوك حيًا لرفض هذا الخنوع . . ».

- «إننا مرغمون على تنفيذ «صلح الحديبية» يا وحشى . . إن قريشًا تخاف على تجارتها ودمها وسمعتها بين العرب . . ».

هدر وحشى :

«هذه علل وتبريرات عقيمة، لم لا تقولون إنكم تخافون محمداً؟؟ إن أبا سفيان قد أقنعكم بمنطقه الهزيل، لو كانت هند مكانه فى الزعامة لصلح حال مكة، ولشمخت بكبريائها إلى عنان السماء . .

ثم أخذ وحشى يلف ويدور كالمسعور :

- «ماذا أرى؟؟ أهذا هو عكرمة؟؟ الناس فى مكة يتخبطون . . إنهم ممزقون لا يجمعهم رأى، ولا تربطهم عزيمة . . ومحمد فى أوج قوته وثباته، أتباعه يأتمرون بأمره، وينقادون لرأيه . ونحن هنا فى تيه . . أهناك مصيبة أكبر من ذلك؟؟» .

قال عكرمة فى صوت خفيض :

- «نحن نعبر عن رأى الناس فى مكة . . لو خرجنا عن إرادتهم لما تبعنا أحد . . ولسخروا منا أشد السخرية . . إنهم يرفضون الحرب، ولا يؤمنون بحرمان محمد من الحج أو العمرة . . فالبيت الحرام للعرب قاطبة . . ونحن مرغمون . . إن دخول محمد فى ألفين من رجاله أمر يؤلمنى ويثير فى قلبى الحنق والكراهية . . .

لوح وحشى بحربته كشيطان أسود :

- «اقتلوا محمداً . . أريقوا دم المسلمين . . اجعلوا عاليها سافلها . . وليكن ما يكون . . هذا أفضل من الرضوخ والاستسلام . . » .

صرخ عكرمة بن أبى جهل فى ضيق :

- «اذهب عنى أيها المأفون . . دعنى وما أنا فيه من غم شديد . . » .

وعاد وحشى إلى الطريق العام، الأحزان تسحق قلبه سحقًا، وعيناه تتأرجحان فى قلق وخوف، والناس يمضون فى الطرقات هادئين مبتسمين وكأن ما سيحدث لا يعنيهم فى كثير أو قليل، تلك هى الهزيمة المرتقبة، والكارثة أن بعضهم ينتظر الغد فى لهفة ليرى قريبًا له : ابنًا أو أخًا أو أبًا أو ابن عم . . ليسعد بمشهده . . وبعضهم يتشوق لرؤية عدوه اللدود

محمد بن عبدالله . . الناس لا يدركون أعماق المأساة، ولا خطر المستقبل الغامض، هذا شأن العامة، أما السادة الكبار، فقد أصيبوا بالعقم فى أفكارهم، والجبن فى إرادتهم، إنهم يخافون نقض العهد، ويحسبون حساب التجارة، ويقيمون اعتبارات كبرى لرغبة الدهماء من الناس . .

أين يذهب وحشى والضيق يطبق عليه من كل جانب، وصدره ضيق حرج كأنما يصعد فى السماء، والدنيا فى عينيه سوداء قاتمة؟؟ أين يذهب كى يجد شيئًا من العزاء والتفريج عن كربته؟؟

وانطلق وحشى إلى «جبير بن مطعم» سيده القديم:

- «مولاى وسيدى جبير . . نذر العاصفة تلمع فى أفق مكة، ورائحة العار والغدر والخيانة أشمها من بعيد . .».

خفض جبير رأسه، وعبث بلحيته وقال:

- «تتحدث عن قدوم محمد لقضاء العمرة . .».

- «أجل . . إنها نكبة كبرى . .».

هز جبير رأسه، وحملق بنظراته إلى بعيد قائلاً:

- «دع هذا الأمر فقد أشقانا بحثه . .».

- «ألا تشعر بالقلق يا سيدى؟».

أدار جبير إلى وحشى وجهًا شاحبًا، وعينين أقضهما التفكير والسهر:

- «لا أشعر بأدنى قلق الآن. . ».

كاد وحشى يصعق وصرخ:

- «كيف؟؟».

- «عندما أتخذ قرارًا يا وحشى، ويستقر رأيى عليه أشعر بالراحة التامة».

- «وما هو قرارك؟؟».

- «قبول ما هو كائن. . لقد أبرمنا الاتفاق مع محمد بإرادتنا، ووافقنا على قدومه للحج أو العمرة طبقًا للتقاليد المتبعة وبقائه هنا ثلاثة أيام، وتأديته الشعائر أمر ميسور. . ».

قال وحشى:

- «الحرب تدوس كل التقاليد والقيم. . ».

رماه جبير بنظرة حمراء وهتف:

- «هذا منطق العبيد والأنذال. . ».

انكمش وحشى ودارت به الأرض، لكأنما سدد جبير إلى قلبه سهمًا مسمومًا، أينقض على سيده ويعتصر عنقه بيديه؟؟ أيفقأ عينيه؟؟ أيبصق على وجهه؟؟ لا . . إن أعظم عقاب

لهؤلاء الحمقى -حسبما يعتقد وحشى- هو أن يظلوا سادرين فى جهلهم وقصر نظرهم وكسلهم حتى يأتى اليوم المشهود، يوم أن يديل محمد سلطانهم، ويذل كبرياءهم.. اليوم الذى تحدثت عنه «عبلة» الفتاة الساذجة..

وانفجر وحشى باكيًا وهو يقول:

- «سيكون يومًا تعسًا يا سيدى..».

كان جبير يلتقط أنفاسه بصعوبة، وأثرت فيه دموع عبده القديم، فعاد جبير يربت على كتفه فى شىء من العطف السامى وهو يقول:

- «لا تبكِ يا وحشى.. إننى لم أعد أرهب المستقبل، إن كان محمد على حق فإن الله سينصره، وإن كان على باطل فسيحفر قبره بيديه، وينال جزاءه.. والرجال الشرفاء لا يرتعدون من المستقبل، ولا يفزعون من الموت.. لسوف نفى بعهودنا ونبقى صامدين فى مواقعنا.. فإن كانت الحرب خضناها أبطالاً.. وإن بقى العهد بيننا وبينه فسيبقى فى مدينته حرًا يفعل ما يشاء، ونبقى نحن فى مكة أحرارًا نحيا كما نهوى، ونعتنق الدين الذى نريد.. والحق يا وحشى أن الحرب لم تحسم القضية، لم نجنِ منها غير الدم والخسران والفقر، ويجب أن نتوقف.. ونلتقط أنفاسنا بضع سنوات وسينجلى

الموقف فى وقت قريب عن نتيجة ذلك الصراع الطويل الرهيب».

قال وحشى وهو يخفف دموعه:

- اعذرنى يا سيدى . . فأنا لا أطيق الانتظار . . وأنا أكره الصبر . . إننى أفضل المضى إلى الأحداث، وأبغض أن أقف جامدًا فى انتظارها . . إن الذى ينتظر الأحداث حتى تأتيه يتعرض غالبًا للدمار والإحاطة به . . لكن الذى ينفر إليها ويجابهها يفجؤها ويتحكم فيها، ويفرض إرادته عليها . . ».

رمقه جبير بنظرة تقدير، وقال:

- «إنك على جانب كبير من الصواب . . لكن ليست هناك أحداث لنهرع إليها . . أنت تريدنا أن نصنع أحداثًا ثم نجرى إلى ما صنعه الوهم . . ».

رفع وحشى رأسه قائلا:

- «مجىء محمد يا سيدى ليس بريئًا . . إنه سيحقق بذلك كسبًا مذهلا . . أيخفى عليك ذلك؟؟».

قال جبير فى شرود:

- «أعرف . . لكن العداء لمحمد بين العامة قد خفّت حدته . . العداء لا بد أن يظل متقدًا حتى يحرك القلوب والسيوف».

هتف وحشى :

- «انفخوا فى نار الحقد . . » .

- «نفخنا حتى كادت تتقطع الأنفاس . . » .

- «الناس يريدون القدوة . . أطلقوا صيحات الثأر . . ترنموا بأراجيز القتال ، وليحشد أحدكم رجاله ويطلق النفير ، ويرفع اللواء . . الناس عاطفيون وسيهرولون إليكم من كل فج . . » .

ابتسم جبير فى مرارة وقال :

- «هذه أحلام . . الناس لم ينسوا مأساة غزوة الأحزاب . . لقد احتشدت القبائل أمام الخندق الذى حفره محمد عند أبواب يثرب مدة طويلة . . لشد ما آلمهم البرد ، وأزعجهم صمود محمد والقلة الأشداء من رجاله . . كنا أكثر من اثنى عشر ألفًا . . لكننا عدنا بخفى حنين . . واستأصل محمد بعدها شأفة يهود بنى قريظة ، وقتل زعيمهم حيى بن أخطب جزاء نقض العهد والخيانة . . لقد قمنا يا وحشى بجولات جبارة ، وكل مرة كنا نعد الناس بأننا سنقضى على محمد القضاء الأخير ، وأننا نخوض آخر معركة ، وأن الرخاء سيعود ، والتجارة ستتفتح أمامها الأبواب من جديد إلى الشام ، ويعم السلام والأمن . . ولكن لا فائدة . . لم ننجز ما وعدنا به . . ونعود من معركة لنعدّ لمعركة جديدة . . تلك هى الحقيقة يا وحشى . . » .

تحامل وحشى على نفسه، وانسل فى هدوء حزين يائس وعاد إلى الطريق العام. . الطريق المقيت. . المكتظ بالبلهاء الهادئين الباسمين. . وضحك وحشى فى بلاهة وهو يخاطب نفسه:

- «تنتصر عبلة وأفكارها وينهزم وحشى. . الساذجة المخدوعة تتفوق على الألمعى الحر، الخبير بشئون الحياة ودروبها الملتوية. أحقًا يأتى محمد ويطوف. . ثم. . يأتى مرة أخرى بعد عام. . وعامين أو ثلاثة. . وتدين له مكة. . ثم يميل برأسى فى الأوحال، ويهوى بسيفه عليها؟؟».

إن رأسه يكاد ينفجر. . والخمر وحدها لا تشفى آلامه. . هناك فى البؤرة العفنة عند المومس التى تبيع شبابها ولياليها، وتغدق المتعة والسلوى لكل القاصدين. . هناك عند «وصال» قد يجد الوصال. .

استقبلته قائلة:

- «أيها الشارد طالت غيبتك. .».

- «أنستنى الأحداث وهموم الحياة أفراح قلبى. .».

- «وهل تعرف الأفراح يا وحشى؟؟».

رمقها بنظرة حزينة وقال:

- «سيدخل محمد مكة . . ويقضى بها ثلاثة أيام يا وصال».

قالت دون اكتراث :

- «هذا نبأ قديم . . ».

- «وستخلى قريش المدينة للرجل الذى أفسد أمرها، وأزعج أمنها، وأثار البلبلة فى نواديها ومسامرها . . ».

- «وما شأننا بهذا كله؟؟».

صرخ فى ضيق :

- «إنه مصيرنا يا وصال».

- «ليس هناك أسوأ مما نحن فيه . . ».

- «ألا يهمك هذا الأمر؟؟».

هزت كتفيها فى استهانة وقالت :

- «لسوف أصعد جبل «أبى قبيس» أو أصعد أسطح المنازل، أو أتسلق شجرة وأشهد ما يجرى . . لشد ما أنا متشوقة لرؤية هذا الموكب!! الحقيقة أننى أريد أن أرى محمداً ورجاله وأرى ما يصنعون . . إنه شىء جديد يبدد ما نحن فيه من ملل وجمود . . الركود يعطى الحياة هنا طابعًا سمجًا لا أطيقه . . نفس الأحاديث والوجوه والحماقات . . ».

قال وحشى :

- «أتعتقدين أن حدثًا كهذا يبدد غيوم السأم والركود؟؟» .

- «بالطبع . . » .

- «وجهة نظر ساذجة . . أنت تفكرين بعقل امرأة فارغة» .

- «لن أخسر شيئًا . . » .

- «بل ستخسرين مرضاك يا طبيبة الضائعين . . لئن جاء محمد فسيسخر دخلك . . » .

- «لقد مللت تجارة المتعة» .

- «ولم لا تقولين أنك ضقت ذرعًا بمرضاك وبالرسالة (النبيلة) التى تؤدينها؟؟ هل تغيرت وجهة نظرك؟؟» .

قالت فى ضيق :

- «دعنا من الجد . . » .

شرد بضع لحظات ، ثم أخذ يترنم بشعر امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

علىّ بأنواع الهموم ليبتلى

ثم قطع ترنمه فجأة حينما قالت وصال :

- «ألا نستطيع أن نأخذ الحياة على علاتها ، ونرضى

بالمقسوم؟؟».

قال وحشي وهو يهز رأسه في يأس:

- «لم أستطع.. طوال حياتي وأنا أبحث عن موقف.. لا أعرف إلا الانحياز. جربت كثيراً أن أقف بين بين ففشلت.. هذا هو سر عنائي..».

قالت وصال:

- «لكن التزامك بموقف ما قد يبعث في قلبك الهدوء والاطمئنان..».

- «لم يحدث ذلك..».

- «يبدو أنك كنت تتخذ الجانب الخاطئ..».

أدار وجهه بسرعة إليها وقال:

- «الصواب هو ما أراه أنا.. ولو أجمع الناس على فساده».

- «لذا ستظل شقيًا طول حياتك..».

قرّب وجهه منها وقال:

- «أريد أن أشرب وأشرب حتى يمتلئ جوفي بالخمر وتفيض حتى حلقي.. أتفهمين؟؟».

قالت وهي تنهض متكاسلة:

- «والآن لنبدأ رحلة الغيبوبة والهروب..».

- «قبل أن يطيح سيف محمد بالآمال المتبقية لى فى الخمر والنساء..».

وجرع الكأس الأولى دفعة واحدة، وكذلك الثانية والثالثة ثم قال بعد فترة صمت امتدت لدقائق:

- «لو كنت المتصرف فى هذا الكون لجعلت من جبير وعكرمة وأبى سفيان عبيداً..».

ثم أخذ يقهقه فى جنون والدموع تطفر من عينيه..

●●●



وجاء اليوم المشهود، وجلس «وحشى» على تل مرتفع يستطيع أن يرى من فوقه ما يجرى داخل مكة، وعند البيت الحرام خاصة، وخرجت قريش تاركة مكة وآوت إلى مرتفعات «حراء» و«أبى قبيس» وغيرهما، وجاءت اللحظة الحاسمة . . ها هو محمد يدخل راكبًا ناقته «القصواء»، ويأخذ بخطامها عبدالله بن رواحة، وعندما أشرقت طلعة محمد دق قلب وحشى دقًا عنيفًا، وداخله رعب مبهم . . ووحشى برغم اضطرابه يستطيع أن يميز المهاجرين . . هؤلاء الذين تركوا ديارهم وأموالهم فى مكة منذ سبع سنوات . . وانفرجت شفاه الرجال حول محمد هاتفين بصوت قوى وقد لاح البيت الحرام :

- «لبيك . . لبيك . .» .

وقال الرسول لابن رواحة :

- «مهلاً يا ابن رواحة، وقل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده. .».

ودار رأس وحشى وهو يسمع الهدير العالى، وتضاءلت نفسه حتى شعر أنه لا شىء. . وسمع أحد المشاهدين إلى جواره يقول:

- «إن رجال محمد أقوى ما يكونون عزمًا وإيمانًا وبأسًا. . وقد زعم الزاعمون أنهم يعانون الضعف والسقم والجوع. . والله لن يغلب جيش فيه محمد وفيه هؤلاء الرجال. .».

قال وحشى والعرق يسيل على وجنتيه:

- «إنه عار لا يُمحى. . ترون ذلتكم بأنفسكم ولا تتحركون. .».

- «أى عار يا وحشى؟؟ إنهم يعبدون الله بطريقتهم. . والبيت الحرام للجميع. .».

وتوقف وحشى عن المناقشة. . ماذا يرى؟؟ إنه لا يكاد يصدق، هذا هو «بلال الحبشى». . بلال يصعد الكعبة مرفوع الهامة. . الجميع يصمتون، وينادى بلال بأعلى صوته مؤذنًا: «الله أكبر الله أكبر» وصوته الندى يأخذ بمجامع القلوب. . الناس يخشعون ويرددون الأذان فى صوت خفيض. . «الله أكبر الله أكبر». . . ورجال قريش وشبابها وفتياتها يستمعون

للنبرات الندية وقد شجت الوجود . . وهوّم على الجميع حنان وشوق غريب . . وبلال يمضى فى أذانه «أشهد ؟أن لا إله إلا الله . . » يقول ذلك وعشرات الأصنام تعلو الكعبة ، وهاج وحشى وماج :

- «هذا بلال قاتل أمية بن خلف أحد ساداتكم . . إنه يشهد أن لا إله إلا الله . . ويسخر بقوله هذا من آلهتكم العديدة . . » .

فلم يجبه أحد ، فصاح :

- «لم تصمتون؟؟» . رد عليه رجل قرشى :

- «إن ما تقوله خبر قديم معروف . . » .

- «أيها الموتى . . متى تتحركون؟» .

ودفعه الرجل فى ظهره قائلا :

- «كف عن الثرثرة . . » .

وظل وحشى مسمراً مكانه ، يسدد نظرات ثابتة إلى جموع المسلمين وهم يؤدون الشعائر فى خشوع ، يتحركون فى نظام وكأنهم رجل واحد ، ويعبدون الله فى شغف وكأن قلوبهم معلقة بخيط لا ترى إلا ذات الله ، وعلى الوجوه بسمة لا تموت واطمئنان من نوع غريب . . وعلى الرغم من أن بلالا

أدى الأذان، ونزل إلى صفوف المسلمين إلا أن وحشيًا لم يستطع أن يمحو صورته من ذهنه، وغمغم وحشى لنفسه: «تفرقنى الأحزان، وتعتصرنى الهموم، والحيرة تمزق قلبى.. وأنت يا بلال تنهض وتمضى فى كبرياء.. وكأنك سيد من السادة.. لكأنك ولدت حراً.. أنت الذى تدعو إلى الصلاة فيأتمرون بأمرك.. وتقترب من محمد فيفسح لك الطريق، وتؤدى الصلاة خلفه مباشرة.. هل أنت سعيد يا بلال؟؟ أم أن قيداً من نوع لا أعرفه قد قيد رجليك، وغلل يديك؟؟ إننى لا أعرف.. لم أعد أصدق شيئًا أو أفهم شيئًا.. لكنى أحسن منك حالاً.. تقول: لا؟؟ كيف؟؟ أنا انتزعت حريتى بيدى.. أنا قاتل حمزة، لم يستطع أبطال مكة وفرسانها أن يفعلوا ما فعلت.. أنا الذى ملأت قلب محمد بالغيظ، وأنزلت الحسرة فى قلوب المسلمين، وطوقتهم بطوق الأحزان.. أنا فاعل ذلك كله يا بلال..».

وكاد وحشى يصاب بالذعر حينما سمع رجلاً إلى جواره يقول:

- «هذا هو بلال العبد الحبشى يصعد أعلى وأشرف مكان فى البيت العتيق..».

زمجر وحشى:

- «أنتم الذين مكتتموه من ذلك».

- «بل رفعه الله يا وحشى . . ».

هدر وحشى كشيطان متمرد:

- «الله لا يرفع ولا يخفض . . إن حماقتنا هى التى جعلت بلالاً يقتعد هذه المكانة المقدسة . . ».

- «خسئت يا وحشى . . ».

استدار إليه وحشى قائلاً:

- «ماذا تقول؟؟».

- «إذا كان الخالق لا يخفض أو يرفع فمن يفعل ذلك؟؟».

- «لكأنى أسمع صوت مسلم . . ».

- «تخيل ما شئت . . إن الغرور والجهل قد أعمياك عن إدراك البديهيات، أو تظن نفسك إلهًا؟؟ ألا تسمع ما يقول المسلمون «نصر عبده» . . محمد عبد من عبيد الله وبلال عبد من عبيد الله . . إنهم يا وحشى الأحمق يعنون ما يقولون ونحن نتخبط كالمجانين . . . ».

وصرخ وحشى:

- «يا معشر قريش هذا رجل يكتم إسلامه . . ».

استدارت نحوه مئات العيون، وأخذوا يستمعون إليه وهو يروى ما حدث فى حماس بالغ، وما إن انتهى من قوله حتى انصرافوا عنه، ولم يسمع إلا تعليقًا مقتضبًا من أحد المشاهدين يقول:

- «لا تفسد علينا متعتنا يا وحشى بالله عليك..».

●●●

ومرت أيام ثلاثة أدى فيها المسلمون شعائرهم، وعاد المهاجرون يسيرون هنا وهناك، يزورون الأماكن التى ولدوا فيها، والبيوت التى شبوا بين جدرانها، ويتنسمون عرف الأرض الطيبة التى درجوا عليها ردحًا من الزمان قبل أن يلجئهم الطغيان والاضطهاد إلى الهجرة فى سبيل الله، وفى الليل يسمرون يذكرون أيام طفولتهم، وجميل ذكرياتهم.. كان التجمع الإسلامى الزائر يسير على نهج قويم خلال الأيام الثلاثة، يتخلقون بأخلاق الإسلام، فلا يسكرون ولا يعربدون، يؤدون كل يوم صلواتهم، ويقتلون غرور أنفسهم، ويعين قويهم ضعيفهم، ويبر غنيهم فقيرهم، والنبى يتنقل بينهم كالأب المحب الحنون، وقريش وسائر أهل مكة يطلون من منازلهم فوق السفوح على هذا المشهد الفذ فى التاريخ، يرون رجالاً هذه أخلاقهم، لا يشربون خمرًا، ولا يأتون معصية، ولا يغريهم الطعام ولا الشراب،

ولا تفتنهم فى الحياة فتنة . . . أى أثر يترك هذا المنظر الذى سما بالإنسان إلى ما فوق أسمى مراتب الإنسان؟؟ ووحشى إزاء هذه المشاهد ممزق ضائع، يستهويه عظمها، ثم يدهمه الحقد، فينطلق ليورث الأحقاد، ويذكر قريشًا بثاراتها، ويشحن النفوس بالبغضاء، لكن قريشًا لا تستجيب لشىء من ذلك . .

ورأى وحشى خالد بن الوليد يقف وحده مفكراً على تل قريب، هرول إليه وحشى، وحياه فلم يلتفت خالد إليه واكتفى برد موجز على التحية . . .

- «يا فارس بنى «مخزوم» . . ومحقق النصر على المسلمين يوم أحد . . هذا يوم لا ينسى . . ستذكره الأجيال بالحسرة والهوان . . ».

استدار إليه خالد ورماه بنظرة شذراء دون أن يتكلم :

- «أعلم أنك يا خالد -كرجل حر ذى كبرياء- يؤذيك ما يحدث اليوم . . ».

وبدرت دمعتان من عينى خالد وأخذ يردد فى شرود :

- «لبيك . . لبيك . . لا شريك لك لبيك . . ».

قهقه وحشى وقال :

- «أتسخر من المسلمين ومن كلماتهم؟؟ هذا لا يكفى . . اختطف سيفك واقذف بنفسك فى المعمعة . . » .

ولم يكترث خالد لقوله ومضى يردد :

- «لا إله إلا الله وحده . . صدق وعده . . ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . . » .

استبد الشك والخوف بوحشى ، فهتف فى إشفاق :

- «خالد . . ماذا جرى لك؟؟» .

انقض عليه خالد ، وأخذ بتلابيبه ، ثم هتف :

- «اسمع يا عبد السوء . . أتعرف شيئًا عن الله؟» .

- «أى إله؟؟ أنا لا أعرف إلا الخيبة التى حطت علينا ، والرعب الذى يسود أشرافنا؟؟» .

قال خالد وعيناه تتقدان حنقًا :

- «أتعرف شيئًا عن محمد؟؟» .

ارتجف وحشى ، وخاف أن يبطش به خالد ، فقال بعد تفكير :

- «رجل حسن السمعة ، حلو الشمائل ، أمين . . » .

- «أمثل هذا الرجل يفترى على الله الكذب؟؟» .

قال وحشي وهو يرتجف:

- «أنا لا أنظر إلى الأمــر من هذه الزاوية. . لا يهم أمــر محمد كفرد. . وإنما الذى يشغلنى هو الأمر الأكبر. . النظام الذى يتقوض. . القيم التى يريد تحطيمها، التعالى بدينه ومبادئه. .».

دفعه خالد بعيداً وقال:

- «أنتم تكذبون، وتتلاعبون بالألفاظ. .».

رماه وحشي بنظرة فاحصة خبيثة وقال:

- «لماذا امتشقت سيفك وحاربت محمداً طوال المعارك الماضية؟؟».

- «لم أسأل نفسى هذا السؤال إلا الآن. . وأنا أبحث عن جواب يقنعنى، ويمدنى بشىء من اليقين. .».

ثم صرخ خالد:

- «اذهب عنى وإلا قــــدفت بك إلى بطن ذلك الوادى السحيق. .».

●●●

مرت الأيام الثلاثة. . وأخذ المسلمون يرحلون إلى يثرب،

وأخذ النسوة والرجال والأطفال يتطلعون من فوق قمم التلال إلى الركب العائد، وفى مقدمته محمد على ناقته «القصواء» والنشيد الحلو يتردد فى الآفاق «لا إله إلا الله وحده، وصدق وعده. . . . .».

ويرين الصمت على مكة وينحدر القرشيون من القمم قاصدين دورهم فى صمت رهيب. . يكتمون الآهات، ويخفون الدموع. .

وتمتم وحشى بينه وبين نفسه وهو يشهد هذه التطورات الخطيرة «هذا يوم له ما بعده». . . وهرول إلى وصال. . هناك الدواء والسلوى. .

وجدها تقف لدى الباب شاردة حزينة شاحبة، قال:

– «هيا بنا».

– «إلى أين؟؟».

– «لنشرب. . لنغرق الأحزان فى طوفان المتعة والكأس».

قالت وعيناها محملقتان:

– لن أبيع. . ».

– «لا أفهمك. . ».

- «حطمت الكئوس، وأحرقت الفراش الملوث . . ».

- «وصال . . هل جننت؟؟».

- «اذهب عنى . . ».

- «لم يبقَ لى إلاك».

قالت:

- «مللت العذاب . . ».

- «أنا أيضًا . . ».

- «والنفاق . . . ».

- « . . . . ».

- «أريد أن أغتسل من هذه الآثام والمبادئ العقيمة . . ».

اكفهر وجهه وصاح فجأة:

- «أيتها المومس الرخيصة . . ».

اشتد شحوب وجهها وقالت:

- «سامحك الله . . كان فى إمكانى أن أرد عليك بنفس الطريقة . . ».

ودفعها إلى الداخل وهو يقول:

- «إننى أستطيع أن أرغمك على أى شىء أو أسحقك تحت قدمى هاتين. . ».

- «لا تستطيع. . . ».

دار رأسه، تذكر عبلة والعناد والكبرياء الملعونة. . نفس القصة تتكرر، هذا الزمان قد فسد فيه كل شىء، لا بد أن زلزالا عنيفًا سينفجر ويجعل عاليها سافلها.

قال وهو يمسك بمعصمها بقوة:

- «أتميلين إلى الإسلام؟؟».

ضحكت فى مرارة وقالت:

- «لن يكون لديك فرصة للوشاية بى كما صنعت بعبلة».

- «لا أفهم. . ».

قالت:

- «من أبسط حقوقى أن تتركنى وشأنى. . أريد أن أخلو إلى نفسى. . هل تحرمنى هذا الحق؟؟ إن إصرارك معناه مضايقتى وسيكون سهرنا مملاً متوتراً. . كن عاقلا يا وحشى ودعنى الليلة. . سنلتقى فى الليلة القادمة. . ».

قال وقد هدأت اضطراباته:

- «وكيف أصبر؟؟ أنت تعرفين».

- «تعلّم . . لقد صبرت السنين الطويلة تحت سياط العبودية والقهر . . ».

- «آه . . لقد استنفدت تلك الليالى كل رصيدى من الصبر . . . ».

ثم سادت فترة صمت قال بعدها :

- «يا وصال . . لا أريد كأسًا ولا متعة من نوع رخيص . . أريد إنسانًا يجلس معى . . أشعر معه بالمؤانسة والعزاء . أنا كالغريق . . . ».

رفعت رأسها فى أسى وقالت :

- «مسكين أنت يا وحشى . . أنت ككل الضائعين لا تعرفون من الحياة إلا الأكل والشراب والمتعة الرخيصة ، دعنى اليوم . . . ».

ولما وجدها على هذه الحال وكان أن مر بعض المارة ، واعدها فى الليلة التالية . . ورجع أدراجه مطأطئ الرأس .

●●●

فى الليلة التالية عاد وحشى إلى وصال . . دق الباب . . . كان البيت خاويًا تصفر فى جنباته الريح ، وتمتمت امرأة عجوز تجر ساقيها جرًا ، كانت تمر فى تلك الساعة :

- «عد من حيث جئت..».

- «لماذا؟؟».

- «لقد رحلت إلى حيث لا يعلم أحد..».

وخذلته ساقه فارتمى على عتبة الباب... والدموع تتساقط من عينيه.

●●●



قضى «خالد بن الوليد» قائد فرسان قريش، وبطلها العظيم، ليالي وأيامًا وهو نهب للأرق والحيرة الممضة، أفكاره تجوب مكة وأحداثها، وتنطلق إلى يثرب ترقب ما يحدث فيها، أجل . . . كان يلقي نظرة شاملة على كل ما حوله، ثم يستعيد الأيام الخوالي بذكرياتها . . يذكر يوم «أحد» . . تلك المعركة الهائلة التي كادت تدور الدائرة فيها على قريش، ويذكر كيف قام بحركة الالتفاف البارعة بعد أن انصرف رماة النبل من المسلمين عن مواقعهم . . فحقق خالد بذلك أعظم نصر تغنى به المشركون، وأنقذ جيوشهم من فناء محقق . . وقريش تحفظ له هذه المكرمة، ومن يومها وهو ذو مكانة عليا بينهم، وذو تقدير خاص يرضى كبرياءه، ويشبع غروره . . وخالد يذكر ما حدث يوم الأحزاب . . ويذكر العام الفائت قبيل عقد «صلح الحديبية» بين محمد وقريش . . كان يقود عددًا من الفرسان، ويريد حرمان محمد ورجاله من زيارة

البيت الحرام. . ومحمد كان قد خرج حاجًا لا محاربًا. . ولهذا رفض الرسول الالتحام بقريش، وتجنب طريقهم. .

وتمتم خالد بينه وبين نفسه: «لماذا أخدع نفسي؟؟ لم أكن أحارب من أجل مبدأ. . أجل كنت أمارس هواية الحرب وأجرب براعتي وأبتكر. . فلا أجني سوى متعة الهواية، وطرافة التجربة. . وأي مبدأ كنت أدافع عنه؟؟ لم يكن لقريش دين واضح مقنع. . ولم يكن لدى كبرائها صورة معينة عن المستقبل والحياة والله وعلاقات البشر. . اللهم إلا تلك الصورة العتيقة الجامدة. . لقد ذابت شخصيتي في خضم التصور الأحمق الذي يصنعه رجالات مكة وأعلامها. . الكلمات الجوفاء الطنانة تطغى على كل شيء، ولا تحدد أمرًا، أو تعطي مفهومًا مقنعًا واضحًا. . لكني لا أستطيع أن أقارن بين ما يجري في مكة وما جرى بالأمس القريب عندما قدم المسلمون زائرين ومعظمين للبيت الحرام. . القادمون من يثرب كتلة واحدة متماسكة، قد تجمعوا حول كلمات واضحة قوية قد شكلت نفوسهم وسلوكهم. . يتصرفون عن بصيرة ويقين، ويتحدثون عن إيمان وثقة. . يظلهم جو رائع. . إن قلبي يهفو لهذا المشهد العظيم، ونحن -قريش- كنا نقتعد قمم التلال وفروع الأشجار نبحث في هذا التجمع الإسلامي الفريد عن أنفسنا. . عن مبادئنا، عن الصورة التي نحلم

بهـــا . . عندئذ تضــاءلت نفــسى . . صــغــرت أمــام عــينى الانتـصارات التى حققـتها، والبطولات التى يتـحدث عنهـا الناس . . سمعت محمداً يتكلم . . وأسفاه لماذا لم أسبق إلى صحبته منذ زمن بعيد؟؟ وسمعت أبا سفيان يتكلم فألم بى الضيق والغثيان . . ما أبشع الفارق بين «الله أكبر» و«اعل هبل» إننى لأشعر الآن بالخزى والعار ومرارة الذكريات . .

لم يعد خالد يطيق الصبر، إن عقله يفور ويغلى، وقلبه يضرب ويضج، وروحه تتشوق إلى أشياء تتسلط عليها، لا يستطيع منهـا فكاكـًا . . وخرج خـالد إلى الشـارع يتنفس الهـواء . . ويرقب الحركة الموارة . . كل شىء يمضى فى مكة بارداً سقيمًا . . لا حرارة ولا حيوية ولا حماسة، والتلال المحيطة بها تقبع تحت وهج الشمس والصمت والغباء . . الناس يعرفون الحقيقة، لكن الخوف يلجمهم، فيمضون فى الطريق وكأنهم لا يبالون بشىء . . هو يعرف أن فى نفوسهم زلازل وعواصف . . لم يكن خالد ليصدق أن هؤلاء الناس يمكن أن يهرعوا من جديد إلى معركة . . إلى حرب مع محمد . . إنه قائد متمرس محنك . . ينظر إلى العيون، ويتسمع إلى الهمسات والتعليقات العابرة، فيأتيه الانطباع الصادق عن الشعور العام . . الآن يؤمن خالد أن محمداً قد انتصر . . أجل . . انتصر على الرغم من أنه لم يزل مهاجراً فى

يثـرب، وعلى الرغـم من أن مكة لم تزل تحت سلطان قـريش وسطوتهـا . . إنه يرى على الوجـوه سـخطًا وتبرمًـا، وبالأمس كـانت الإشـراقـة الحلوة تلون الوجـوه التى تتطلع من أعـالى التـلال إلى موكب المؤمنين وهم يرددون «لبيك . . لبيك . . » أجل . . لو لم يأتِ مـحـمـد غـازيًا إلى مكة . . لهـرول إليـه الألوف من سكانها يشهدون أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، ويبـايعونه على المنشط والمكره كـما فـعل الأنصار من قـبل . . آه . . لئن بقى قادة قريش سادرين فى غيهم ولهوهم لصدمتهم الحقيقـة المرة، ولأفـاقوا ذات يوم فـوجدوا عـامة الناس وقد انصرفوا عنهم، وبقوا هم وحدهم أذلاء ضائعين وحيدين . . إنها العزلة القاتلة التى يقاسى منها القـادة حينما يصرفهم العمى العقلى، والغرور الأجوف عن إدراك الحقيقة . .

وفى الطريق رأى خـالد «وحشى بن حرب» وهو يتطوح من السكر ويقهقه فى جنون :

- «هل سـمـعـتم الخبر؟؟ أسلمت «وصـال» . . الداعـرات يؤمن بمحمد . . أسلمت «وصال»، وهجرت الديار . . وبقيت وحدى ألوك الأسى والأحزان . . » .

وتجمع حـول وحـشى عـدد من المارة يمـرحـون ويـسـخـرون ويتسلون . . وقال أحد الساخرين :

- «لقد عشقت محمداً فشدت إليه الرحال . . » .

التفت إليه وحشى فى بلاهة لشدة ما به من سكر وقال :

- «إنها عربيدة . . » .

- «الإيمان يُجبُّ ما قبله يا وحشى ويمحو خطايا الماضى» .

لوح وحشى بسبابته معترضًا وقال :

- «لا . . لا . . إن خطاياها من النوع الذى لا يمحى . . وعندما يراها محمد فسيجلدها مائة جلدة . . بل ألف ألف جلدة» .

واستطرد وحشى وهو يترنح ويبكى :

- «قلت لها لا تتركينى يا «وصال» كما تركتنى «عبلة» ، كونى إلى جوارى يا وصال . . فأنا المعذب الحزين . . وأنت صاحبة الفضيلة . . أنت السلوى والحنان والبلسم الشافى . . » .

صاح أحدهم ساخراً :

- «أيها الداعر الرعديد . . » .

- «لم يكن لى فى هذه الديار صديق إلا وصال وحربتى» .

رد أحدهم مازحًا :

- «يكفيك حربتك . . » .

صاح فى حدة :

- «لا . . إن حربتى قد أقتل بها أعدائى من البشر . . لكنها لا تنفع فى قتل التعاسة والأحزان . . أنا قوى قادر . . لكنى حزين . . لم يهزمنى إلا الحزن أيها الناس . . آه . . لو كان الحزن رجلاً لقتلته كما قتلت حمزة بن عبد المطلب . . . آه . . ها هو حمزة . . إننى أراه . . أطفئوا ابتسامته . إننى أكرهها . . السيوف تحاصرنى من كل جانب . . أبعدوا شبح حمزة عنى . . أتضحكون أيها الحمقى؟؟ واكرباه . . لا أحد ينهض لنجدتى . . » .

ثم أخذ يجرى ويتخبط هنا وهناك، ويدفع هذا، ويجذب ذاك، حتى انهارت قواه، فارتمى على الأرض ككلب جريح يعوى . . وسمع الواقفون صوت خالد يدوى كالرعد :

- «أيها الناس . . إلىّ . . أيها الناس . . » .

فهرولوا نحوه، تاركين وحشيًا ملقى وحده على قارعة الطريق، وساد الصمت برهة، وخالد يشمخ وسطهم بهامته المديدة، ووجهه المحتقن، ولحيته المرتجفة . .

وقال خالد بصوت ثابت قوى النبرات :

- «لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر. . ولا شاعر. . وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق على كل ذى لب أن يتبعه. . ».

وكان عكرمة بن أبى جهل، صديق خالد الحميم، وأحد قادة قريش البارزين قادمًا عن كثب، فسمع ما قاله خالد، فاقترب منه وقال:

- «لقد صبأت يا خالد. . ».

- «لم أصبأ ولكنى أسلمت يا عكرمة. . ».

- «والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت».

قال خالد فى دهشة:

- «لم؟؟».

- «لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح، وقتل عمك وابن عمك ببدر، فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد. أما رأيت قريشًا يريدون قتاله؟؟».

زمجر خالد:

- «هذا أمر الجاهلية وحميتها، لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق».

كان وحشى السكران يسمع ولا يكاد يصدق. هز رأسه

مرات وفتح عينيه جيداً . . ثم أخذ يحبو صوب الجميع وتمتم في ارتجاف :

- «ماذا يقول خالد؟؟» .

جاء صوت يقول :

- «أسلم ابن الوليد وتبع محمداً على دينه . . » .

صاح وحشى برغم ثقل لسانه :

- «لقد فعل ما فعلته عبلة ووصال . . » .

ثم احتد قائلاً :

- «إن كان صادقًا فى قوله فاقتلوه قبل أن يشيع أمره» .

فركله أحدهم بقدمه قائلاً :

- «ثكلتك أمك ، ألديك رأى يقال أيها العربيد الأحمق» .

- «أنا؟؟ أنا قاتل حمزة . . » .

- «لم يعد ذلك ميزة ترفعك ، بل صار وزراً وعاراً يمرغك فى الأوحال أبد الآبدين . . » .

قال وحشى فى بلاهة :

- «وزراً وعاراً؟؟» .

وحدثت ضجة واحتدم جدل صاخب وخالد يشرح وجهة

نظره، وفى خلال ذلك أتى رسول من أبى سفيان يطالب خالداً على عجل، فانطلق خالد بهامته المديدة صوب بيت زعيم مكة الأكبر، وكان أبو سفيان يقف فى انتظاره مضطرب الأنفاس. وعندما وقعت عيناه عليه قال:

- «أحقًا ما بلغنى عنك يا خالد؟؟».

- «أجل..».

استبد بأبى سفيان الغضب وقال:

- «واللات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت به قبل محمد..».

قال خالد:

- «فوالله إنه لحق على رغم من رغم!!».

فاندفع أبو سفيان فى غضبه نحوه، فحجزه عنه عكرمة الذى قال:

- «مهلاً يا أبا سفيان.. فوالله لقد خفت للذى خفت، أن أقول مثل ما قال خالد، وأكون على دينه.. أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه، وقريش كلها تبايعت عليه.. والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم..».

أطرق أبو سفيان.. ثم عاد منصرفًا إلى داخل الدار. كل

الذى أقامه وبناه وأقام من نفسه حارسًا عليه ينهار . . يتحول إلى أنقاض . . ومحمد يجلس الآن فى يثرب ، يقرأ القرآن ، ويدعو إلى الله ، ويضع القواعد والقوانين ، وينظم ملكًا لبنى هاشم . . إن أبا سفيان لا يطيق التفكير فى مثل هذه الأمور . . محمد فى يثرب ينتصر ويقوى دون أن يتحرك من مكانه . . ومكة هنا تحتدم بالجدل والثورة والتمزق والوهن . . الخيبة تتجلى لأبى سفيان بوجهها البشع . . وعكرمة بن أبى جهل يعود إلى بيته حزينًا كئيبًا . . وبرغم دفاعه عن خالد ، وإدراكه لما يجرى من أحداث فى مكة ، برغم ذلك فقد بقى مصراً على كفره لا اعتقاداً فيما يؤمن به ، ولكن كبرياء وحقداً . .

ووحشى ملقى على جانب الطريق يهذى كمحموم :

- «أسلمت عبلة . . وتبعتها وصال . . ومن خلفهما سار خالد بن الوليد . . » .

ثم صاح بأعلى صوته الجريح :

- «يا ابن الوليد . . إن بلغت «يثرب» فأقرئ عبلة ووصال السلام . . وقل لهما لم تركانى وحيداً أتعذب . . والعنهما لعنًا كبيراً . . » .

ثم أجهش بالبكاء . .



هرول وحشى إلى «عكرمة بن أبى جهل» . . لقد انفض السامر من حول وحشى، ولم يعد له سوى عكرمة، يجالسه ويجاذبه أطراف الأحاديث طوال الشهور الفائتة، لقد اشتدت كراهية وحشى للناس، إنهم يسخرون منه، ويضحكون على تصوراته كلما أكثر من الشراب وغاب عقله، وارتمى على جانب الطريق، وتزداد سخريتهم كلما رأوه خائفًا مذعوراً عندما يتوهم أن شبح حمزة بن عبد المطلب يطارده . . ولعل ما جمع بين وحشى وعكرمة هو الحقد المقدس الذى يكنانه لمحمد ودعوته، ودمهما الذى أهدره محمد . . .

ووحشى يهرول إلى عكرمة اليوم وهو فى أوج سعادته ونشوته، إنه يحمل إليه أنباء سارة سوف تثلج قلبه، وتنعش أمله . وعندما التقى الصديقان، لوح وحشى بيده من بعيد وصاح :

- «جئتك بأعظم الأنباء . . ».

- «تعطل السيف يا وحشى، ولم يعد لدينا سوى الكلام».

- «كنت أرعى الإبل والشاة، وجدت رهطًا قادمين من مكة يحملون أنباء مهمة . . أنتم تعلمون أن محمدًا قد جرد حملة لحرب الرومان فى الشام . . تصوروا . . ثلاثة آلاف من المسلمين ذهبوا ليحاربوا مائة ألف من الروم فى «مؤتة» هل هذا شيء يصدقه عقل؟؟».

قال عكرمة وقد بدأ الاهتمام على وجهه :

- «أوجز الخبر، ثم فصله بعد ذلك . . ».

- «قتل الرومان قائد الجيش زيد بن حارثة . ثم قتلوا القائد الذى يليه جعفر بن أبى طالب، ومن بعده القائد عبدالله بن رواحة، ثم تولى القيادة خالد بن الوليد . . ذلك الصابئ . . ».

قال عكرمة وقلبه يدق :

- «هل قتل هو الآخر؟؟».

- «ليت الأمر كان كذلك . . ».

- «ماذا جرى؟؟».

- «حاول إنقاذ بقية المسلمين، وفر هاربًا إلى يثرب . .

وأهل يثرب يحثون فى وجوههم التراب ويقولون لهم يا فُرّار . . » .

أشرق وجه عكرمة وقال :

- «إنها ضربة فى الصميم . . لقد توهمتم أن محمدًا أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يخضع العرب جميعًا . . » .

وهنا دخل رجل من قبائل بنى بكر وهم حلفاء قريش فأسرع يقول :

- «لكنكم نسيتم أن عديدًا من القبائل تفد إلى يثرب وتعلن إسلامها . ومحمد يتسع نفوذه ويستشرى سلطانه . . » .

قال وحشى :

- «ولهذا أقول إن هذا هو أنسب الأوقات لضرب محمد وإلا ضاعت الفرصة إلى الأبد . . » .

والتفت عكرمة إلى رجل بنى بكر وقال :

- «وهذه أيضًا فرصتكم يا بنى بكر لضرب «خزاعة» والأخذ بثأركم منهم . . » .

وكانت خزاعة -أعداء بنى بكر- قد دخلوا فى حلف محمد وعهده ، عند إبرام صلح «الحديبية» ودخلت بنو بكر فى حلف قريش وعهدهم ، وكان بين خزاعة وبنى بكر

ثارات وأحقاد قديمة لم تنطفئ جذوتها إلا بعد هذا الحلف . . .

واستطرد عكرمة قائلاً :

- «ولن يستطيع محمد أن يخف لنجدة حلفائه من خزاعة وهو مبدد القوى، مهزوم من الرومان . . وبذلك يفر حلفاؤه من حوله، ويفقدون الثقة فى عهوده واتفاقياته . . » .

قال رجل من بنى بكر :

- «نريد سلاحًا ومالاً . . » .

- «سنمدكم بما تحتاجون إليه . . » .

وانتشرت أنباء معركة «مؤتة» فى أرجاء مكة، فطرب لها الأعداء، وحزن المسلمون الأخفياء . أما أبو سفيان فقد كان له رأى آخر، إذ قال لعكرمة وغيره من شباب مكة المتحمسين :

- «إن عودة خالد بجيشه سالمًا من مؤتة لهو عين العقل والبراعة، إنه انتصار لا تدركه عقولكم . . . أتدرون ماذا حدث بعد انسحاب المسلمين؟؟ لقد سارعت القبائل العربية فى الشمال وفى جنوب الشام باعتناق الإسلام، ودخل أغلب هذه القبائل فى حلف محمد، وأعلنوا العداء على الروم . . ماذا كان يريد محمد غير ذلك؟؟ هل تتصورون أنه كان فعلاً ينوى تحطيم إمبراطورية الرومان؟؟ لا أظن كذلك . . » .

ثار الشباب في وجه أبي سفيان، ورموه بالوهن والضعف وسيطرة الوهم على عقله، وحاولوا إفهامه أن محمداً وجيشه في أضعف حالاتهما، وأن الفرصة مواتية لضرب المسلمين وحلفائهم.. وضاعت صيحات أبي سفيان وتحذيراته في خضم ثورة الحمقى من شباب مكة، فعاد إلى داره مهموماً حزيناً.

قالت زوجه هند:

- «ويحك!! أراك تغرق في مخاوفك أكثر مما ينبغي.. إن المسلمين أذل وأضعف مما تتصور، ولو كانوا على جانب من الروية والتفكير لما تصدوا للروم..».

لوح بيده محتداً:

- «إن المسلمين لم يخسروا شيئاً يذكر يا امرأة.. لقد حققوا مكاسب كبرى، إن محمداً يقيس الأمور بمقياس دقيق.. وكيف لا نخاف بأس رجل يتصدى لإمبراطورية الروم، ويعلم جنوده التنافس على لقاء الشهادة، والاستباق إلى الموت..».

قالت هند محتدة أيضاً:

- «وعلى أي شيء نخاف؟؟ ألم يهدر محمد دمي؟؟ إذا كانت النهاية هي الموت، فلم لا نموت في ساحة المعركة.. إن هذه المخاوف ستجعل محمداً ينال النصر عليكم لقمةً سائغةً دون مشقة..».

قال أبو سفيان فى روية :

- «إن إهدار دم بضعة نفر لا يجعلنا نخاطر بأمن مكة كلها . . » .

- «ألا يهمك أمرى لهذه الدرجة؟؟» .

- «لا أقصد ذلك يا هند . . إن الأمور تسوء . . ومحمد أصبح عدوًا ذا خطر كبير ، وآلاف الرجال قد أسلموا قيادهم له ، وأرى أن الأمر يحتاج إلى روية وتعقل ، وشباب قريش بتصرفاتهم قد يعجلون بالكارثة . . » .

قالت هند مؤنبة :

- «ألهذه الدرجة ترتعد فرائصك من قوة المسلمين وأنت الذى أذقتهم الذل والهوان ومرارة الهزيمة يوم «أحد»؟؟» .

أدار وجهه بعيدًا عنها وقال :

- «دعى هذا الأمر . . إن «أحدًا» لم تزد محمد إلا إصرارًا وبأسًا . . لقد استفاد منها -برغم هزيمته- أكثر مما استفدنا . . وكل ذى لب يستطيع الآن أن يدرك ذلك . . » .

ودق باب أبى سفيان فجأة ، وسمع أبو سفيان رجلاً يهتف بأعلى صوته :

- «يا أبا سفيان . . يا أبا سفيان . . العهد . . العهد . . » .

هرول أبو سفيان ومن خلفه هند صوب الباب، فوجد رجلا عارى الرأس، قد علق الغبار بشعر رأسه ولحيته وأهدابه

- «ماذا جرى؟؟».

قال الرجل:

- «أنا شيخ من خزاعة غدر بنا بنو بكر، داهمونا عند ماء لنا، وهم يصيحون صيحة الحرب والثأر.. أخذونا على غرة، وقتلوا منا خلقًا كثيرًا..».

قال أبو سفيان:

- «كيف؟؟».

صاح الرجل محتجًا:

- «ألا تدرى كـــيف؟؟ لقـــد زودتم بنى بكر بالمال وبالسلاح».

شحب وجه أبى سفيان وتمتم:

- «إنها الكارثة..».

قال الخزاعى:

- «لقد نقضتم عهد «الحديبية»، وغدرتم بمحمد وحلفائه، وليس هذا من شيمة العرب.. فو الله لن نسكت عن دمنا ولو ضحينا بآخر رجل من رجالنا..».

قالت هند بصوت خفيض يسمعه أبو سفيان ولا يسمعه الخزاعى :

- «ها هى الأحداث ترغمك على مواجهة محمد، وتجرك جرًا إلى المعركة . . الأحداث أقوى وأعقل منك . . » .

هز أبو سفيان رأسه فى حسرة وقال :

- «إنها لبداية الخراب والدمار . . » .

وانفلت أبو سفيان إلى الشارع وهو ينادى :

- «يا أهل مكة . . إن دم خزاعة حرام حرام . . وما فعلته بكر نقض صريح لعهد «الحديبية» وأنا أبرأ منه . . فلتوضع السيوف فى أغمادها حتى نبحث الأمر . . يا أهل مكة» .

ومضى أبو سفيان فى الطريق العام يدعو لوقف الصدام، واللجوء إلى العقل والروية ، ويحذر الناس من مغبة ذلك الفعل الفاضح الذى ارتكبه حلفاؤه من بنى بكر . .

●●●

كان عكرمة وصحبه أثناء الليل يتقارعون الكئوس ، ويجرعون الشراب ، وكان بينهم وحشى بن حرب ، وقال عكرمة :

- «كان أبو سفيان مثارًا للضحك وهو ينادى فى شوارع مكة بالأمس . . إن الروية الزائدة لهى الجبن والخوف . . » .

قال وحشى بن حرب :

- «هذا نفس ما كنت أقوله، وما زلت أردده وأؤمن به» .

تمتم عكرمة :

ألا هبّى بصحنك فأصبحينا

ولا تبقى خمور الأندرينا

قال وحشى ورأسه يدور :

- «لكننا لم نزل فى السماء . . » .

رد عكرمة : «سنبقى لنحتفل بانتصار بنى بكر حتى الصباح» .

ودخلت جارية رشيقة، وأخذت ترقص على نغمات الناى وضربات الأكف، وخليط من القهقهات والتعليقات يغطى على الأنغام، ثم وثب وحشى وقد لعبت الخمر برأسه وأخذ يرافق الراقصة، ويتمايل مخموراً فى مشهد بشع، وإن اجتلب مزيداً من الضحك والفكاهات . .

أما شيوخ مكة وذوو الرأى فيها، فقد باتوا ليالى يفكرون أن خزاعة لا شك سوف ترسل رسلها إلى محمد لتستنجد به، وفاء بعهده، وتنفيذاً لشروط «صلح الحديبية»، ومحمد سيجد نفسه مضطراً للوفاء بعهده مهما كلفه ذلك من ثمن، ولهذا

أجمع رجالات مكة على أن يوفدوا أبا سفيان إلى يثرب لمقابلة محمد والتفاهم معه بشأن حادثة خزاعة، ولكى يطلب منه أن يطيل أمد حلف الحديبية إلى عشر سنوات بدلاً من سنتين . .

وجهز أبو سفيان رحله، وركب ناقته، وانطلق إلى يثرب وفى الطريق الطويل كان يفكر، ها هو يمضى خاضعًا إلى محمد، يطلب الأمان والسلام، أهكذا تجرى الأيام؟؟ أأصبح محمد المهاجر المضطهد الغريب رجلاً بيده مقاليد أمور العرب وأمنهم وسلامهم؟؟ وكيف يلقى أبو سفيان عدوه الكبير؟؟ وكيف يتقابل مع عمر وأبى بكر وغيرهم ممن أذاقهم الهوان فى الماضى، ونال من حريتهم وكبريائهم، وجرد لهم الجيوش وحاربهم أعنف حرب وأشدها؟؟

إن هذه السفارة لمليئة بالذلة والهوان، لكن أبا سفيان على استعداد لأن يصبر ويتحمل حتى يحمى نظام مكة، ويحفظ حريتها ودينها وسلطانها . . ليست العبرة بما يفعله الآن، لكن العبرة بالنتائج، وهو على استعداد لأن يفعل أى شيء يوصله إلى الغاية التى يتطلع إليها، وليقل عكرمة وغيره من شباب مكة ما يقولون . . هؤلاء الحمقى لا يعرفون أبعاد النكبة التى سيتعرضون لها وتتعرض لها مكة من جراء اندفاعهم وتهورهم . . وهل نسى أبو سفيان أن ابنته «أم حبيبة» زوجة لمحمد، وأنها لا شك ستساعده على إنجاح مهمته، وبلوغ غايته؟؟

وبلغ أبو سفيان يثرب أو مدينة الرسول كما يطلقون عليها آنذاك . . استقبلته ابنته «أم حبيبة» استقبالا يشوبه التحفظ ، ونظر أبو سفيان فوجد فراش الرسول ، فعول على الجلوس عليه ، وكم كانت دهشته عندما طوت ابنته الفراش عنه ، فقال :

- «أطويت الفراش رغبة بى عنه ، أم رغبة بالفراش عنى؟» .

قالت فى إصرار :

- «هو فراش رسول الله ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس عليه . . » .

كاد أبو سفيان يُصعق من شدة الذهول ، فقال مغضبًا :

- «والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر؟؟» .

وانتزع أبو سفيان نفسه من البيت ضائق النفس ، جريح الكبرياء ، إن ابنته تسخر منه ومن دينه ، وتلقنه درسًا قاسيًا فى الإباء والاعتزاز بالعقيدة ، العقيدة التى هى أغلى من الحياة والقرابة . . وقبل أن يمضى سألها :

- «هل أمرك محمد بذلك؟؟» .

قالت :

- «لم يأمرنى به . . لكنى أعرف ما يجب عمله، وأتصرف بالطريقة التى تناسب قومًا يغدرون ويظلمون . . ».

ومضى أبو سفيان فى طريقه يسأل عن محمد، حتى إذا ما بلغه، تطلع إلى وجهه المشرق، وعينيه الصافيتين، فأخذته الهيبة، وارتجفت أوصاله، وتجمعت فى عقله آنذاك كل الذكريات القاسية، وشعر بحرج بالغ، وتضاؤل مؤلم، لكنه ابتلع ريقه وقال :

- «جئت أعتذر عما بدر من بنى بكر، وأؤكد استمساكنا بالعهد، وأطلب مده . . ».

أطرق الرسول ولم يجب بشيء، وحاول أبو سفيان جاهدًا أن يحصل على موافقة الرسول دون جدوى، فذهب إلى أبى بكر وكلمه كى يتوسط لدى الرسول فأبى، ثم ذهب إلى عمر بن الخطاب، لكن عمر أغلظ له فى القول وقال :

- «أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . . ».

فتركه أبو سفيان إلى على بن أبى طالب ومعه فاطمة بنت الرسول، وعرض عليهما الأمر، وطلب منهما أن يجيراه ويستشفعا له عند الرسول، فتبين له كيف أن الأمر أصعب وأعقد مما يتصور، ثم قال على :

- «والله ما أعلم شيئًا يغنى عنك . . لكنك -يا أبا سفيان- سيد بنى كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، وما أظن ذلك مغنيًا، ولكنى لا أجد لك غيره. . .».

فذهب أبو سفيان إلى المسجد، وهناك أعلن أنه أجار بين الناس، ثم ركب راحلته وانطلق ذاهبًا إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لقى من هوان على يد ابنته، وعلى يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكة، يرتجون منه نظرة عطف أو رضى . .

طريق العودة مظلم طويل، يغص بالأحزان والآلام، وأبو سفيان يمضى لاهث الأنفاس، شارد النظرات، مرهف السمع، يبحث فى زوايا مخه ومنحنياته عن أمل . . ماذا يقول لقريش وقد فشلت سفارته، وضاع الأمل فيه؟؟ أيتخلى عن قيادته للناس، ويتركهم لمصيرهم المزعج؟؟ أيدعو المكيين لحمل السلاح وخوض حرب أخيرة ضد محمد وليكن ما يكون؟ إنه لا يدرى ماذا يفعل، لم يعد قادرًا على أن يحسم أمرًا أو يقر قرارًا . . أيعرج براحلته إلى شرق الصحراء ويقذف بنفسه فى المتاهات لعله يجد مأوى يختفى فيه وينسى مكة وأحزانها ومستقبلها الغامض، وعبث الشباب فيها، والمصائب التى تتراكم من حولها؟؟ . . لا . . لن يهرب - لسوف يذهب إلى مكة، ويلقى إليهم بالحقيقة المرة، وليترك من ارتكبوا الحماقات وغدروا بالعهود ودعوا إلى الحرب . . ليتركهم كى ينقذوا البلد الحرام وأهلها مما جلبوه عليها من شقاء وتعاسة . .

عندما دخل أبو سفيان مكة . . وجد رهطًا من الصبية والشباب متجمعين حول وحشى المخمور . . ووحشى ملقى على قارعة الطريق، ونظراته الزائغة الخائفة معلقة بشيء لا يرى وهو يهذى :

- «إننى أراه . . ها هو حمزة بن عبد المطلب . . إننى أعرفه جيداً . . هو لم يمت، إنه يتقدم كالجمل الأورق وفى يده سيفه . . لسوف يقتلنى . . النجدة . . سيقتلنى . . أنقذونى منه . . لست أنا المسئول يا حمزة . . إن جبير بن مطعم هو الذى حرضنى . . » .

وكان المحيطون بوحشى يقهقهون ويسخرون، ولم يكن أحد منهم قد لحظ مقدم أبى سفيان، لكنهم فوجئوا به يقول فى جد ووقار :

- «أجل . . إنه قادم يا وحشى . . قادم حقيقة . . ولن تنجو هذه المرة . . » .

والتفت الناس إلى أبى سفيان فى دهشة، لم يستطيعوا أن يفسروا كلماته، فتجمهروا حوله متسائلين عن سفارته، لكن صوت وحشى انطلق قائلا :

- «إنهم لا يصدقوننى يا أبا سفيان . . قل لهم . . لماذا تتركوننى وحدى؟؟ إن حمزة يقترب منى . . سيقتلنى . . » .



لأول مرة تستشعر مكة همًا بالغًا لم تستشعره من قبل، قلوب الناس تخفق فى اضطراب وعيونهم على الشمال تحاول تخطى حواجز المكان والزمان، وآذانهم تلتقط الهمسات، متشوقة لأى نبأ جديد.. إن مكة تفكر بعمق أكثر من أى وقت مضى، وتنتابها الرهبة والجزع، فهى لا تستطيع أن تتصور الوضع الكامل للمستقبل القريب.. ما أشبه أزمة اليوم بالأزمة التى حدثت عام الفيل، حينما قدم «أبرهة» بجيشه العرمرم ليدك الكعبة، يومها قال سيد العرب «إن للبيت ربًا يحميه».. لكن الأمر مختلف تمامًا اليوم.. والقادمون إلى مكة لن يهدموا البيت، بل سيرفعوا من شأنه، ويطهروه من رجس الشرك، وأوهام العقائد الباطلة، والقادمون اليوم لن يكونوا غزاة غرباء.. ولكنهم عرب مسلمون يقودهم محمد بن عبد الله من خيرة قريش... ابن مكة البار..

الناس يتساءلون ماذا سيفعل محمد بعد أن رفض اعتذار

أبى سفيان، ولم يوافق على مد مدة «عهد الحديبية» . . هل سيجرد جيشًا لتأديب من غدروا ونقضوا العهد؟؟ ومتى يكون ذلك؟؟ وغرقت مكة فى تساؤلاتها وتكهناتها . .

قال عكرمة بن أبى جهل :

- «ويحكم يا أهل مكة!! مـــاذا تنتظرون؟؟ أتظلون فى حيرتكم وتخبطكم حتى يدهمكم محمد بقواته، ويستولى على مدينتكم، ويفعل بكم الأفاعيل، فيسبى نساءكم وذراريكم ويذبح رجالكم، ويجعل من نفسه ملكًا عليكم . . ويقضى على دينكم ودين آبائكم؟؟ والله لا ملجأ لكم إلا لسيوفكم، فإن جبنتم وصدعتم للخوف والتردد فقد فقدتم كل أمل فى الحياة والخلاص . . » .

وقالت هند زوجة أبى سفيان :

- «القول ما قال عكرمة بن أبى جهل . . الحرب هى وسيلة البقاء والحفاظ على كرامتنا، ثم إنه لا بديل لها بعد أن رفض محمد وساطة أبى سفيان، إن رفضه يعنى إعلان الحرب . . إنها بمثابة دفاع عن النفس والتخلف عنها هو الهزيمة أو التسليم . . » .

ثم استطردت مهتاجة :

- «مالى أراكم قد جبنتم؟؟ إننى لا أتصور أن محمد بن عبد

الله قد أربككم لهذا الحد، وأثار فى قلوبكم الخوف والانهيار. . أيها السادة الكبار، أنتم أقوى بأسًا، وأشد مراسًا وأكثر جندًا. . ذلك المهاجر الغريب وجنوده الأغراب لا يصح أن يصلوا بكم لهذه الدرجة من الرعب. . إن قوته أقل بكثير مما يشيعه. . ».

هز أبو سفيان رأسه قائلاً:

- «إننى أدرى بقوتنا وبقوته منكم جميعًا. . استمعوا إلىّ جيدًا. . إن الكثيرين من أهل مكة قد انعطفوا بقلوبهم نحوه وإن بقوا على دينهم القديم. . بل إن الناس فى مكة يمرون بفترة غريبة أنا أدركها جيدًا. . لا هم بالكافرين ولا بالمسلمين. . فترة حرجة لا يستطيعون أن يحاربوا فيها أو يحسموا أمرًا. . بل لعلهم أقرب إلى محمد منا. . تلك هى الحقيقة المرة. . أما محمد ورجاله فقد ازدادوا عددًا وعدة. . لا يشوب إقدامهم تردد، ويقعد بهم شك أو وهن. . ».

قال عكرمة بن أبى جهل:

- «فماذا نفعل إذن؟؟».

هز أبو سفيان رأسه فى حيرة وقال:

- «هذا ما أفكر فيه. . أيمكن أن نبعث بوفد جديد إلى محمد، على أن نقدم دية القتلى من خزاعة، أو نسلم له المعتدين من بنى بكر؟؟».

قهقهت هند ساخرة:

- «لو فعلنا ذلك لأدرك محمد ما نعانيه من ضعف وخوف ولانقض على مكة وابتعلها فى يوم وليلة..».

انطلق وحشى بن حرب قائلا:

- «الموت ولا الهوان.. يجب أن نحمل سيوفنا ونندفع إلى يثرب.. إن بنى بكر يريدون الحرب.. وكثيرون لهم ثارات عند محمد يتشوقون للمعركة.. لقد فُرض علينا القتال ولا مناص من ذلك..».

وهاج الجمع وماج، واختلطت التساؤلات والخلافات وارتفعت الأصوات، وساد الاضطراب وضاقت بهم الأرض بما رحبت، ليست هناك بارقة أمل، لقد قضى محمد على يهود الجزيرة، وجذب إليه عديداً من القبائل، حتى غطفان وغيرهم أولئك الذين اشتركوا ضده فى معركة الأحزاب قد انحازوا إلى صفه.. ومالت إليه اليمن، وانصاعت له قبائل شمال الجزيرة وجنوب الشام...

وتمتم أبو سفيان:

- «واكرباه.. ألا إن شمسنا فى الزوال، ودولتنا توشك أن تدول.. الأمور تمضى بقوة قادرة.. وإرادتنا عاجزة عن أن تصمد للأقدار الغلابة.. إننا نتراجع ونضمر ونخبو برغم كثرتنا

وبرغم ما نمتلكه من مال وسلاح . . لا أدرى ماذا أقول . . لقد تزعزع إيماننا بكل القيم التى حملناها ودافعنا عنها، وضحينا من أجلها . . إننى أتساءل لماذا لم ينفر الناس كما كانوا ينفرون؟؟؟ هل فيكم من يستطيع أن يجيب عن تساؤلاتى المعذبة يا رجالات قريش؟؟؟ آه . . إن عامة الناس ليسوا مقتنعين بالحرب!! عن أى شىء يحاربون؟؟؟ ليست لديهم قضية حقيقية يدافعون عنها . . لم يعد يكفى أن نحركهم باسم الثارات فقد ثاروا ذات يوم . . ولم نعد قادرين على تحريضهم باسم الدين . . والأخطر من ذلك أنهم لا يخافون محمداً مثلما نخافه نحن السادة . . إنهم يرون فيه المثل والقدوة والعدل والحب والإخاء . . يرون الأمة الحية التى تنمو وتترعرع فى أرض يثرب . . ولماذا يخافه العامة هنا، وهو سيزيد من قوتهم بقدر ما ينقص من كبريائنا وبأسنا؟؟ يجب أن تتصوروا الأمور على هذا النحو أيها الرجال . . وأى تصور عداه فهو باطل . . يا إلهى كل شىء يذبل ويتشح بالسواد . . ولا أكاد أرى بصيصاً من نور . . ».

وانهالت على أبى سفيان الاتهامات، وناشته ألسنة الحاقدين والثائرين خاصة من رجال بنى بكر وأشياع عكرمة، وأبو سفيان يغمض عينيه، ويخفض رأسه، ويستسلم للصمت، وأخذ يفكر، وأخيراً لم يجد مناصاً من أن يحاول تهدئتهم فيقول:

- «أيها الرجال. . على أية حال لسنا فى عجلة من أمرنا. . إن محمدًا لن يتسرع فى اتخاذ قرارات خطيرة. . إننى أعرفه. . هل تعتقدون أنه يجرؤ على مهاجمة مكة الآن؟؟ مستحيل أن يفعل ذلك فالأمر ليس بهذه الدرجة من البساطة واليسر. . فدون ذلك دماء غزيرة تراق، وحرب ضروس لا يعلم إلا الله مداها. . ولكى يهاجم محمد مكة فإن عليه أن ينتظر ويستعد عامًا آخر أو أكثر من عام. . وسيكون أمامنا فسحة من الوقت للتفكير والتروى والاستعداد، فلا تجعلوا أنفسكم نهبًا للقلق، ولا تفتحوا بين صفوفكم ثغرات يطل منها الخلاف والعناد. . ».

ونزلت هذه الكلمات على قلوب المجتمعين بردًا وسلامًا، وبددت كثيرًا من الخوف والقلق، وأحيت فى نفوسهم الأمل، فأشرقت وجوههم بعد اكفهرار، وانفرجت أساريرهم بعد تقطيب، وحوم على جمعهم قدر من الطمأنينة والهدوء. .

وقال وحشى بن حرب منتعشًا:

- «هذا هو الكلام الحق. . ولن يستدير العام إلا ونكون قد جمعنا جموعنا، وسالت بنا الأباطيح والوديان ودهمنا محمدًا فى عقر داره ومحونا «يثرب» من الوجود. . ».

رماه أبو سفيان بنظره شذرًا وقال:

- «ربما . .».

وأردف عكرمة بن أبى جهل قائلاً:

- «ولا يغرنكم انصياع القبائل لجانب محمد . . إنهم يبحثون عن المغنم، فلو استطاع أبو سفيان ومعه عدد من سادات قريش أن يطوفوا بهذه القبائل، ويبذلوا لها الوعود، ويمنوها بالمغانم الوفيرة، لنكثوا بعهدهم مع محمد ولانضموا لجيشنا وحاربوا فى صفوفنا . .».

وعاد وحشى فى تلك الليلة إلى بيته، كانت لهفته إلى الكأس أقوى وأشد، حاول أن يتجنبها فلم يستطع . . لقد أصبح سكره مر المذاق، ملىء بالرؤى المفزعة والتصورات المخيفة . . إن طيف حمزة يفسد عليه شربه، ويدفعه إلى الصياح والاستنجاد بالناس كى ينقذوه من العدو المتوهم . . ومع ذلك فقد تناول الكأس بيد مرتجفة وأخذ يشرب فى نهم بالغ . . لكن وجه حمزة . . والسيوف التى تحاصره . . كل ذلك جعله يصرخ ويستغيث ولا مغيث . . حتى ارتمى على فراشه كالمغشى عليه . .

***



لم يكن أحد فى مكة يعرف ما يجرى من أحداث فى يثرب، فقد كان محمد يحيط تحركاته بتكتم شديد، ويفرض على تصرفاته نطاقًا صلبًا من السرية، فقد دعا آلاف المسلمين للاستعداد للرحيل إلى جهة غير معلومة. . وعندما تم الحشد والاستعداد خرج محمد معهم وسط كتيبته الخضراء، وكشف لهم عن نواياه. . إنهم ذاهبون إلى مكة، وهم يأملون أن يتم فتح مكة دون إراقة دم، كانوا خليطًا من المهاجرين والأنصار ومن قبائل أسد وغطفان وفزارة وسليم، أولئك الذين كانوا بالأمس يحاصرون محمدًا فى معركة الأحزاب. . وسار الجيش الإسلامى صوب مكة التى لم تزل تمزقها الخلافات والجدل العقيم، والتردد المشين. .

وفى إحدى الليالى كان أبو سفيان يتجول خارج مكة مع اثنين من أصحابه. . وأشرف أبو سفيان ورفاقه على جبل عال فصُدم إذ رأى نيرانًا وحشدًا مهولاً، فصاح فى ذعر:

- «ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا. . ».

قال رفيق من رفاقه:

- «هذه والله خزاعة حميتها الحرب. . وهى تبغى الأخذ بثأرها من بنى بكروأعوانهم».

هز أبو سفيان رأسه فى رفض وقال:

- «خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

ولم يكن أبو سفيان يعلم أن بالقرب منه العباس عم الرسول الذى خرج من قبل ليتنسم الأخبار ولم يكن قد أسلم بعد، فذهب إلى محمد ورأى ما رأى من استعداد ضخم، ثم أعلن فى النهاية إسلامه أمام ابن أخيه، ثم قفل إلى مكة ليخبر أهلها بالخطر الذى يهددها إذا قاومت، وفى أثناء عودته سمع حوار أبى سفيان ورفيقيه، فصاح العباس بأعلى صوته تحت الظلام الضافى:

- «يا أبا حنظلة. . ».

انتفض أبو سفيان فى ارتباك ورد:

- «هذا أبو الفضل العباس عم محمد. . ترى ما الذى أتى بك الساعة هنا؟؟».

اقترب العباس من أبى سفيان وقال فى اهتمام بالغ:

- «ويحك يا أبا سفيان!! هذا رسول الله فى الناس.. واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة!!».

ودارت الأرض بأبى سفيان، هذا يوم الفصل كيف حشد محمد هذا الحشد؟؟ ومتى تحرك دون أن يدرى به أحد.. هل سيدخل مكة حقيقة؟؟ لم يكن أحد يستطيع أن يتصور ذلك.. قريش لم تزل ترجف وتعبث وتلهو، ورجالاتها يضطربون بين شتى الأفكار والآراء، تخدرهم الكبرياء، ويمزقهم الغرور، ومحمد يقف على أبواب مكة ليقهر الغرور والكبرياء والآمال القديمة!! واكرباه..

ثم مال أبو سفيان على العباس قائلاً:

- «وما الحيلة يا أبا الفضل فداك أبى وأمى؟؟».

فأركبه العباس فى عجز بغلته، ثم انطلق به إلى رسول الله وأبو سفيان فى ذهول يكاد يكون تامًا مما يرى ويسمع.. نيران ورجال وسلاح وجياد وإبل.. وصلوات.. وأصوات تقول: هذا أبو سفيان عدو الله.. اضربوا عنقه.. لكن العباس يعلن بين الناس أنه قد أجاره فلا يصح أن يعتدى عليه أحد..

جلس أبو سفيان أمام الرسول يرتعد.. ينظر إلى وجه محمد المشرق الباسم يغمره الإيمان واليقين والثقة، ثم يعود إلى نفسه ليستشعر ما لحقه من اضطراب وحزن وأسى، ويفكر

فيما يعتور مكة من جنون ووهن وتمزق . . إنها لحظات قاتلة، لكن أبا سفيان بحنكته ودهائه يحاول أن يبدو متمالكًا لأعصابه وأفكاره . .

وقال الرسول :

- «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟؟» .

قال أبو سفيان :

- «بأبى أنت وأمى . . ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئًا بعد» .

فابتسم النبى قائلاً :

- «ويحك يا أبا سفيان!! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟» .

ساد الشحوب وجه أبى سفيان، واختلج جسده، أبعد هذا العداء الطويل، والحرب المريرة، والكبرياء البالغة، والتشبث بالدين القديم، والإصرار العنيد . . أبعد كل هذا يؤمن بمحمد؟؟ إن الإيمان بإله واحد قد يكون معقولاً، أما الإقرار برسالة محمد فهذا أمر شاق على نفس أبى سفيان . . الأمر هنا

يختلف. إنها كبرياء رجل قاد قومه لحرب محمد. . وتفصد جبين أبى سفيان عرقًا وهو يقول:

- «بأبى أنت وأمى. . ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!! أما والله هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئًا».

قال رجل من المهاجرين:

- «الرجل يرفض الإقرار بنبوة محمد. .».

قال ثان: - «فلتضرب عنقه. .».

قال ثالث: - «الرسول لا يفعلها. .».

قال آخر: - «والعباس قد أجاره».

وتركه العباس يفكر بعض الوقت، ولم تخف حقيقة الأمر على أبى سفيان، وأبو سفيان يؤمن بفكره، ويمتعض بشعوره وكبريائه، وبين الشعور والفكر هوة سحيقة. . فإما أن يتخطاها أبو سفيان فى شجاعة أو يفتح الطريق لوساوس الكبرياء وثورة العاطفة والدماء التى لن تكسب مكة من ورائها شيئًا، لحظات قصيرة مهولة فى حياة أبى سفيان الذى مد بصره من حوله فرأى النيران المشتعلة والحشود، وتكبير الرجال وتهليلهم، ثم رمى ببصره عبر الظلمة فرأى من بعيد مكة بعين الحدس والتخمين. . إنهم هناك يغطون فى نوم عميق،

والساهرون منهم يتقارعون الكئوس، ويعبثون ويعربدون . . ثم عاد أبو سفيان يفكر فى محمد . . تاريخه . . حياته . . أخلاقه . . الآيات التى نزلت عليه . . المعارك التى خاضها . . الدعوة التى يدعو إليها . . وفى لحظة من اللحظات النادرة الخالدة . . لحظة التنوير القدسى . . هتف أبو سفيان .

- «يا رسول الله . . أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله . . » .

ارتاحت نفس محمد، وحمد العباس الله، واغرورقت عين الحاضرين بالشكر والارتياح، وكان على أبى سفيان مسئولية كبرى . . أن يسرع إلى مكة ويشرح لأهلها الأمر لعله يجنبهم الدمار والدماء التى لا طائل من ورائها . .

وقا أبو سفيان بعد أن شهد عرضًا مؤثرًا لجيش المسلمين ولكتيبة محمد الخضراء :

- «يا أبا الفضل . . ما لأحد بهؤلاء قبلٌ ولا طاقة . . والله يا عباس لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداةَ عظيمًا . . » .

وهرول أبو سفيان إلى مكة، المهاجر الطريد الذى لم يكن له حول ولا قوة يقود أكثر من عشرة آلاف محارب، كل واحد فيهم يضارع كتيبة بأسرها كيف؟؟ أيمكن أن يكون هذا من صنع الذكاء والبراعة السياسية وحدهما؟؟ لا . . إن الله معه . .

وبلغ أبو سفيان مكة، فوجد الناس في توتر وقلق، إنهم يتوقعون خطراً ما، والحيرة ترتسم على الوجوه، والقلق في العيون، واحتشدوا حول أبي سفيان عندما رأوه، فرفع هامته وقال بأعلى صوته:

- «يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. . ».

وران على الجمع صمت رهيب، ولم يعد يُسمع إلا الأنفاس المتصاعدة اللاهثة، وقطع الصمت صوت ساخر يقول:

- «وماذا تغني عنا دارك؟؟».

وقال آخر:

- «محمد رسول الله حقًا. . وقد حان الوقت لكي نقولها دون خوف أو تردد».

وقال ثالث:

- «لم يعد هناك أمل في المقاومة. . ».

أما وحشي بن حرب فقد أطلق صيحة شيطانية، ونادى بأعلى صوته:

- «لا ملجأ إلا إلى السيوف نشهرها فى وجه الأعداء فإما النجاة أو الموت فى ساحة الأبطال . . » .

فدفعه جماعة من الواقفين، حتى سقط على ظهره، فقام ينفض عن ثيابه الغبار، وجرى مسرعًا صوب عكرمة حيث كان يجلس مع جماعة من بنى بكر فى الجهة الجنوبية من مكة . . وارتمى وحشى أمام الرجال لاهث الأنفاس، وأخذ يقول فى عبارات متقطعة :

- «جئتكم بأشأم الأنباء . . جئتكم بذل الدهر وعار الأبد . . أسلم أبو سفيان بن حرب . . » .

صاحوا بصوت واحد :

- «ماذا؟؟» .

فمضى وحشى فى حديثه دون أن يرد على تساؤلهم :

- «وتابعه أكثر أهل مكة . . » .

- «أنت تهذى يا وحشى . . » .

فأردف دون أن يعير تعليقاتهم التفاتًا :

- «ومحمد قدم فى جيش كبير لفتح مكة . . » .

تلفت عكرمة يمنة ويسرة، وبرق الشر فى عينيه فأرعد :

- «لن نستسلم إلا جثثًا هامدة . . الموت فى المعركة ولا عار التسليم من أجل حياة تعسة . . » .

وتنادى بنو بكر وعكرمة وأشياعه ووحشى للسلاح . .

●●●

وفتحت مكة أبوابها لجنود الله ، حملة الحق والحرية والعدل والإخاء . . لكن بابها الجنوبى ، حيث عكرمة ورجال بنى بكر وأشياعهم ، بقى موصداً يرفض التسليم . . وأوصى محمد جنوده بعدم إراقة الدماء وألا تقاتل إلا فى حالة الإكراه . . الزبير بن العوام على الجناح الأيسر للجيش ويدخل مكة من الشمال . . وسعد بن عبادة قائد رجال المدينة يدخل مكة من الغرب ، وأبو عبيدة قائد المهاجرين يدخل مكة من أعلاها عند جبل هند . . وخالد بن الوليد على الجناح الأيمن ليدخل مكة من الجنوب . . لكن سعداً قائد رجال المدينة استخفه الحماس وصاح «اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمة» . فعزله الرسول فوراً وولى ابنه مكانه . . أجل . . فتحت المدينة أبوابها إلا بابًا واحداً يقف عنده عكرمة وبنو بكر ووحشى وغيرهم . . وقفوا فى مواجهة خالد بن الوليد . .

قال عكرمة :

- «ما أعجب الأيام . . ها هو خالد صديق الأمس ، ورفيق

الكفاح فى «أحد» وغيرها . . ها هو يأتى لحربنا . . والله لن تمر يا صديق العمر دون أن نشهر فى وجهك السيوف» .

وعاد وحشى يكرر فى جنون :

- «الموت ولا العار . . » .

استمر القتال وقتًا قصيراً ، وتلفت عكرمة حوله ، فوجد جنود المسلمين قد انتشروا فى أرجاء مكة ، ونزلوا صوب البيت الحرام ، آه . . إن «هبل» يسقط الآن من عليائه . . لقد سقط إلهنا العتيد . . يسقط دون أن يحرك ساكنًا . . وأصبحت مقاومتنا قطرة فى بحر لجى . . لا فائدة . . لقد أهدر محمد دمى . . لا شىء سوى الفرار . . الآن . . الفرار ولا الموت . . ثم اتجه إلى رفاقه :

- «لم يعد لدينا وقت . . يجب أن نبادر بالهرب قبل أن يدهمنا المسلمون من كل جانب . . » .

لطم وحشى خديه وقال وهو يعول :

- «وأين أمضى؟؟» .

قال عكرمة :

- «لا تبكِ كما تبكى النساء . . أنا ذاهب إلى اليمن . . » .

وقال بضعة نفر :

- «نحن معك يا عكرمة . . ».

وقال رجل حزين :

- «ولماذا لا نبقى ونعلن إسلامنا . . إن محمداً سيعفو عنا».

فلم يهتم أحد بكلامه، وقال وحشى وهو يمسك بحربته :

- «إننى هارب إلى الطائف . . إنها لم تزل تشتعل عداء ضد محمد والمسلمين . . هناك سأجد الأمن والحرية . . ».

وتفرقت شيعة الحقد والعناد كل فى طريق . . أما أهل مكة فقد جاءوا إلى الرسول يعلنون رضاءهم بما تم، فيهتف بهم الرسول مردداً آية خالدة من آيات القرآن الكريم :

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣].

غمغم أبو سفيان بينه وبين نفسه :

- «آه . . المقاييس الجديدة للدولة الجديدة . . كلنا من ذكر وأنثى . . لا فرق بينى وبين الموالى . . والكرم ليس بالنسب ولا المال . . ولكن بالتقوى . . العالم القديم يميد . . والأسس التى حرستها بعقلى وسيوف أهل مدينتى، والتى ضحينا فى سبيلها بالغالى من الدماء والآمال كل هذه الأسس تنهار . . آه . . ».

وتوقف أبو سفيان عن التفكير حينما سمع الرسول ينادى قائلاً:

- «يا معشر قريش.. ماذا ترون أنى فاعل بكم؟؟».

قالوا:

- «خيراً.. أخ كريم، وابن أخ كريم..».

قال محمد:

- «اذهبوا فأنتم الطلقاء..».

انطلقت الحناجر مكبرة مهللة، «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».

ومال أحدهم على رسول الله قائلاً:

- «أتريد أن تستريح فى بيتكم؟؟».

بدا التأثر على وجهه الكريم وقال:

- «ما تركوا لى بيتاً..».

ثم أوى إلى القبة التى ضربوها له أعلى مكة قبالة جبل هند.. وتوجس الأنصار خوفاً، إن الرسول قد يتركهم ويبقى بمكة..

فابتسم الرسول قائلاً:

- «معاذ الله . . المحيا محياكم، والممات مماتكم . . ».

وقدمت هند زوجة أبى سفيان لتسلم، وكان الرسول قد أهدر دمها لتمثيلها بجثة حمزة، فعفا عنها وقبل إسلامها، فعادت مسرعة إلى صنمها الخاص تحطمه وتدوسه بالنعال وتبصق عليه . .

كما قدمت زوج عكرمة وطلبت لزوجها العفو، فوافق الرسول فهرولت إليه، وكان على وشك أن يبحر فى سفينة إلى اليمن . . وأسلم جميع أهل مكة . .

أما وحشى . . فقد أخذ السير صوب الطائف . . ضاربًا فى صحراء التيه والعذاب والأحزان . .

- «كانت الصحراء متوهجة مغبرة . . وهو يسير مسرعًا لا يسيطر على ذهنه فى البداية سوى شىء واحد . . النجاة . . ومن آن لآخر يتلفت وراءه، ينظر إلى مكة . . جنود محمد فى كل مكان . . وبلال يصعد فوق الكعبة ويؤذن . . انطفأ كل أمل لسادات مكة . . نامت الآمال الكبيرة إلى الأبد . . أسلم أبو سفيان وجبير وهند . . راية التوحيد تخفق هناك فى الآفاق . . كلمات محمد تتلى فى كل بيت . . الآلاف يحتشدون وراءه يكبرون ويسبحون . . تحطمت مهمة هبل . . سقطت الآلهة الزائفة . .

- «آه . . وامصيبتى ! ! لقد اشتد بى الظمأ . . وأنا أسير وحدى نهبًا للعذاب والخوف والضياع . . أهذه هى النهاية؟ أيمكن أن يبعث محمد ورائى بجنوده؟؟ أوه . . إننى أهول فى الأمر ، إن محمداً الآن عنده الكثير من الأمور تشغل ذهنه وفرار واحد مثلى لن يشغل حيزاً صغيراً من تفكيره . . لكن كيف؟؟ هل وصلت إلى درجة من التفاهة لا تجعل محمد يفكر فىّ؟؟ إننى قاتل عمه . . أنا قاتل حمزة . . » .

وأخذ يتلفت فى خوف ، أيمكن أن يطارده شبح حمزة فى عز النهار ، وهو لم يشرب كأسًا ، ولم يغب ذهنه؟؟ وعاد يتلفت ، فيخيل إليه أن هناك شبحًا وراءه ، فإذا نظر خلفه خيل إليه أن الشبح انتقل أمامه ، وهكذا أخذ رأسه يدور يمنة ويسرة ، وأمام وخلف حتى شعر بالدوار ، وأوشك أن يسقط من فوق ناقته .

- «أكاد أجن ! ! ولم لا أجن؟؟ لقد تحققت نبوءات عبلة ، وبلغت وصال شاطئ الأمان ونالت ما تصبو إليه من استقرار وإيمان وتوبة . . يزعمون أنها أصبحت من الصالحات ، وأنها نذرت نفسها لله ، والبعض يقول إنها قد تزوجت . . أيمكن أن يحدث ذلك؟؟ أين أذهب؟؟ إن كل مكان يذكرنى بأحزان . . لم أكن سعيداً فى مكة ، وإن ذهبت إلى يثرب فسأجد الأحزان والتعاسة فى انتظارى ، والحبشة . . لا أريد أن أذهب إليها . . لا

أعرف فيها أحداً. . ولا أشعر نحوها بشعور الحنين إلى الوطن، واليمن. . آه. . إننى أكره الغربة. . وسيعرفون من أنا، برغم كل شىء فأنا لا أستطيع أن أبعد عن مجرى الأحداث. . كالفراشة التى تعلم أن فى النار حتفها، لكنها تحوم حولها مستنشقة عبيرها القاتل، سكْرى بنورها. . وامصيبتاه تفرّق الشمل وتحطمت الآمال. . ومرغت كبريائى فى التراب. . ».

ولمح من بعيد خمسة رجال يمتطون جيادهم، أصابه الخوف بما يشبه الشلل فجمد فى مكانه لحظات ثم اندفع يضرب ناقته ويوجهها إلى طريق جانبى كى يختفى خلف صخرة، أو فى بطن كهف من الكهوف، ولم يكن يعلم أثناء اضطرابه وهرولته أنهم قد أبصروا به، ومال خلف كتلة كبيرة من الحجر، وأناخ راحلته، وانكمش إلى جوارها صامتًا يتسمع الطريق وتمتم:

- «لو كانوا من المسلمين فستكون كارثة: قد يتعرف أحدهم علىّ. . عندئذ لن أفلت من حكم محمد. . بمن أستنجد أو أستغيث؟؟».

وتطلع إلى السماء. . «أهناك إله أسكب بين يديه عبراتى وضراعتى لعله ينجينى من الخطر المحدق؟؟ تهشمت الآلهة فى مكة ولم يبقَ غير إله محمد، أأضرع إليه؟؟».

وحال لون وجهه إلى صفرة ظاهرة حينما سمع وقع حوافر الخيل وسمع أحد الرجال يقول:

- «لقد دلف إلى هنا . . إننى واثق من ذلك».

وقال الثانى:

- «لا بد من العثور عليه . . ».

وانتفض جسد وحشى وكاد يغشى عليه، لكنه تماسك وحبس أنفاسه، وسمع رجلاً منهم يقول:

- «أنا لا أدرى سببًا لهروبه . . هل ظن أننا قطاع طريق؟؟».

وأخذت خطواتهم تقترب، ووحشى يزداد انكماشًا ورعبًا، وأخيرًا وجدهم متصبين أمامه، فأجهش بالبكاء طالبًا الرحمة، قال قائدهم:

- «ماذا دهاك؟؟».

قال وهو يمد يديه فى ذلة:

- «إننى مسكين تعس . . أنشد المغفرة . . ».

- «يا رجل لسنا قطاع طريق . . ».

سدد إليهم نظرات مبللة بالدموع وقال:

- «من أنتم؟؟».

- «رجال من «هوازن» جئنا نتنسم أنباء محمد..».

قال وقد فغر فاه دهشة:

- «محمد؟؟».

- «أجل..».

- «أتريدون الدخول فى دينه؟؟».

قهقه قائد الركب فى سخرية وقال:

- «إن هوازن لها دينها وكبرياؤها، وهى لم تكن فى يوم من الأيام فى حاجة إلى قرشى كى يبدل دينها، أو يغير نظام حياتها».

ضحك وحشى من فيض السرور وقال وقد فاض قلبه بالسعادة:

- «أحقًا ما تقولون؟؟».

- «أجل..».

- «إذن فأعطونى شربة ماء..».

- «مسافر بلا زاد ولا ماء وأنت لم تبعد عن مكة إلا قليلاً؟».

قال وحشى وهو يعبُّ من إناء الماء الذى دفعوه إليه :

- «دهمنا محمد على حين غرة» .

قال قائد الركب :

- «نعلم ذلك ، لكن هل دانت له مكة؟؟» .

قال وحشى وهو يلتقط أنفاسه :

- «دخل مكة فى جمع غفير لم أشهد مثله . . وجمع إليه المهاجرين والأنصار ، ورجالاً من قبائل غطفان وفزارة وسليم وغيرهم . . كانت مكة تلهو وتعبث وتمزقها الخلافات وهو يعد عدته» ، ثم تنهد فى حسرة وقال :

«وفتحت مكة أبوابها وبلال يؤذن فوق الكعبة ودخلت سادات قريش فى دين محمد وأسلم أبو سفيان زعيمها . . انتهى كل شىء . . » .

وصمت الرجال بينما عاد وحشى يقول :

- «من أنت أيها الرجل؟؟» .

- «أنا مالك بن عوف النضرى . . » .

قال وحشى فى طرب :

- «زعيم هوازن وسيدها؟؟» .

- «أو عرفتنى يا فتى؟؟» .

- «ومن منا لا يعرف الفارس المعلم، والبطل المغوار..».

- «من أى قبيلة أنت؟؟».

تلعثم وحشى لحظة ثم قال:

- «أنا.. أنا.. وحشى بن حرب.. قاتل حمزة..».

ضحك مالك بن عوف ملء شدقيه وقال:

- «أهو أنت؟؟».

- «أتعرفنى؟؟».

- «بالطبع.. لكن لم أكن أتصور أنك على هذه الدرجة من الجبن والهلع..».

طأطأ وحشى رأسه فى أسى وقال:

- «إن محمداً أهدر دمى.. لم أستسلم.. حاربت أنا وعكرمة بن أبى جهل ورجال من بنى بكر.. لكن كان عبثاً أن نستمر فى المقاومة وقد سيطرت جيوش محمد على مكة بأسرها.. فلذت بالفرار.. وعندما رأيتكم توهمت أنكم من المسلمين.. فخفت على حياتى.. تلك هى الحقيقة.. أيموت الإنسان هكذا بسرعة دون أن يحقق غايته؟؟ إننى لا أنشد الحياة إلا لأجد الفرصة كى أحارب محمداً من جديد.. لن أسلم له نفسى بلا ثمن.. يجب أن يعلم أن عداءه لى، وإهداره لدمى سوف يكلفه الكثير..».

هز مالك بن عوف رأسه قائلاً:

- «أبشر يا وحشى.. إن ورائى عددًا من الرجال الأقوياء سينفرون لضرب محمد.. إنه لا شك قادم إلينا.. فهو يريد أن تدين له العرب قاطبة.. ونحن نرفض دعوته، والانصياع لأمره.. وسنسبقه إلى الاستعداد، ونحصره فى مكة ونقضى عليه قضاء مبرمًا..».

قال وحشى فى فرح صبيانى:

- «وسينصركم كثيرون من أهل مكة.. إن عددًا كبيرًا منهم قد أسلم تقية، وخوفًا على أنفسهم..».

قال مالك بن عوف فى صوت أجش:

- «إن من يقبل القهر والذل ليس من الرجال..».

- «لا فض فوك يا مالك..».

قال مالك وهو يجذب عنان فرسه:

- «حسنًا.. إلى أين أنت راحل؟».

- «إلى الطائف.. إن أهلها لا يقلون تحمسًا وثورة ضد محمد عن هوازن..».

- «أتريد شيئًا يا وحشى..».

- «رافقتكم السلامة..».

- «فلتبلّغ «عروة بن مسعود» زعيم ثقيف عنا السلام . . » .

ومضى وحشى فى طريقه ، وقد ازداد حماسًا ، وتسرب إلى قلبه غير قليل من الرضى والسعادة ، وكيف لا يسعد وهو يرى قبائل هوازن صعبة المراس ، تعد العدة ، وتسرع لضرب محمد ورجاله؟؟ لم تزل الدنيا عامرة بالرجال الكبار الذين يعرفون كيف يذودون عن كبريائهم . . وكيف يحقدون ويعادون .

وتمتم وحشى : - «اللعنة عليك يا أبا سفيان . . أيها المتردد الضعيف يا داعى الحكمة والروية . . لو استمر القتال بضع ساعات لشهدت مكة أروع مذبحة للمسلمين . . » .

وبلغ وحشى الطائف بعد عناء وجهد ، لم يكف عن المسير أثناء الليل والنهار ، وضن على نفسه بأى قسط من الراحة . . وهناك تجمهر حوله الرجال ، وأخذوا يتساءلون عن صحة ما بلغهم من أنباء محمد وفتح مكة . .

واستمع إليه الرجال صامتين يفكرون . . إنهم يذكرون جيدًا يوم أتاهم محمد بنفسه -قبل الهجرة- يدعوهم إلى عبادة الله ، ويطلب منهم الإيمان برسالته ، وأن يحموه من ظلم قريش وبطشها . . ويذكرون أنهم قابلوا محمدًا أسوأ استقبال ، آذوه . . وسبوه وقذفوه بالأحجار . . وبقوارص الكلم حتى دمعت عيناه ، واتجه بدعواته إلى الله . .

يذكرون كل ذلك . . فهل سيأتى محمد لتأديبهم؟؟

وصاح أحد رجال ثقيف :

- «يا بنى ثقيف . . إن مدينتكم حصينة . . وأسوارها متينة البناء، وحصونها تستعصى على الغزاة . . ومحمد لا شك قادم إليكم . . فأعدوا أنفسكم ليوم شاق عصيب، وتزودوا بالمؤن والسلاح . . إنكم تستطيعون أن تصمدوا فى وجه محمد . . ولا تتركوا أمركم للصدف . إنها معركة حياة أو موت . . معركة كبرى . . فانفروا جميعًا واستمسكوا بدينكم، وموتوا دون «إلهكم اللات» فتعزوا وتسعدوا . . ويتقهقر عدوكم . . ويتحدث بمجدكم العرب فى كل مكان . . » .

وصدر هدير عن الجمع الحاشد :

- «هذا هو الحق . . » .

وسأل وحشى رجلا من الواقفين :

- «أهذا هو عروة بن مسعود؟؟» .

فجاءه الجواب بالنفى . . وأخبروه أن عروة باليمن . .

•••



تعانق سهيل ووحشى عند اللقاء عناقًا حارًا ذابت فى خضمه الشحناء الماضية والاختلاف فى الرأى والعقيدة، وقال وحشى بعد أن استقر به المقام:

- «كنت متهيبًا المجىء إلى الطائف، فقد خفت ألا أجدك، ربما تكون يا سهيل قد لحقت أنت الآخر بمحمد، خاصة أنك تخفى إسلامك منذ فترة ليست بالقصيرة.. عندما وقعت عينى عليك كأنى قد عثرت على نفسى.. إن الصديق المخلص يا سهيل أعظم نعمة فى هذا الوجود، وهذا أمر لا يتبينه المرء إلا فى دياجير الملمّات الخانقة.. أعرف أنى قد قسوت عليك فى آخر لقاء لنا بمكة، وأعرف أنك شديد التمسك بدعوة محمد.. ومع ذلك فقد كنت على ثقة تامة بأنك سوف تفسح لى فى قلبك وبيتك مكانًا رحبًا..».

قال سهيل:

-«أنت هنا على الرحب والسعة . . وشعورى نحوك لم تغيره الأحداث ، وإنى لعلى يقين بأنك ستنصاع للحق آخر الأمر» .

هتف وحشى محتداً :

- «لو لم يكن فى الدنيا غير الحق الذى لدى محمد لما تبعته» .

- «لا تكن متعنتًا . . » .

شرد وحشى ، وبدا الحزن فى نظراته وعلى وجهه وتمتم :

- «تركت دارى وإبلى وأغنامى ومستقبلى فى مكة . . إنه لشىء قاسٍ أن يُجبر الإنسان على النجاة بحياته . . فالمرء عند ذلك يستشعر الكثير من الهوان والحقد والغيظ . . » .

وابتسم سهيل قائلاً :

- «إنى لجد سعيد أن تشعر بها الآن» .

- «كيف تسعد لعذابى؟؟» .

- «ألم يحدث هذا لمحمد وصحبه عند هجرتهم؟؟» .

- «هم الذين اختاروا ذلك» .

- «وأنت؟؟» .

- «أنا يا سهيل لو بقيت لضرب محمد عنقى . . ».

هز سهيل رأسه وقال :

- «لماذا تترك موطنك؟؟».

- «لأنجو بحياتى . . ».

- «إنك لم تزل تفكر فى نفسك . . تفكيرك فى أضيق الحدود».

- «ماذا كنت فاعلاً؟؟».

- «كان عليك يا وحشى أن تفكر : هل محمد على حق أم لا؟؟».

- «وما قيمة التفكير إذا كانت حياتى مهددة؟؟».

- «الرجال الشرفاء يا وحشى يتبعون الحق ولو كان فى ذلك حتفهم . . ».

- «حياتى أثمن من أى شىء فى الوجود، ثم إن الحق الذى يدعو إليه محمد لم يدخل قلبى . . ».

- «أنت وشأنك . . ».

وصمت سهيل برهة ثم قال :

- «لقد كنت أفكر فى اللحاق بمحمد . . إنه يخوض أهم

المعارك الآن وأخطرها شأنًا . . لقد فاتنى شرف المعارك الماضية . . وكان يجب أن أكون فى مكة عند فتحها . . وما أظن أن مقامى بثقيف فى الطائف سيطول . . » .

قال وحشى :

– «ولِمَ لم تفعل ذلك؟؟» .

– «آه . . هذا هو السؤال . . ربما يكون لى بعض العذر . . » .

ولم يشأ سهيل أن يفصح عن ذات نفسه ، لقد كان يقوم بمهمة كبرى فى سبيل دعوة محمد ، كان يمارس التجارة ، وينتقل من مكان إلى آخر ، ومن بلد لبلد ، ويخالط كبار القوم ، ويعيش فى الطائف –إحدى قلاع العداء ضد محمد– وكان عليه أن ينقل إلى المسلمين فى المدينة كل ما يلتقطه سمعه من أنباء ، وما تقع عليه عينه من تحركات وأحداث . . إنه لا شك يؤدى دوراً بالغ الخطورة . .

قال وحشى :

– «فيم تفكر يا سهيل؟» .

ابتسم سهيل قائلاً :

– «ماذا تعنى؟؟» .

- «سينتصر محمد بإذن الله . . والرسول على حق يا وحشى، إن عبداً مثلى ومثلك قد صعد الكعبة، وارتكز على أعلى قمة فى البيت الحرام، وجلجل صوته بالأذان يدعو الناس إلى الصلاة كى يقفوا صفًا واحدًا متساوين متحابين . . بلال يا وحشى . . أتذكره؟؟».

هز وحشى رأسه قائلاً:

- «أجل . . رأيته . . ورأيت الطمأنينة تبدو على ملامح وجهه وفى نبرات صوته، وخطواته . . لكنه ساذج لا يفكر بعمق . . لا يتعذب فى البحث عن الحقيقة . . ».

قال سهيل:

- «إنك تسمى الأمور بغير مسمياتها، وتحاول أن تشوه جمال الإيمان عند الآخرين، حتى ترضى نفسك، وتلتمس المعاذير لعنادك . . وتبرر خطأك . . بلال ليس ساذجًا . . إنه أشجع منى ومنك، وأكثر تضحية، وأعمق تفكيراً . . هداه الله فالتقت بصيرته بنور الحق فى وقت مبكر . . آمن والشرك فى عنفوانه، وتعرض للعناء والبلاء حتى أوشك على الموت . . تزلزلت الجبال وإيمانه لم يتزلزل . . بل كان يردد أثناء إشرافه على الموت «أحد . . أحد . . ».

أشاح وحشى فى ضيق وقال:

- «لن أسلم حتى يسلم أبو جهل فى قبره . . ولا تفرح بالنصر الذى حققه محمد فى مكة . . إن كثيرين ممن أسلموا بعد الفتح تنطوى قلوبهم على الحقد والكفر . . ويتربصون بمحمد الدوائر ، وقبائل «هوازن» تصارع محمداً الآن صراعًا رهيبًا فلو انتصرت هوازن لما استطاع أن يعود محمد إلى مكة فلسوف يجهزون عليه إن عاد . . » .

قال سهيل :

- «لو أخذنا الأمور بمنطق الاستعداد الحربى وحده ، ونظرنا فرأينا محمداً يقود اثنى عشر ألفًا . . لتوقعنا انتصار المسلمين . . » .

●●●

أصبح الصباح ، وامتلأت الطائف بعديد من الأخبار والتكهنات ، وأغلب الأنباء تجمع على أن «هوازن» ومن والاها من ثقيف والقبائل الأخرى ، قد نصبت للمسلمين كمينًا فى الفجر ، وحصرتهم فى مجال ضيق بين جبلين ، وانحدرت من أعالى الجبال ، وأثارت الارتباك والذعر فى صفوف المسلمين وأخذتهم على حين غرة ، حتى إن المسلمين فى عتمة الفجر وجو المباغتة والاضطراب ، أخذ بعضهم يضرب بعضًا ، ولاذوا بالفرار . .

وصفق وحشى بيديه فرحًا ، بينما أطرق سهيل فى شىء من الضيق ، وظل صامتًا دون أن يعلق بكلمة واحدة . . وبعد

ساعات قليلة، وقف أهالى الطائف ينظرون إلى الموكب القادم وهم لا يريدون أن يصدقوا أعينهم . .

ماذا جرى؟؟

هذا هو مالك بن عوف قائد هوازن ومن والاها يأتى هاربًا مذعورًا عليه الغبار والجراح والتعاسة، ومن خلفه عدد من رجالات هوازن المهزومين وقليل ممن نجوا من رجال الطائف.

قال وحشى وقد اكفهر وجهه:

- «خبرونى . . إننى لا أفهم . .».

قال مالك بن عوف وقد تجمهر حوله عديد من الناس:

- «فى الحقيقة إننى أشد حيرة مما رأيت . . هزمناهم فى البداية . . وقد ولوا هاربين حتى إن أبا سفيان قال: إن هزيمة المسلمين وفرارهم لا يردها إلا البحر . . قتلنا من المسلمين خلقًا كثيرًا . . وفجأة حدث ما لم يتوقعه أحد . . صمد محمد بعدد قليل . . ونادى المهاجرين والأنصار وذكّرهم بالبيعة والعهد والجنة . . وكلمات أخرى كثيرة كانت كالسحر . . فتجمعوا حوله من جديد . . وانقلبت الآية . . كان معنا نساؤنا وأولادنا وإبلنا وأغنامنا . . ماذا أقول . . استولى محمد على كل شىء . . انتصر وأخذ النساء والأطفال سبايا، والرجال أسارى . . وغنم المال والإبل والأغنام والجياد . . وأى حياة تهنأ لنا بعد أن فقدنا المال والولد والكرامة؟؟».

ثم التفت إلى الحاضرين قائلاً:

- «وقد جاء دوركم يا أهل الطائف، إما الاستسلام أو الحرب الضروس، فاختاروا أيهما شئتم..».

صاحوا بصوت كالرعد:

- «الحرب.. ولو فنينا عن آخرنا..».

- «محمد يذكر إساءتكم القديمة.. ولن يرحمكم...».

قال سهيل معرضًا نفسه لنقمة الحاضرين:

- «محمد يغفر لمن جاءه معتذرًا.. ألم يقل لأئمة العداء في مكة اذهبوا فأنتم الطلقاء؟؟».

وهدرت أصوات الرجال، ورموا سهيلاً بكل ما يعرفون من كلمات السب المقذعة، ولكزه رجل يقف إلى جواره:

- «اخسأ يا عبد السوء..».

وصممت الطائف على أن تعد نفسها إعدادًا كاملاً لحرب قاسية، ورفضت أن تكفر بصنمها «اللات»، أو تضع يدها في يد محمد.

وفي الصباح اختفى سهيل...

أخذ وحشي يبحث عنه في كل مكان فلم يعثر له على أثر.

●●●



منذ «أحد» ووحشى لم يسمع بخبر يثلج قلبه عن محمد خاصة، عندما يصاب المسلمون بأذى، أو يتعرضون لما يشبه الهزيمة، فإن أمرًا كهذا يُدخل السرور على نفس وحشى، وكان يتمنى أن تدور الدائرة على المسلمين إذا ما دهموا الطائف وتحصن بنو ثقيف وأشياعهم وراء الأسوار والحصن متينة البناء، وصمدوا للمسلمين صمودًا قويًا، وكان لديهم الطعام والمال والرجال والسلاح، ومعهم العناد الشديد أيضًا، وجرب المسلمون وسائل عدة لاقتحام الحصون والأسوار، مستعملين مختلف الخطط والأسلحة، لكنهم تعرضوا للنبل والسهام، ولم يكن هناك وسيلة سوى محاصرة بنى ثقيف لوقت طويل، فأعلن الرسول أنه ذاهب عنهم طوال الأشهر الحرم وأنه سوف يعود إليهم فى وقت قريب. . . وفاض السرور بوحشى الذى شارك فى الدفاع عن الطائف وبذل أقصى ما يستطيع من جهد، ألم يعجز المسلمون عن اقتحام

الطائف، وهم الذين فتحوا مكة فى وقت قصير، وهزموا هوازن هزيمة نكراء؟؟ إلا أن ثقيفًا -كما يعتقد وحشى- ستكون هى الصخرة العاتية التى ستتحطم عليها آمال المسلمين . .

قال وحشى لسهيل عندما عاد من سفرته المفاجئة :

- «أين كنت؟؟» .

- «آثرت يا وحشى أن أكون على الحياد . . فتركت الطائف حتى تنتهى المعركة . . » .

ولم يفكر سهيل فى أن يخبر وحشيًا بالحقيقة، ولا يكشف له الستار عن مهمته الخطرة التى خرج فى سبيلها إلى المسلمين كى يصف لهم الموقف فى الطائف، والاستعدادات الجارية فيها .

وقال وحشى :

- «ألا ترى يا سهيل أن الأيام دول، وأن محمدًا ورجاله قد عادوا مقهورين؟؟ إن النصر السهل الذى توقعته أنت لم يكن سوى إفراط فى الآمال لا مبرر له . . » .

قال سهيل :

- «ومع ذلك فإن لى رأيًا آخر فى الموضوع . . » .

- «ماذا؟؟» .

- «لن يستدير العام حتى تكون الطائف قد أعلنت إسلامها وانحازت لصف محمد . . إن القبائل المجاورة كلها قد أسلمت ، وهم يكبدون بنى ثقيف خسائر كثيرة ومضايقات عدة . . ولا يمكن أن تعيش الطائف فى معزل عن الأحداث ، أو تعيش وحدها فى عناد والعرب من حولها قد انفضوا عنها وانحازوا لمحمد . . إن المسألة مسالة وقت ليس إلا . . . » .

وقدم رجل أثناء ذلك ، ودق الباب فى عنف ، ففتح سهيل له وقال : ماذا وراءك من أنباء»؟

- «ألم تسمعوا؟؟» .

وثب وحشى من مكانه ، وجرى صوب صديقهما قائلا :

- «ماذا هناك؟؟» .

- «فر مالك بن عوف سيد هوازن . . » .

قال وحشى :

- «فر مالك؟؟ كيف؟؟ ولماذا؟» .

- «لقد ذهب رجال من هوازن إلى رسول الله ، وأعلنوا إسلامهم ، وطلبوا أن يرد عليهم نساءهم وأبناءهم ، فسُرَّ محمد بذلك وأجابهم إلى طلبهم ، ثم حملهم رسالة إلى مالك

بن عوف النضرى، وهى أن الرسول على استعداد لأن يعطيه نساءه وأمواله ومائة من الإبل إذا عاد إليه تائبًا مسلمًا، وهكذا ركب مالك جواده، وانطلق فى غفلة من ثقيف إلى محمد..».

قهقه سهيل فى سعادة وقال:

- «والبقية تأتى..».

قال الصديق:

- «هذا ما حدث فعلاً.. لقد كانت ثقيف تضرب كفًا بكف ولا تكاد تصدق ما جرى فإذا بزعيم ثقيف عروة بن مسعود الذى كان غائبًا فى اليمن أثناء الحرب يعود.. ويطلب من قومه أن ينهضوا من عنادهم وغرورهم ويعلنوا إسلامهم.. ثم وقف بينهم وأذن للصلاة.. فأمطروه بسهامهم حتى قتلوه..».

صرخ سهيل:

- «قتلوه؟؟».

- «أجل يا سهيل.. لقد كان يبتسم ويردد: الحمد لله الذى كتب لى الشهادة فى سبيله..».

تمتم سهيل:

- «رحمه الله . . كنت أعلم أنه يخفى إسلامه . . وقد حذره محمد من الجهر برأيه إذ إن الوقت لم يحن بعد . . ولكنه كان رجلا شجاعًا، لا يخشى فى الحق لومة لائم . . إن دمه لن يضيع هدرًا . . فإما أن يسعى محمد ليثأر له، أو تبادر ثقيف باعتناق الإسلام . . » .

قال وحشى فى ضيق ظاهر :

- «خيرًا فعلت ثقيف، إن الزعيم الخائن ليس له جزاء سوى القتل . . ولقد قضى عروة بن مسعود جزاء خيانته . . » .

ومرت أيام عاصفة، شعرت فيها ثقيف بالقلق الشديد، الخطر يتهددها من كل جانب، ولا يكاد يقر لها قرار، أو يهنأ لها نوم، فمحمد سوف يدهمها إن عاجلا أو آجلا، وقد آن الأوان لكى يدفعوا جزاء عدوانهم وجحودهم .

وقال عقلاء الطائف :

- «إن الرجل -محمد- على حق، ونحن نكابر بلا مبرر . . ونعرض أنفسنا وأجيالنا للخطر . . » .

قال وحشى وقد اندس بينهم :

- «وكرامتنا؟؟» .

- «الحق فوق كل اعتبار . . كفى اندفاعًا وحماقة . . إن دم عروة المسكين فى أعناقنا وهو عار لن تمحوه الأيام . . » .

قال وحشي:

- «الحق هو ما ترونه أنتم لا ما يفرضه محمد عليكم..».

- «هراء..».

ولم يكد يمر وقت قصير حتى بادر زعماء ثقيف بالذهاب إلى محمد كي يعلنوا إسلامهم، ويبدوا أسفهم على ما فات من أخطاء...

وسر محمد بوفد ثقيف، وأكرم وفادتهم، وقد كللت مساعيهم لديه بالنجاح، فعادوا إلى الطائف بعد أن أرسل النبى معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة كى يقوموا بتحطيم صنم «اللات» معبود الطائف.

ووقف وحشى ينظر سطور المأساة الأخيرة..

- «أبو سفيان؟ ماذا أرى؟؟ هل ذهب عقلى أم عميت عيناى؟ رأس الكفر فى مكة، وأكبر عدو لمحمد.. يأتى ليسحق إله ثقيف ويسير بينهم بدعوة محمد؟؟ ويحك يا وحشى المسكين المعذب!! لقد ضاع الأمل، وأرى اليأس ينشر جناحيه السوداوين على أفقك التعس... أحاط بك الموت من كل جانب.. أسلمت الحجاز كلها، ولم يبق فيها إلا رجل واحد.. هو أنت. أيمكن أن يكون هؤلاء جميعًا على ضلال وأنت على حق.. لقد ضعت.. عشت تائهًا طول عمرى فى

بيداء السراب القاتل الكثيف لا أكاد أتبين الحقيقة . . ماذا بعد أن أسلم أبو سفيان وأصبح أحد الدعاة . . وأسلمت هند . . وأسلم عكرمة؟؟ انتهى الأمر . . وأصبح المستحيل حقيقة واقعة تمشى فى طول الجزيرة وعرضها على قدمين ثابتتين . . وامصيبتاه!! أين أذهب؟؟ هل سأنتظر حتى أجدنى بين يدى محمد، والسيف فوق عنقى . . ثم ينتهى كل شىء . . » .

وصرخ وحشى والدموع تغرق خديه :

- «لا . . لا . . لسوف أضع حداً لنهايتى بيدى . . أين حربتى . . لا بد أن أغرسها فى قلبى . . . » .

وتناول حربته، وسددها إلى صدره، وإذا بيد تمتد إليه فجأة، وتمسك الحربة :

- «ماذا تفعل؟؟» .

- «ما الذى أتى بك الآن يا سهيل؟؟» .

- «ألا إن باب الله مفتوح يا وحشى . . وليس على باب الله حراس ولا عتاة . . إنه يفتح لأى طارق . . وعندما تدخل يا وحشى ستجد النور والأمل والخير . . والغفران . . » .

التفت إليه وحشى فى ذهول وقال :

- «ماذا تقول؟؟ إنك تخدعنى . . تريد أن تقدمنى ضحية إلى رسولك . . . » .

- «وحشى . . أنا لا أقول إلا الحق . . ».

- «لقد قتلت حمزة يا سهيل . . إنه عم الرسول . . هل نسيت؟؟».

- «لا يصح أن تفكر فى أمر كهذا . . ».

- «فيم أفكر إذن يا سهيل؟».

- «تفكر فى دعوة الله . . هل هى الحق؟؟ وبعد ذلك فليكن ما يكون . . ».

قال وحشى :

- «سأموت . . ».

- «لسوف يعصمك إسلامك . . ».

- «أنا لا أثق فى أحد . . ».

- «لأنك لا تعرف الله ، ولم تجرب العيش فى رحاب النبوة . . ».

زمجر وحشى فى حدة :

- «لسوف أفر إلى الحبشة أو اليمن ، أعرف أن هناك الشقاء والعذاب والندم . . لكنى لن أسلم رقبتى لسيوف المسلمين».

انتزع سهيل الحربة ، وقال فى إصرار :

- «لن أتركك للضياع، هذه آخر فرصة.. لسوف أسوقك سوقًا إلى الحق.. إلى الحياة الكريمة..».

انفجر وحشى باكيًا، وأخذ يعول كثكلى، وكان يقول من بين دموعه:

- «آه. إننى أعرف أنه الحق.. أشعر أن ضوءًا قد سلطه الله الآن على قلبى لا أستطيع نكرانه.. وأشعر أن أفكارى مكشوفة ومقروءة للجميع.. محمد على حق يا سهيل.. أدركت ذلك بفكرى وروحى منذ زمن بعيد.. لكننى كنت أحاول أن أطمس الحقيقة.. أن أخفيها وراء ستار كثيف من العناد والحماقة لم يكن الأمر فى حاجة إلى دليل.. لقد رأيت المسلمين يحاربون ورأيت بلالاً يؤذن.. وشهدت عبلة وهى تلفظ الخوف والجمود ولا ترهب الحديد والنار.. ورأيت وصال البغى الخاطئة.. تخلع عنها بغيها القديم.. وخطاياها المزمنة وتفر إلى الله.. آمن العبيد والسادة.. والفقراء والأغنياء.. والخطاة والفضلاء.. فتح محمد ذراعيه لكل الناس.. بحثت عن الحرية الحقيقية، والكرامة الأصيلة، والأخوة الصادقة فلم أجدها إلا لديه.. لكن.. آه.. كان بينى وبينه دم حمزة.. حتى أولئك الذين أغرونى بقتل حمزة أسلموا...».

أسرع سهيل قائلاً، وقد تندت عيناه بالدموع :

- «إذا كان قد عفا عن أئمة الكفر، والمحرضين على قتل عمه، أفلا يغفر لك؟؟ والله إن محمداً ليفرح برجل يأتيه مسلمًا أكثر من فرحه بملء الأرض ذهبًا . . . ».

التفت إليه وحشي وقد بدا الاستسلام والارتياح على وجهه وقال :

- «أواثق مما تقول؟؟».

- «كل الثقة . . اذهب إليه، واشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول لله، عندئذ تعصم دمك ومالك . . والأهم من هذا كله . . يعود إلى نفسك الأمن الذى فقدته طول عمرك . . وتنمحي أحقادك القاتلة . . وتزول عنك الكبرياء الفارغة . . لأنك عندئذ تكون في كنف الله . . بارئ السماوات والأرض . . رب الناس جميعًا . . ».

طأطأ وحشي رأسه قائلا :

- «آمنت بالله . . . ».

ثم صمت برهة، وقد أشرقت ملامح سهيل بالبشر والسعادة وقال وحشي وقد زاغت نظراته :

- «لكني أراه . . ».

قال سهيل:

- «من؟؟».

- «حمزة بن عبد المطلب.. إننى أراه.. فى يقظتى وفى نومى.. إنه ينظر إلىّ الآن.. يبتسم.. أكاد أجن.. إننى لا أدرى معنى لابتسامته الغامضة.. إننى أتعذب يا سهيل.. أنقذنى خذ بيدى.. لشد ما أنا خائف..».

احتضنه سهيل بين ذراعيه، وضمه إليه فى رفق وقال:

- «أنت أخى.. لا تخف.. لقد جاء فى كتاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].. والإسلام يا وحشى يجب ما قبله.. فإذا ما وقفت بين يدى محمد، ونطقت بالشهادتين.. فاعلم أنك قد ولدت من جديد.. بلا خطايا ولا ذنوب ولا أحزان...».

جفف وحشى دموعه قائلا:

- «إن كلماتك كالبلسم الشافى.. إنها تفتح قلبى وعينى على عالم رائع بهيج.. يفيض بالنور والحب والأمل..».

●●●



أشرقت الشمس على «وحشى» وهو يغذ السير صوب المدينة، كان أكثر هدوءًا واطمئنانًا، لم يعد يرهب الموت، لكنه كان مشفقًا أشد الإشفاق من لقاء الرسول، كيف تلتقى نظراته بنظرات الرسول؟؟ إن شبح الشهيد العظيم سوف ينتصب بينهما يثير الألم والذكريات، والناس من حول الرسول سينظرون إليه نظرات كلها الغيظ والحقد، فهم يعرفون مدى الألم العميق الذى حز فى نفس محمد يوم رأى حمزة مسفوك الدم، ممثلا به أشنع تمثيل..

- «أجل.. أنا الذى قتلته غيلة.. جبنت عن لقائه فى ميدان مكشوف.. لم أكن فى حالة عقلية سليمة كنت على استعداد أن أفعل أى شىء لأنال حريتى.. لا تهم الوسيلة، لم أستطع أن أتصور العلاقة الحقيقية بين الغاية والوسيلة، تصورت أن الحرية شىء ينال بإجراء شكلى، وطقوس معينة.. فإذا بى بعد أن نلتها أتعس حالاً، وأشد التصاقًا

بالقيود والعذاب والضياع . . وكنت قصير النظر لم أفكر فيما يسمى بالمبادئ . .

كانت تبدو لى خرافة لا تستحق التفكير فيها. الناس كما كنت أعتقد قطيع من الوحوش، كل يفكر فى نفسه . . فيفترس ليأكل ويملأ جوفه، ويرضى غرائزه . . كنت أشبه بالحيوان . . تلك هى الحقيقة المرة . . لم أتبين أن هناك طائفة أخرى من الناس تعيش وتموت فى ظل قيم رائعة ما حلم الإنسان بأعظم منها . . بئست الصفقة ! ! ليت الأيام تعود، وليتنى أستطيع أن أبدأ من جديد فأتجنب الكثير من الحماقات . .

كنت أعمى البصيرة . . مندفعًا أفكر فى أنانية وحقد، ولم أكن أعلم أن الأنانية والحقد، لا تسوقان إلا إلى الدمار والعذاب . . إنهما لم يأخذا بيد أحد إلى عالم الحرية والحب والسعادة، ترسبت أحقاد السنين فى لحظة حمقاء، فأوردتنى مورد الخطيئة الكبرى . . . قتلت حمزة . . يا للعار ! ! وكنت أفخر بذلك وأشمخ بأنفى يا للعار ! ! واليوم أذهب إلى مدينة الرسول . . سأدخلها متسللا خجلا . . مطأطأ الرأس، كسير النظرات . . يلاحقنى الندم والماضى الأسود . . والتاريخ الكريه . . لو قتلنى محمد لكان محقًا فيما يفعل . . ليكن أى شىء . . فليكفنى أننى استبنت طريق الحق، وتفتح قلبى لنور الهداية، وآمنت بالله ورسوله . . ».

وبلغ وحشى المدينة بعد ليال وأيام. . دخلها مستترًا متخفيًا حتى لا يتعرف عليه أحد، وأخذ يتحسس أخبار الرسول ويسأل عن مكانه، وأخذ يشق الطريق إليه. . هناك وجده جالسًا فى تواضع رزين، عيناه تشعران بالثقة، وتفيضان بالحب، قبس الإيمان يتجلى على جبينه الطاهر، فاندفع فجأة، انطلق قائلاً:

- «جئتك يا محمد أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله».

ابتسم الرسول فى رضى، ثم دقق النظر فى الرجل الواقف أمامه، وسرعان ما ذبلت ابتسامة الرسول، وبدأ الألم والضيق على وجهه وقال فى تأثر:

- «أوحشى أنت؟؟».

قال وحشى:

- «نعم يا رسول الله. .».

وسادت فترة صمت قصيرة، كانت مليئة بآلاف المشاعر التى لا يعلم كنهها إلا الله، وقال الرسول بصوت متهدج:

- «اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة. . .».

انهمرت دموع وحشى، وأخذ يروى كل شىء. . والرسول

يستعيد اللحظات الأليمة، فعلى أكتاف الشهداء الأبطال وعلى رأسهم حمزة، قام هذا البناء العظيم، وفاض النور فى كل الأرجاء، وامتدت دعوة الله، فشملت الجزيرة. . وروعة النصر وحلاوته لا يُنسيان محمداً هؤلاء الجند الأوائل الذين ضحوا بأغلى ما يملكون فى سبيل الله. . . وما إن انتهى وحشى من كلامه حتى قال رسول الله لوحشى:

- «ويحك!! غيّب وجهك عنى. .».

لقد أسلم وحشى. .

وأصبح واحداً من المسلمين الأحرار. .

لكن. .

واأسفاه. . إن كلمة الرسول ظلت -وستظل- تطن فى رأسه «ويحك. . غيب وجهك عنى». إنها كلمات تحمل فى طياتها العذاب والأرق والندم العميق. . كلمات أعنف وأقسى من القتل. .

- «آه يا سهيل. . ليته قتلنى واسترحت. . محمد يقول لى غيّب وجهك عنى. . كلماته يا سهيل ستدور فى عرض الجزيرة وطولها. . وسيحملها التاريخ، كى تتناقلها الأجيال المقبلة. . كلمات تنغرس فى قلبى ورأسى وجسدى فتحرمنى السعادة، وتشوب سعادتى باعتناقى دعوة الله. . . لو قالها يا

سهيل إنسان غير محمد لما حركت فى جسدى شعرة، ولا أثارت فى نفسى قلقًا أو همًا . . الناس يروحون ويجيئون، وينعمون بالحديث إلى رسول الله، ويبش فى وجوههم، ويشنف آذانهم بنبراته القدسية، ونصائحه الغالية . . ويلمسون يديه، ويبثون إليه آمالهم وآلامهم . . وأنا وحدى حزين . . أنظر إليه من بعيد . . محاولاً جهدى ألا يرانى . . وأملأ عينى بطلعته النبوية . . لكننى أظل أشعر بالظمأ الحارق إلى القرب منه . . إلى حديثه العذب . . إلى نفحاته الشذية . . سأظل ظامئًا طول حياتى يا سهيل . . وفى المسجد . . أبحث عن ركن آوى إليه، حتى لا تقع عيناه علىّ وهو على المنبر . . ألم يقل لى «غيّب وجهك عنى؟؟» . . لكأنما قد صبغ وجهى التعس بدم الشهيد . . أو لعل محمدًا أدرك بحدسه ما كان يعتمل فى صدرى من أحقاد . . آه . . إن قتل حمزة هو أساس البلاء كله فى حياتى . . هو الذى أفقدنى الأمل فى النجاة، ولوّن حياتى باليأس، وجرّنى إلى العناد والحقد الزائد . . وأوقعنى فى الكثير من المتاهات والخطايا، كأن مصرع حمزة لعنة أصابت أمنى وهنائى، وأضاعت حبى وآمال فى الغد الباسم . . غيب وجهك عنى . . يا لها من كلمات قاسية!! لعلها أقسى من الجحيم ذاته . . اللهم رحمتك . . لكن ثق يا سهيل أننى لن أستسلم لليأس . . إن ذلك الظمأ الخالد سيدفعنى إلى الفناء فى

سبيل الله. وسأظل أحب محمداً حبًا أروع من حب أى مسلم آخر. . ولسوف أنطلق مجاهداً فى سبيل الله لا أرهب الموت حتى أنال الشهادة. . . عندئذٍ يبتسم لى محمد. . وأكون فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء. . مع محمد. . ولسوف أدعو الله أن يوفقنى لعمل عظيم. . ولن أفقد الأمل. . . لن أفقد الأمل ما حييت. . . ».

وعلمت المدينة بإسلام «وحشى»، واستعاد الناس أيام «أحد» وما جرى فيها من أحداث، ودفعهم حب الفضول لأن يلاحقوا «وحشيًا» بنظراتهم أينما حل وحيثما رحل. .

قال زوج عبلة لها:

- «أما سمعت الخبر؟؟؟ لقد أسلم قاتل حمزة. . ».

قالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة خالصة:

- «وحشى بن حرب؟؟».

- «أجل. . ».

- «هذا نبأ سار. . لشد ما أسعد بعودة الخطاة إلى الله. . هذا المسكين تعذب كثيراً، واضطرب فى حياته أيما اضطراب والناس مختلفون يا زوجى الحبيب، منهم من يجد الطريق الأقصر إلى الحق، ومنهم من تضل خطاه، وتعمى بصيرته،

فيضرب في التيه، ويقاسي الكثير من الظمأ والحرمان والضياع . . . ثم يصل في النهاية مرهقًا مكدودًا . . وهو أشد ما يكون لهفة إلى النور والري . . ».

●●●

قالت وصال لزوجها :

- «النسوة يتحدثن عن قاتل حمزة الذي أسلم بالأمس . . ».

- «كان يجب أن يضرب عنقه . . ومع ذلك فقد عفا الرسول عنه، لكنه قال له : غيّب وجهك عني . . إنها أقسى من الموت على نفس الإنسان . . ».

قالت وصال :

- «دعه يقلق ويتعذب بعض الوقت، فقد كان عنيفًا عنيدًا، إن ما فعله الرسول درس مؤثر، سوف يصفي جوهره وينقي فؤاده من الشوائب . . يا إلهي . . لقد أسلم العرب جميعًا حتى وحشي بن حرب . . صدق الله وعده، ونصر عبده وأعز جنده . . وهزم الأحزاب وحده . . ».

●●●

والتقى وحشي بسيده القديم جبير بن مطعم، وامتلأت نفس وحشي بالرضى حينما سمع جبيرًا يقول له :

- «أهلا أخى . . ».

شرد وحشى بضع لحظات، وأخذت كلمة «أخى» تردد صداها فى أذنيه، فيحلو رنينها، وتصعد نبراتها، وتبدو كاللحن العذب الجميل . . . «أخى» . . إنها أروع من الحرية . . والمال . . ونساء الأرض قاطبة . .

- «لقد سعدت حينما علمت بنبأ إسلامك يا وحشى . .

كنت مع الرسول . . . ».

قال وحشى فى لهفة:

- «أكان يتحدث عنى؟؟».

- «الحقيقة أننى سمعت الخبر من صحابته . . ».

أطرق وحشى صامتًا فى أسى، واستطرد جبير:

- «لشد ما أنا سعيد بقربى من محمد . . إننى ألتقط كلماته وأحفظها عن ظهر قلب، وأرويها بنصها لكل من لاقيت . . ».

قال وحشى وقد ترقرقت الدموع فى عينيه:

- «لكنه ﷺ قال لى: غيب وجهك عنى».

قال جبير:

- «أنت تعلم حب الرسول لحمزة.. كلمة قالها ليخفف عن نفسه ما ألم بها من حزن عميق، وذكريات أليمة..».

- «أنت الذى أغريتنى بقتله..».

- «أجل.. وليغفر الله لى ولك، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

- «صحيح؟؟».

- «أجل.. بنص كتاب الله... والإسلام يجبّ ما قبله، وأنت اليوم ولدت من جديد..».

قال وحشى وهو يجفف دموعه:

- «لكن شابت ولادتى كلمات قالها رسول الله، سوف تلتصق بتاريخى أبد الآبدين..».

تمتم جبير:

- «يا لها من أيام!! إننى أشد ندمًا منك على ما فات.. لكن هكذا شاءت إرادة الله أن تدمى أقدامنا فى طريق الشوك، وأن نذرف الدموع، ونتكبد الآلام... حتى نبلغ مطلع النور».

تمتم وحشى فى شرود:

- «أجل.. مطلع النور.. حيث تبدو الحقيقة وهى أروع ما تكون صفاء وصدقًا.. وفى أرضها الخصبة تورق نفس الإنسان بالخير والرخاء والحب والأمل...».

●●●

٢٩

الخاتمة:

ومرت الأيام، ووحشى يتفيأ ظلال العقيدة الكبرى، التى أذهبت عنه الحزن وملأت قلبه بالحب والأمل، وعمرت فكره بالقيم العظمى، وأسقطت من قلبه وحياته آلهة الزيف والغرور والجهل، لكن أمور الناس تضطرم فى يوم من الأيام التى لا تنسى، ويصاب القوم بالذهول، وهم لا يستطيعون أن يصدقوا ما يجرى من أحداث، لقد مات محمد.. فكادت تلتاث عقولهم، وانتابهم ما يشبه الضياع.. وصرخ عمر فى حدة:

- «إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى، وأنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، والله ليرجعن رسول الله كما

رجع موسى، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات..».

مسكين عمر بن الخطاب، إن حبه للرسول قد تمكن من قلبه أشد التمكن، وحياته الطويلة المليئة بأعلى القيم وأغلاها إلى جوار الرسول لا يجوز أن ينطفئ توهجها هكذا دفعة واحدة.. لكنها الحقيقة المؤلمة.. مات الرسول..

ويقف أبو بكر الصديق فى هدوء حزين صاخب، ويقول بصوت يتخلله البكاء:

- «أيها الناس.. من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت!! ثم تلا الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

آه.. خر عمر إلى الأرض ما تحمله رجلاه، موقنًا أن الرسول قد مات.. وانهمرت دموعه.. ودموع الناس الواقفين وقد هزتهم الحقيقة الأليمة... مات محمد.. لكنه حى بالدعوة الخالدة التى حمّله الله أمانتها.. بالمبادئ العظيمة التى قضت على الجهالة والشرك والظلم والاستغلال، بآيات الله التى ضمنها كتابه الخالد.. مات محمد البشر، وعاش

محمد الرسالة . . مات بعد أن حمل إلى العالم كلمات الله الأخيرة . .

- ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا . . . ﴾ [المائدة : ٣] .

وارتمى وحشى على الأرض وقد بلغته الأنباء المؤسفة ، ثم نهض بعد ساعة وهرول إلى المشهد العظيم :

- «أتموت يا مفجِّر ينبوع الحقيقة فى صحراء حياتنا القاحلة؟؟ كيف؟؟ أتموت يا مورق الأمل فى قلب التعساء والمحزونين؟؟ كيف؟؟ أتموت يا حامى الضعفاء ، ومحرر العبيد ، وقاهر الطغاة والأدعياء؟؟ وأنا . . وحشى ابن حرب . . أعيش؟؟ لماذا أعيش؟؟ غيبت وجهى عنك فى الدنيا . . فهل تحرمنى جلال النظر إليك فى هذه الآخرة يا شفيع المحرومين والمعذبين والمساكين فى هذه الأرض؟؟ عهد علىّ . . أن أحمل روحى على كفى ، وأنهض إلى أى أرض تقام فيها النصب للآلهة الزائفة . . فإما أن أسقطها أو أموت على أبوابها شهيدًا حتى ألقاك يا حبيبى . . غيبت وجهى عنك وأنا أشد ما أكون شوقًا إليك ، وكلما اختفيت عنك أحرقنى الشوق بنيران لا ترحم ، وازداد توهج الحب فى قلبى السقيم . . لكنك كنت معى يا حبيبى كنت أتمثل نظراتك . .

وابتساماتك، وكلماتك القدسية كنت أعيش معك بكل كياني، وأحيى فى المعانى بهيجًا أتحرك فيه، وأنا أعظم ما أكون سعادة ورضىً، وأملاً . . يا واهب السعادة والرضى والأمل بنور الله وكتابة مت يا حبيبى، لكنك لم تزل معى . . أراك . . أشعر بك . . أسمع كلماتك . . أتذكر نضالك العظيم . . ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تفرق بينى وبينك يا حبيب القلب والروح والفكر . .

فليزعموا أنك مت . . فأنت معى لا تغيب عن عينى وروحى، المآذن تهتف باسمك الغالى . . والمصلون يرددون اسمك . . المتحررون من إسار العسف والجهل والعبودية يصلون عليك . . وأنا أصلى عليك يا حبيبى . . » .

وأجهش وحشى بالبكاء . .

وربت سهيل على كتف وحشى فى حنان وقال :

- «أدى الأمانة، وأكمل الرسالة، وتركنا على المحجة البيضاء . . وعلينا أن نسير ونسير . . لا نهاية للسفر، إنه الجهاد الأزلى الدائم، فى الشرق والغرب، والشمال والجنوب . . نظل دائمى الترحال . . نحمى الحقيقة وننشر النور . . فإن الظلام لم يزل يرعد على التخوم . . وأرض الله واسعة يا وحشى . . » .

●●●

أصبح أبو بكر بعد وفاة الرسول خليفة للمسلمين، ولم يكد يستقر به المقام، حتى جاءته الأنباء تترى عن تمرد بعض القبائل وارتدادها عن الإسلام، وكان من نصيب «وحشى» أن يذهب إلى أرض اليمامة فى صحبة خالد بن الوليد للتصدى «لمسيلمة الكذاب» الذى ادعى أنه شريك محمد فى الأمر، وكانت فتنة داهمة، وحربًا ضروسًا راح ضحيتها الآلاف من المسلمين.

ويهرول وحشى إلى الجهاد وهو يقول:

- «أجل.. لا نهاية للسفر.. ولن نترك إنسانًا حاقدًا يطمس نور الحقيقة الكبرى، أو يجتث أفراح الأمل فى قلب الإنسان..».

وإبان احتدام المعركة فى أرض «اليمامة»، أخذ وحشى يبعث بنظراته هنا وهناك، حتى وجد رجلا أشعث الشعر، يقف على ثلمة جدار، ويناضل فى استماتة، وصرخ وحشى:

- «إنه هو.. «مسيلمة الكذاب».. ثم يسدد وحشى حربته، نفس الحربة التى رمى بها حمزة ذات يوم مشئوم.. ثم أطلقها فاستقرت بين ثديى مسيلمة، وخرجت من بين كتفيه فتهاوى الكذاب على الأرض، وانقض عليه أحد المسلمين بسيفه فأجهز عليه..

وانتهت المعركة بانتصار الحق . .

وجلس وحشى يهز حربته، ويقول :

- «بحربتى هذه قتلت خير الناس بعد رسول الله حمزة ابن عبد المطلب، وشرّ الناس مسيلمة الكذاب . . » .

ثم أغفا قليلاً من شدة التعب والسهر، وبعد ساعة أفاق من نومه فرحًا سعيدًا، ووجهه ينطق سعادة وبشرًا، وأخذ يصيح ويصيح : «الله أكبر . . الله أكبر . . » .

جاءه أحد المجاهدين قائلاً :

- «ماذا جرى يا وحشى؟؟» .

قال وحشى، وعيناه تسبحان فى الأفق الصافى، وكأنه فى حلم رائع بهيج :

- «رأيته فى منامى . . كان فوق جواد أبيض . . وابتسم لى، كنت خائفًا . . لكنه طوقنى بذراعيه وقبلنى . . وأخبرنى أننى سأكون معه فى الجنة . . » .

- «من هذا يا وحشى؟؟» .

- «حمزة بن عبد المطلب . . عم الحبيب . . رسول الله . . ورأيت من حولنا الحدائق الخضراء والرياحين . . وريح المسك . . وحمائم تسجع . . وأنغامًا حلوة شجية . أجل . .

مطلع النور.. حيث تبدو الحقيقة.. وهى أروع ما تكون صفاء وصدقًا.. وفى أرضها الخصبة تورق نفس الإنسان بالخير والرخاء والحب والأمل..».

●●●

وعاش وحشى بعدها مجاهدًا، وسار مع جموع المسلمين صوب الشمال، واشترك فى معركة «اليرموك» ضد حشود الرومان، وأبدى بطولة فائقة..

ثم يؤكد الرواة أن أجله قد وافاه على فراشه فى حمص بالشام، فى السنة الخامسة والعشرين للهجرة.

تمت

●●●